# المقتطف

الجزء الاول من المجلد السادس والتسعين

١ يناير سنة ١٩٤٠ — ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٥٨


# تأثير الحب والبغض

## والغضب وغيرها من الانفعالات في الصحة والمرض

### ١ — حوادث غريبة

دخل المستشفى يوم الاثنين وهو مصاب بمرض جلدي. ففحصهُ الاطباء فحصاً مدققاً. وامتحنوه بجميع الوسائل التي تمكنهم من معرفة استهدافه لمادة معينة اذا كان الاستهداف علة اصابته. فلم يهدهم الامتحان الى شيء لأن النتائج كانت سلبيةً جميعاً. ولكن بشرتهُ كانت متنفطة وعلى ذراعيه بثور. قال: — ان هذه البثور تظهر كل يوم اثنين تقريباً. فسألهُ الطبيب: وماذا تصنع يوم الأحد؟ فقال: أذهب في الغالب الى احدى الضواحي لمقابلة فتاة. فاستقصى الطبيب هذا الخبر فاذا الرجل خطيب تلك الفتاة من سنوات واذا الفتاة تؤجل يوم القران مرةً بعد أخرى. وكان الرجل يقتصد ما يستطيع اقتصادهُ من المال استعداداً للنهوض باعباء الزواج. وكان في كل احد يسعى جهدهُ لاقناع الفتاة باتخاذ قرار نهائي وتعيين يوم القران فكانت تروغ منهُ، وكان يصاب كل يوم اثنين بهذه البثور فكأن جلدهُ كان يثور متأثراً بحالتهِ النفسية

* * *

ثم هناك قصة فتاة اتلفتها إصابة بضريبراها عما جعلها بيضاء كالطباشير تقريباً، مخدرة لا تشعر بها. وهذه حالة تعرف في الطب بحالة « الاصبع البيضاء » وسببها اضطرابٌ في دورة الدم في الأصبع. واسمها العلمي مرض ريتو Raynaud. في هذه الاصابة تنقبض الشعيرات التي تحيط بأنابيب الدم الشعرية في الأصبع انقباضاً طويلاً فيضعف ورود الدم الى الأصبع. والطالب

ان تشل هذه الاصابة الاصابع والأباهم ، ولكنها كانت في حالة هذه الفتاة محصورة في بنصر يسراها. فهل كان السبب متصلاً بحالة الفتاة الانفعالية emotional ؟ وهل كون البنصر هي أصبع الخاتم دليلٌ على ذلك ؟ سئلت الفتاة في ذلك فروت قصة تؤيد هذا الرأي. قالت انها كانت قبل بضعة أشهر خطبة شاب تصرها سعادة الحب . ولكن شجر بينها خلاف فنزعت خاتمها من بنصرها في ساعة غضب ورمت به الى الارض قائلة هو ذا خاتمك . وفي مساء ذلك اليوم أحست وخزاً خفيفاً في بنصرها فتركتها حتى استكنّت ثم عاودها الألم فلم تجد الفرك في إزالته. واشتدت الاصابة حتى أحدثت ترحاً دفعتها الى استشارة الطبيب

* * *

ثم مثلٌ آخر . هو ذا رجل مصاب بالربو ، ملقىً على سرير في مستشفى . جاء المستشفى وربوهُ مشتدٌ عليه . فقضى بضعة أسابيع تحت اشراف الاطباء حتى تماثل الى الشفاء . وأقبل يوم خروجه من المستشفى صحيحاً معافىً ، فأعدت لهُ تذاكر السكة الحديدية الى قريته وحزمت أمتعتهُ وودّع طبيبهُ وممرضتهُ . ولكنهُ أصيب قبيل خروجه من المستشفى بنوبة شديدة من السعال ، فما انقضت ساعات حتى عاودتهُ جميع الاعراض الخطرة التي كان مصاباً بها عند مجيئه الى المستشفى وثبت لأطبائه أن في اخراجه من المستشفى خطراً على حياته . فأعيد علاجهُ حتى تماثل وحكم الأطباء بأنهُ يستطيع أن يسافر ولكن النوبة عاودتهُ قبيل السفرة مرة أخرى

فحصت حالتهُ من ناحية أخرى . وأثبت الفحص انهُ كان مدرساً في كلية زراعية في إحدى الولايات الاميركية الجنوبية . وحدث لهُ وهو مدرس ان اشترك في نزاع خطير أفضى الى استقالة عميده . فلما عين العميد الجديد توقع ان يرقّى نجاب أمله . ثم حدث ما حمله على الظن بأنهُ قد يقال . وها هو ذا في المستشفى يحسّ انهُ في مأمن من حالة ان رجوعهُ الى الكلية يعود به الى بقعة تؤلمهُ ذكرى حوادثها ويقلقهُ فيها احتمال اقالته من العمل الذي توفر عليه

* * *

هذه الحوادث الثلاث مأخوذة من حوادث مدونة تفصيلاتها في سجلات مستشفى كبير في الولايات المتحدة الاميركية وهي تذكر بحوادث تماثلها وقعت في الحرب العالمية الماضية . فلم يكن من النادر في الحرب الماضية ان يبعث قائد الفصيلة بأحد رجاله الى الثقة الحرام لدفن الموتى فيؤدي مهمته على أوفى وجه ولكنهُ لا يلبث بعد عودته حتى يدرك انهُ فقد حسّي الشم والذوق. ويروي الدكتور ارنست ستودن أحد أساتذة كلية طبية بغرب لندن قصة من الحرب القصص صاحبها شاب في السابعة والثلاثين ، كان في أحد المعسكرات البريطانية في انكلترا يتدرب مع زملائه توطئة لسفره معهم الى فرنسا . وفي احدى الليالي صدر الأمر اليه والى رفاقه بمهاجمة

خندق في ظلام الليل فكان اول من وصل الى الخندق وقفز اليه ولكن زميله الذي تلاه لم يره فقفز وراءه فأصاب سلسلةُ الفقرية بحذائيه الضخمين . فعجز بعد ذلك عن المشي . لأن المركز العصبيَّ الخاص بعضلات الفخذين أصيب على ما يلوح . ومضت ست سنوات اخرى وهو مقعد . فحكمت السلطات الطبية بنقله الى مستشفى يقضي فيه بقية حياته مع العجزة والمقعدين. ولكن طبيب هذا المستشفى لاحظ ان عضلات الفخذين غير ذاوية فبعث به الى عيادة خاصة لمراقبة حاله . وفي هذه العيادة عرفت قصتهُ

كان هذا الرجل وزوجهُ من عامة الناس . وكان قد تعطل عن العمل قبل الحرب العالمية الماضية ، فعمدت زوجهُ الى «الغسل» لتكسب بضعة دريهمات تقيم بها اودهما حتى تتحسن الحال . فأصابت النجاح في عملها فوسعت نطاقهُ وأخذت تستعين ببعض جاراتها من المعوزات . واشترك معها زوجها في ادارة المحل ثم نشبت الحرب العالمية ،فارتفع سعر الوقود والصابون ثم استخدمت النساء في بعض مصانع الذخائر بدلاً من الرجال وأخيراً جند زوجها فخرب عملها وكانت في طريقها الى اليسر . وكان زوجها يتلقى منها وهو في المعسكر رسائل تدمي القلب فيكمدُ ويتمُّ . ثم حدث لهُ ماحدث في الخندق . كانت الاصابة أليمة لاريب في ذلك،ولكن هل أحدثت شللاً أو هل كان الشلل ناشئاً عن حالة نفسية فلم تكن حادثة الخندق إلاَّ سبباً مباشراً فقط ؟

فحصهُ الطبيب فحصاً مدققاً فوجد ان نخاعهُ الشوكي غير مصاب ، فقال لهُ ذلك ، وبيَّن لهُ الصلة بين العقل والجسم ، فكان هذا البيان في نظر الرجل ، في منزلة العفو عن رجل محكوم عليه بالاعدام . فبدأ يحرك فخذيه بعد المقابلة الاولى مع هذا الطبيب . وانتصب واقفاً عليهما في المقابلة الثانية بل خطا بضع خطوات الى الامام في حذر وتردد . ومشى في المقابلة الثالثة . ولكن حماستهُ حملتهُ على ارهاق الفخذين والقدمين بعد اهمالها سنوات فتورمت وأمره الطبيب بالراحة اولاً ثم بالتؤدة ولم ينقضِ الاَّ بضعة اسابيع حتى كان شفاؤه تامًّا

## ٢ — تأثير الانفعال في المرض

اعتاد المشتغلون بالطب ان يصفوا بعض الاعراض المرضية الناشئة بأنها « اعراض وظيفية » وذلك لكي يميزوها عن الاعراض «العضوية» الناشئة عن اسباب معروفة يدبها البحث في تركيب الانسجة. فالصداع الذي يمكن ردهُ الى خراج في الدماغ «حالة عضوية» [illegible] ولكن صداعاً لايمكن ان نتبين صلته بحالة عضوية معينة يوصف بأنهُ «وظيفي» [illegible] . والامراض العضوية بوجه عام هي التي استوقفت عناية الاطباء وفزت باهتمام الاكبر من بحوثهم. وليس بالنادر ان يصرف الطبيب مريضاً جاءهُ فحار في فهم علته بقوله « انهُ مرض وهمي . عد الى بيتك وأنسَ

انك مريض » . ولكن المريض لا ينصرف من عيادة هذا الطبيب الا الى عيادة طبيب آخر وقد يكون بين الاطباء من يعتمد في علاج مرضاه على أساليب التراقين في العلاج . فقد روي عن سقراط انهُ ذهب الى بلد بعيد مع الفرقة التي جنّد فيها فلاحظ ان التراقين Thracians «الهمج» يفوقون الاغريق في مسألة واحدة هي على الاقل وهي ادراكهم تعذُّر شفاء الجسد بغير معالجة العقل . ولذلك — قال سقراط — يستطيعون ان يشفوا امراضاً عجز اطس اليونان عن شفائها . وليس ثمة ريب في ان فكرة معالجة الجسم على انهُ «كلٌّ» خطرت لابقراط قدوتها في ما يعزى اليهِ من الكتابات الطبية وخطرت كذلك لاساطين الطب بعدهُ . ولكن بحث «الانفعالات» emotions من حيث هي عامل في المرض لم تفز بالعناية العلمية في المستشفيات العامة والمدارس الطبية ومعاهد البحث الا في العهد الاخير

ان الامراض التي تؤثر فيها حالة الانفعال النفسي وقد تكون فيها العامل الحاسم كثيرة . وعند الدكتور ادوود ستريكر Strecker ان خمسين في المائة من المشكلات التي يواجهها الطبيب في مراحل استداد المئة وخمسين في المائة من مصاعب الفقه ترتد بأصولها الى عقل المريض دون جسمهِ . وفي سنة ١٩٣٤ عينت الطبية الدكتور فلاندرز دنبار Dunbar وجماعة من الاطباء في احد مستشفيات نيويورك ( Presbyterian Hospital ) باختيار انواع معينة من الامراض تعزى الى ضغط عصبي معروف ، ودراستها من ناحية تأثير الاضطراب الانفعالي فيها . فاختارت المصابين بالذبابطس ( البول السكري ) او بأمراض القلب أو بحوادث كسر العظام ، ولم تشمل في حوادث كسر العظام حالات كسر الجمجمة لاسباب لا تخفى

فدرست ١٣٠٠ حادثة واصابة من هذا القبيل ، فكانت النتيجة التي خلصت اليها ان العوامل الانفعالية أثرت في خمسين في المائة من حوادث واصابات الطوائف الثلاث اي المصابين بالبول السكري والمصابين بأمراض القلب والمصابين بكسر العظام . وليس ثمة ريب في ان ثبوت تأثر حوادث كسر العظام بالعوامل الانفعالية جاء مفاجأة كبيرة للدكتور فلاندرز ومساعديها لان الظن كان قبل ذلك بان كسر العظام أبعد ما يكون عن التأثر بالحالة الانفعالية

في كثير من هذه الحوادث التي درست تواريخها ثبت ان الكسر حدث قضاء وقدراً ولكن تقصي تاريخ المريض اثبت ان هناك وراء الحادثة شيئاً اكثر من ذلك . فثمة مثلاً حادثة رجل أصيب في ساقهِ اليمنى . فدلَّ تقصي تاريخهِ على انهُ كان مدللاً أمهِ قبل زواجهِ ولكنهُ لم يفز من زوجهِ بمثل تدليل أمهِ فقال : — وسيضطر ( أي زوجه ) ان تعتني بي الآن ، فليكن هذا لها درساً بليغاً . وهناك كذلك قصة فتاة في السابعة عشرة أصيبت ركبتها في أثناء لعب الكرة ، فثبت من تقصي تاريخها أنها كانت ولداً غير مرغوب فيهِ لان والدتها المطلقة كانت

تحاول ان تتخلص من تبعة العناية بها بالحاقها بمدرسة داخلية لكي تتمكن من الزواج ثانية . ذلت الفتاة عن أمها : — ولا تستطيع الآن ان تبعدني ، وأنا مريضة ، وقد أبقى مقعدة طوال حياتي — أتستطيع ذلك ؟

جميع هؤلاء المصابين جاءوا المستشفى الذكور لكي يعالجوا من الاصابة بأمراض «عضوية» . وقد اجتنب الباحثون قصداً بحث حالات المصابين بأمراض «وظيفية» لكي لا يختلط عليهم الأمر . وهل هناك ماهو أبعد عن «اصابة وظيفية» من كسر عظمة الذراع او الفخذ او السلسلة الفقارية ؟ ومع ذلك أثبت البحث ان ثمانين في المائة من المصابين بكسر في العظام كانوا مصابين من قبل ذلك بعقد نفسية راسخة في نفوسهم ، كالخوف من الوحدة ، او الخوف من الظلام ، او الخوف من السقوط وما شابه . وبدا كذلك من الفحص ان عقدة الهم العصبي تؤثر تأثيراً كبيراً من شأنه تفاقم الحالة المرضية في المصابين بالبول السكري وأمراض القلب ، وفي حالة الاضطراب الانفعالي كانت اصابات السكري والقلب تسوء وتشتد ويقابل ذلك ان الاعراض العضوية كانت تخف حتى حدود الزوال في حالة الاطمئنان النفسي والفرح

وقد نبه الدكتور فليكس دويتش من اثنتي عشرة سنة — وكان يمارس صناعته حينئذ في فينا — الى تأثير الهم anxiety في المرض فبين ان المصابين بأمراض عضوية تتفاقم حالتهم اذا لم يجدوا لهمهم منفذاً . والهم انواع ويرتد الى مصادر متعددة ولكن هناك ما يدل على ان الهم الذي لا ينصرف في العمل واللعب ينصرف من طريق المرض . ولذلك قال الدكتور دويتش ان كل مرض هو مرض هم مر الى حد قريب أو بعيد ، فالمريض يبقى مريضاً لأنه لا يستطيع ان يبعد الهم عنه ، والصحة هي البعد عن الهم

في سفر الجامعة ان هم القلب اعظم الهموم وآداب جميع الامم وأقوالها المأثورة حافلة بالاشارة الى ان القلب يعرف الهم والفرح وغيرهما من الانفعالات . ولذلك اتجه فريق من الباحثين في الطب الى معرفة هل هناك اساس علمي لهذا الاعتقاد الشائع . فالدكتور ولتر فون وير يقول :— ان الدورة الدموية عمل يفضي توقفه الى انطفاء شعلة الحياة . فلذلك اصبح القلب عضواً من اهم اعضاء الجسم في الاعراب الداخلي . ولذلك يتصل القلب اتصالاً وثيقاً بحياتنا الانفعالية وهذا يجعله رمزاً للفضائل والرذائل . وفي درس هذه العلاقات نبغ سلطة واقعة عند حدود المعرفة وهي تنطوي على مسألة هي في آخر الأمر المسألة الاساسية في الحياة وأعني ما يربط الروح بالجسم في وحدة كاملة

ويذهب الدكتور لدفيج برون Braun الى ان الهم له اصل فسيولوجي وان مصدره في القلب وكما ان العين هي عضو الاحساس بالضوء ، فالقلب في رأيه عضو الاحساس بالهم . ومع ان

الاطباء فلا يوافقون على هذا الرأي، لانهم يرون بدًّا من القول بأن القلب المريض — عضويًّا — لا يسبب الما فقط بل ويكبر همّ صاحبه

اما الدكتور ثيودور ولف الاستاذ بجامعة كولومبيا فيقول ان جميع الاحساسات التي لا تبث السرور في جوانب النفس يصحبها الهمّ وليس ثمة همّ كالهم الذي يصحب الذبحة الفؤادية . فاذا سمع المصاب بها في اول عهده بها قول طبيبه « ان في قلبك تمتمة خفيفة » او « ان ضغط دمك عالٍ » فان هذا القول من شأنه ان يحوّل القلق اليسير الى همّ عظيم مقيم . وعندئذٍ فقد تنقبض اوعية الدم التي في القلب نتيجة فسيولوجية لهم . وعند ما يشعر المريض بالألم يحسّ ان همّه كان في محله فيستفحل همّه وتتفاقم حالة قلبه. وهناك فريق كبير من الاطباء يرى ان نفخ روح الرجاء والأمل في صدر المريض من الطرائق الاساسية في كل علاج . فالدكتور كارل فارينكامب يقول ان هناك نوعين من الذبحة الفؤادية. فالنوع الواحد تكون الاصابة به عقب الاجهاد مباشرة والثاني فيسرق الخطى كاللص في سواد الليل ، والغالب انهُ يهجم في اثناء الراحة او النوم. ولكن همّ بلي الاجهاد فقط في كونه من العوامل التي تسبب نوبة من نوبات الذبحة الفؤادية . فاذا اصيب مريض الاعصاب بنوبته الاولى فاصابته التالية تتوقف على حالته العصبية النفسية وأسلوب طبيبه في معالجته . حتى اذا كان الرجل غير مصاب باعصابه فانهُ يحتفظ بذكرى نوبته الاولى فتولد خوفاً حتمًا في نفسه فلا يطرحهُ فيما بعد . ويعتقد الدكتور فارينكامب ان الحالة النفسية في علاج الذبحة الفؤادية أهم منها في أي مرض آخر

ولا يخفى ان ضغط الدم انواع منها ما يتصل بتصلب الشرايين ومنها له علاقة بحالات الاستهداف او بضعف الكليتين عن القيام بوظيفتهما وهو من المكتشفات الحديثة . ولكن المصابين بضغط الدم لا ترتدُّ اصابتهم جميعاً الى سبب عضوي معروف او معرفتهُ مستطاعة . وفي احايين تأثر حالة ضغط الدم بحالة المصاب النفسية والانفعالية . وقد روى الدكتور اروين موس

قصة رجل كان ضغط دمه عالياً جدًّا وكان مصاباً في احدى رئتيه وفي بوله آثار الزلال موجع فراجه والبقاقير فلم يجن فائدة ولكن الطبيب سمعه يقول في احد الايام انهُ ظلم زوجه ظلماً شديداً فدبر الطبيب لقاء بين الزوجين فدار بينهما حديث سداهُ الود واللحمة العتاب الكثيف فهبط ضغط دم الرجل وخفت اصابة الرئة وزالت آثار الزلال من البول . وقد انقضت سنوات والرجل متمتع بالعافية التامة

***

يعنى الدكتور سانلي كوب هانت وجماعة من الاطباء في مستشفى ماستشوسس العمومي في مدينة بوسطن بدراسة احوال المصابين بمراض شتى كالربو والرئية (الالتهاب الفصلي)

والتهاب القولون المخاطي التشنجي الكاذب . وقد وجدوا في كل طائفة من الطوائف المصابة باحد هذه الامراض فريقاً كبيراً متأثراً بهموم واوهام واشكال مختلفة من الاضطراب الانفعالي emotional . ففي المصابين بالتهاب القولون مثلاً وجد ان نصفهم كان مصاباً بالاسهال ولكنهم جميعاً كانوا مصابين بالنحس العصبي . وبعد مباحثات خاصة معهم ظهر ان ٩٦ في المائة منهم يشعرون بالحنق و٧٥ في المائة يشعرون بالهبوط النفسي و٦٨ في المائة بالاثم . فالضيق كان يؤلمهم لانهم اجترحوه ، او لحقد يثيرهم على مخدميهم او معلميهم او والديهم فاتصل اثر ذلك باعمائهم

ومن الناس الذين يقترن فيهم الهم بالمرض اولئك المصابون بالقرح الهضمية المستديرة في المعدة . ولكن همهم لا يرتد الى الحقد او الكره بل الى الشعور بالضعف والنقص . وقد عُني الدكتور فرانز الكسندر احد علماء معهد التحليل النفسي بشيكاغو بدراسة المصابين بهذا النوع من القرحة في المعدة فوجد علاقة بين انفعالهم واعمال الهضم في المعدة . ومما قاله في هذا الموضوع انهُ اذا كانت هناك رغبات مكبوتة في العقل الباطن كالرغبة في ان يكون الانسان محبوباً ، او ان يحاط بعناية غيره به ، او التوق الى احياء العلاقة القديمة بين الطفل وامه او المحافظة عليها فان ذلك يفضي الى التأثير في وظائف المعدة . وهذه الرغبات تكبت في المراهقين والكبار لانها لا تتفق واستقلال الشخصية ونشاطها . ولكن كبتها يجعلها ذات تأثير نفسي مزمن

ولكن السؤال الذي يخطر للباحث هو هذا : — لماذا تؤثر هذه العوامل النفسية في المعدة فيجيب الدكتور الكسندر ان ذلك ليس بمستغرب . فالطفل في رأيه يكفي بعض ميوله الاولى بالاغتذاء . وكذلك تنشأ صلة بين وظيفة الغذاء وحالة الانفعال بحب الأم وعنايتها

ولعلَّ هذا يفسر القول القديم ان البطن هي الطريق الى القلب . ومن الامراض التي تناولها باحثو معهد شيكاغو بالبحث الدقيق مرض الربو الشعبي . ومن الأمور المسلم بها ان المصابين بالربو يتأثرون بحالة أعصابهم وانفعالهم ، ولكن البحث الطبي الحديث اثبت ان الربو من الأمراض المتصلة بحالة الاستهداف ( Allergic ) . ولذلك حصر أطباء المعهد بحثهم في المصابين بالربو الذين ثبت أنهم يستهدفون لمواد مختلفة ، وذلك ليعلموا مدى الاتصال بين هذا الربو المسبَّب والحالة النفسية او الانفعالية . ويلوح ان هناك صلة وثيقة ، ففي بعض حالات الذين لا يصابون بنوبات السعال الحادّ الا عند تأثرهم بمادة معينة يستهدفون لها تؤثر فيهم هذا التأثير ، ظهر أنهم يصابون بنوبات السعال عند ما يهددون بفقد محبة شخص يعتمدون على محبته ولو لم يتح لتلك المادة ان تؤثر فيهم . ولا يزال هذا البحث دائراً

ومن الأمور المسلم بها كذلك ان التهيج يختلف حالة الربو أحياناً كثيرة . وقد روى الدكتور إيثان بارك [illegible] أحد أساتذة جامعة كولومبيا ان أحد الشبان أصيب بالربو بعد

ما تزوج والده من فتاة وأزمنت حالتهُ واشتدت حتى لم يكن من المتعذر عليه في بعض الاحيان ان يقضي ليله من غير ان يحقن بالادرينالين للترويح عنهُ . ولكن بلغهُ في ذات ليلة ان أباهُ مريض مشفٍ فاضطرَّ الشاب ان يستدعي سيارة لنقل والده الى المستشفى وصحبهُ فيها وبعدما انتهت الليلة تذكر انهُ لم يصب في خلالها بنوبة واحدة من نوبات الربو . ثم عاد الربو حتى تعذر عليه العمل ولكن صديقاً لهُ سعى الى تعيينه في منصب علمي فتى في معهد من معاهد البحث في مدينة اخرى فخفت وطأة الربو ، لما لقيهُ في هذا المعهد من أُنس الاصدقاء هم اخلص بوالده. وقد انقضت عليه سنتان عند كتابة هذه السطور وهو معافىً لا يحتاج الاَّ الى قليل من الدواء للتغلب على ما بقي من اصابة الربو . والأمثلة التي من هذا القبيل كثيرة

## ٣ — الهم وأصول الفسيولوجي

أما وقد بسطنا نواحي من علاقة الهم بالمرض فيجدر بنا الآن ان نحاول فهم السرّ في ذلك ان كان لنا سبيل اليه

ان فسيولوجية الهمّ متصلة اوثق اتصال بالحاجة الى الدفاع عن الجسم فترتدُّ بذلك الى فجر الانسان بل الى اصله الحيواني . فقد كان الهمُّ الاول للانسان البدائي ان يتقذ نفسهُ من الخطر . فعليه ان يجمع الطعام وفي جمعه كان يتعرض لمنافسة شديدة لا يتغلب عليها الاَّ بالعنف . وكان عليه ان يواجه اخطاراً كلَّ يوم فاما ان يحارب واما ان يفرَّ . وهذه المطالب المفروضة عليه كلَّ يوم اثَّرت في جهازه العصبي فأثرغتهُ في الشكل الذي توارثناهُ فأصبح الجهاز العصبي ينهض بطائفة كبيرة من هذه المهام بفعل عكسي سريع التأثير دقيقه

ففي ساعات الخوف او الغضب يتقع الوجه ويسرع النبض ويثقل التنفس ويقفُّ الشعر ( يقف فزعاً ) . وهذه دلائل خارجية على تحوُّل داخلي عظيم الشأن يحدث في الجهاز العصبي. فاحد الاعصاب يحرك القلب فيزداد نبضهُ وغيره يحرك عضل الاوعية الدموية الشعرية في الجلد فيتسع الثاني بارتداد الدم الى الداخل حيث الحاجة اليه شديدة وبذلك يرتفع ضغط الدم. وتأثر عضلات اخرى باعصاب اخرى فينتقل معظم الدم من المعدة والامعاء الى القلب والدم والرئتين وعضلات الهكل العظمي اي ان الجسم يهيء بفعل الجهاز العصبي كلَّ قوته للقتال او للفرار . ثم تؤثر اعصاب اخرى في الكبد فتطلق المخزون من السكر فيها فيزداد بذلك مقدار الوقود الذي تحتاج اليه العضلات . وغيرها يؤثر في الطحال فيقذف في مجرى الدم عدداً اضافيًّا من الكريات الحمر لان الحاجة اليها كبيرة في التنفس العميق السريع — وهي حالات الاكسجين كما نعلم . وفي الوقت نفسه ترخي الاعصاب عضلات الامعاء في الراحة حتى تتم عملية

الهواء بينها واليها . وتؤثر اعصاب اخرى في عضلات الحجاب الحاجز فيعمق التنفس . ولما كانت الحركة تقتضي الحرارة فيجب حفظها في داخل الجسم بدلاً من اشعاعها الى خارج الجسم . ولذلك تؤثر الاعصاب في عضلات الجلد المبسوطة فتنقبض لتدفع بالدم من الخارج الى الداخل فيقف الشعر . واخيراً يلاحظ ان الدم في هذه الحالة يكون اقرب الى التخثر عند تعرضه للهواء منهُ في الاحوال العادية وذلك لمنع النوف نزفاً

وقد بحث الدكتور والتر كانون Cannon هذا النظام فوجده كيميائيًا . فقد وجد ان اطراف الاعصاب تفرز مادة دعاها الدكتور كانون «سمپاتين» Sympathin وهذه المادة تؤثر في العضلات على وجوه شتى مرَّ بنا وصفها . ثم ان غدتي الكظرين ( adrenals ) خاصتان لتأثير السمپاتين فتفرزان الادرينالين وهو مادة تؤثر في القلب والاوعية الدموية والشعيات والكبد والطحال . وقد أثبت الدكتور كانون هذه الحقيقة بقطعه اطراف الاعصاب ثم تحريك الكظرين لافراز الادرينالين فوجد ان وجوه التغير التي حدثت في الاعضاء المتقدمة الذكر قد حدثت فعلاً . ثم استأصل الكظرين وأبقى أطراف الاعصاب على حالتها الطبيعية فوجد ان الاعصاب تستطيع أن تحدث التغيرات المتقدمة الذكر . ويلوح ان التأثير الاول للسمپاتين الذي تفرزه اطراف الاعصاب في العضلات ثم يؤيده افراز الادرينالين الذي يصل بالعضلات عن طريق الدم

ويدل بحث السرهنري دايل على ان هناك افرازاً آخر — دعاه استيلكولين acetylcholine — من شأنه ان يحدث إرخاء وانبساطاً حيث يحدث السمپاتين شدًّا وانقباضاً . فالسمپاتين يسرع نبض القلب والاسيتلكولين يبطئهُ . ولكن المهم من ناحية نظرنا في هذا الفصل ان جميع افعال القبض والبسط تنشأ عن مواد كيميائية معينة تطلقها الاعصاب متأثرة بأحوال شعورنا وافعالنا وهي تطلق هذه المواد من تلقاء نفسها . ففي وسع الانسان ان يمتنع عن صفع رجل أمامهُ ولكنهُ لا يستطيع ان يفرض ارادتهُ على الجهاز العصبي الودي (السمپاوي) فيمنعهُ من افراز السمپاتين في شتى العضلات . وكل رسالة عصبية يتلقاها الانسان من محيطه مما يهدد سلامتهُ او يثير غضبهُ تؤثر في الاعصاب فتطلق من تلقاء نفسها افرازها في العضلات . وليس للعقل تأثير في دفع أطراف الاعصاب عن اطلاق افرازها ولكن العقل الواعي يمنع بالاجمال الانسان المتحضر عن الانقياد الى العمل متأثراً بهذه الافرازات لان الارتقاء الاجتماعي انشأ طائفة من التقاليد والعادات والقوانين من شأنها تدريب الناس على كظم الغيظ والامتناع عن صفع الناس بوجه عام

وهنا نجد عصبية الانسان الحديث وسر الصلة بين الانفعال والمرض . فطبيعة المشكلات التي يتعرض لها الانسان الحديث قد تغيرت عما كانت عليه مشكلات الانسان البدائي . ولكن النظام الفسيولوجي الذي نشأ في الجسم لمواجهة المشكلات في العصور البدائية لم تتغير ، فصاحب

المصرف الذي يفقد ثروتهُ لا يستطيع ان يطلق العنان لانفعاله بضرب أحد على التالب . ولكن خوفهُ في الواقع من الاندفاع من نوع الخوف الذي كان يساور الانسان البدائي عند مواجهته لوحش ثائر . أما الانسان البدائي فكان يقاتل او يفرُّ متأثراً بهذا التيار الحادث في جسمه ، وسواء أقاتل أم فرَّ فان إسراع نبضه والتبدل في تركيب دمه وزيادة السكر فيه وغير ذلك تحولات من شأنها ان تزيد قدرتهُ على القتال او الفرار . ولكن جميع هذه التغيُّرات الجوهرية لا تجدي صاحب المصرف الفني الذي فقد ثروتهُ شيئاً . انها تعده لعمل لا يتم . وتحشد الماج جسمه بمواد لا يحتاج اليها وتتركهُ وفي دمه افرازات تقبض العضلات أو تبسطها فتحرفها عن فعلها السويّ ، فيفضي ذلك الى نضال داخلي ، يكبتهُ ، ولكن كبته لا يعني بوجهٍ من الوجوه ان النضال قد زال او انهُ لا يضرُّ . بل على الضد من ذلك ان تأثير الهم يزداد بازدياد شعورنا به

ومن المحتمل ان يختلف تأثير اعباء الحياة ومتاعبها في احدنا عن الآخر باختلاف البيئة والوراثة والنشأة . وقد اشار الى هذه الناحية الدكتور ليون شاوول ( Leon Saul ) احد اعلام معهد شيكاغو للتحليل النفسي فقال انه قد يسمح لطفل ما ان يعرب عما يغضبه بحرية تامة بينما يكبت الآخر . فاذا شبَّا وتقدَّما الى الكهولة فأحدهما يثور اذا غضب ويعرب عن ثورته هذه بالصياح مثلاً بينما يكتم الآخر غضبهُ فيصاب بصداع . وقد يدلل طفل فيشعر بضغطه عند ما تواجههُ الحياة بما تقتضيه من النضال والتطاحن والعنف فتظهر عليه اعراض اصابة لا يمكن ان تعزى جميع اسبابها الى حالة عضوية مجردة . ورجل الاعمال الذي نشأ على كبت ما يتوق اليه من حياة عادية آباؤها الحب المتبادل والعناية بأهله وشملهم بعطفه وحمايته ، يميل به هذا النضال الداخلي الى ظهور قرحة في المعدة . ومثله رجل من رجال الاعمال دمث الاخلاق انيس المعشر تربى على كبت ما يثيره فيدو تأثير ذلك في رفع ضغط دمه

والعلاج النفسي المثل في ما تقدم من فقرات هذا المقال يتفاوت تفاوتاً كبيراً من اساليب التحليل النفسي الى مجرد نقل المريض من عمل غير ملائم الى عمل ملائم . وقد روى الدكتور ولتر الفاريز كيف شفى مصاباً بقرحة مزمن بذهابه بنفسه الى جابي الضرائب وتسديد مبلغ ثمانين قرشاً كانت مستحقة على المريض وهو عاجز عن توفيتها . فالطبيب الحكيم يتناول علة العليل من جميع نواحيها فقد يستعمل العقاقير او يعمد الى الجراحة او الايحاء او التحليل النفسي او الملاءمة الاجتماعية فشعاره يجب ان يكون قول الدكتور كار (ان الطبيب لا يعالج قلوباً ورئات واعضاء وكلى فقط . وطلاَّب الطب يعلمون الآن أن الواجب عليهم ان لا يكتفوا بمعالجة العضو المصاب بل الشخص المصاب» . وعندئذ يتضح ان الفريق بين العضوي والوظيفي في المرض — على رأي الدكتور ستانلي كوب — انما هو تفريق سطحي [ عن مجلة هارپرز ]

على ذكر معهد الصحراء وبيت الحكمة

# رهين المحبسين

لاسماعيل مظهر

الصحراء سَجْنَتُه الأول ، والنسيان سجنه الثاني ، فيا لها من سجنتين ، الذكريات فيهما نائمة ، والآمال مقموعة ، والخيالات رهن القيود والاغلال . هنالك على حافة الصحراء يقوم ذلك الجبار الذي يم بجبروته وهيبته على معظم العقل الذي فكر في انشائه ، والهمة القعساء التي أنبتته في عدم الصحراء وهمودها ليضرب الاعاصير برأسه المنكوب ، وكأنه الحق في ثباته وقوته ، أو زمن الابد في لانهائيته . ولكنه الحق الذي لا ناصر له ، شأن الحق في جميع الازمان ، او الأبد الذي يلفظ الاوائل والاواخر ، فاذا انطمروا في غياباته فلا ذكر ولا ذاكر

اللهم غفراً . هذا مثال الجبروت ، وعنوان الملك والملكوت ، تناب عليه الصحراء انسياب النهر الدافق فتمشي من حوله الرمال ، ويتنفض عليه النسيان انقضاض الموت فيمحوه من الفكر ، ويطمسه انطماس الاثر الزائل والطلل الدارس ، وهو بعد جاثم بكل عظمته على صدر الصحراء كأنه امرأة مهجورة . أما نجوم الليل ، فدموعها استحالت ناراً

أي شيء جعل النسيان يأسر ذلك الأسر ؟ لا شيء : إلا موت الفاعل ، وذهاب العامل وأي شيء جعل الزمن ينتصر عليه ذلك النصر الحاسم ، فيتركه للصحراء تستقوي عليه استقواء الخراب على الفقر ، وتتنكر له تنكر العدم للوجود ؟ لا شيء : إلا مشيئة الزمن في أن يموت الراعي ، فينضب الغدير على الحملان

الكون أنيسه ، والرياح المتناوحة صديقه وجليسه . لا أثر هنالك للحياة الا بضع شجيرات في أصيص تغالب جفاف الصحراء طلباً للبقاء وأنات حزينة تبثها بومات هنالك ، أتخذن

من شرفات ذلك المطرَّح المشعر مندباً تندبن منهُ الاحياء، اي هلُمنَّ ندُبًا أبرِ منكم بعضنا تكم وأذكر منكم لمؤسانكم، وقد تركتموها تتراب، ثم للخراب

***

كنا صديقين جمعتا وحدة الميول ووحدة الفكر. أفضنا يوماً بالصحراء فلذنا بصدرها الحنون، لنستودعه بعض آلامنا، وقليلاً من آمالنا، وما زلنا نضرب فيها حتى التقينا بمعهد الصحراء يطل علينا من سماء اربعمائة وألف من السنين بمعدانه وشرفاته ونوافذه العربية الاصيلة، فكأنه قطعة من قصر غمدان، او نسخة مصغرة من حمراء الاندلس. ولكن أين الباب؟ ها هو، غير انهُ موصد بألواح رثة من الخشب. وأين النوافذ؟ ها هي، غير انها مغلقة وأين السكان؟ كلاَّ. لا إنسٌ هنالك ولا جان

تسلقت وصديقي ألواحاً من الخشب نسيها هنالك المشيد البنّاء، حتى وصلنا الباب، فأية عظمة صامتة تتكلم، وأية أحجار هناك تناجيك بما درس وزال من فكرة أقامت ذلك الأثر حيث أقام عن يمينك تلك الشجيرات، وعن يسارك مقعد من الخشب وحصيرٌ وجوالقُ خلقٌ يتخذ منها حارس المعهد وِثاراً ودثاراً. ولكن أين الحارس؟ لقد لاذ بمدينة الاحياء، ناعياً الصحراء ومعهد الصحراء

أنبتَّ ذلك المعهد كما تنبت زهور البيد؛ اذ هي في رمضاء الصيف، هباء، وفي زمهرير الشتاء رواء؟ أخرج ذلك القصر التامخ خروج الطفيليات؟ أم انهُ سوف يقتلع اقتلاع الطّفيل في بيئة لا تلائمه؟

***

قال صديقي: كلاَّ انسيت ان المغفور لهُ ملكنا فؤاداً الأول، عليهِ من الله الرحمة، هو صاحب الفكرة في اقامة هذا المعهد ليكون للصحراء مدرساً، يقيم فيهِ علماء مؤلفون يدرسون صحاري مصر وما فيها من خيرات بحثاً علميًّا عمليًّا، قد يكون منهُ لهذه البلاد خير عميم ونفع عظيم؟ ألا تجد أن المصريين يجهلون من ارض بلادهم وأربعة أخماسها صحراء، ما يعلم اهل الغرب منها؟ أنسيت ان عاهلنا الراحل العظيم قد حلف ذلك الاثر غير كامل لما ان لبى نداء ربه الى دار النعيم، فظلَّ كما كان يوم ان أسلم عاهلنا الروح، سلَّمهُ ألواح رثة من الخشب، وسكانه يومئذ الروح، ولاذ حارسه بمدينة الأحياء، فلا يُنسى كما نسي ذلك الجبار الصحراوي العظيم؟

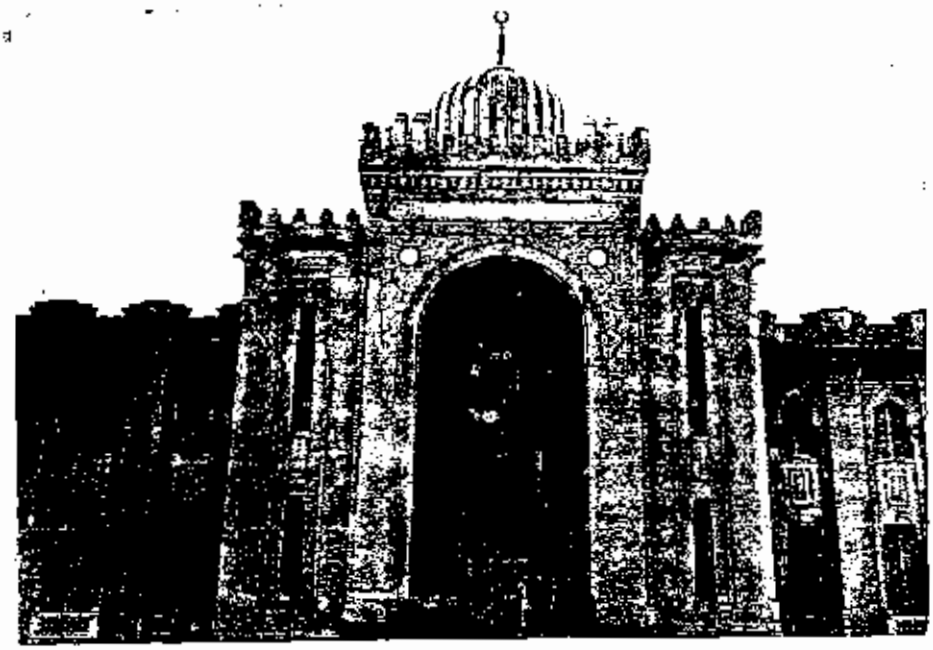

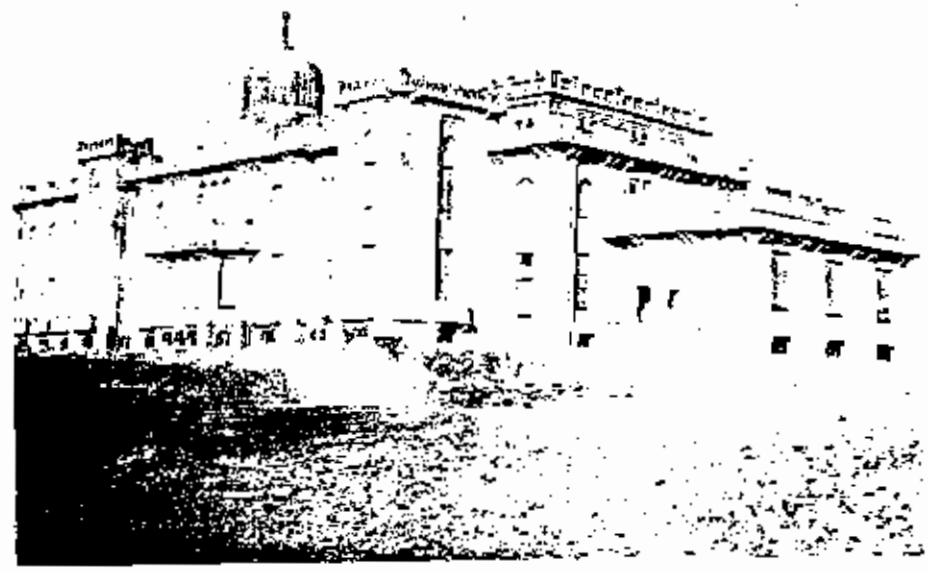

صورتان لمعهد الصحراء بمصر الجديدة

قلت : وهذا هو المعهد : فأين العالم ؟ وهذه هي الصحراء : فأين الباحث ؟ وهذه هي مصر: فأين ذهبها وأين رجالها ينقذون المعهد والفكرة من النسيان، ومن رمال الصحراء، ان تطمس عليها ؟

قلت : كلاّ : إن ملكنا فؤاداً العظيم لم يمت . فقد أخاف علينا من عقله ومن عظمة خليقته الفاروق ، وأضنى علينا من همته ما يضني العظماء على الأمم بما يعتبون

ولئن نسي جميع الناس فلن ينسى جلالة فاروقنا أنّ المغفور له والده العظيم ، قد أقام هذا المعهد بمحض فكره، كما أقام غيره من المعاهد ليحصن مصر بالعلم ويموّذها بالعلماء ، لتضرب في آفاق الحضارة كما ضربت من قبل ذلك خلال القرون ، وما أشكّ في أن جلالة ملكنا المعظم ، إذا عرف اليوم أن معهد الصحراء قد أصبح لسياً منسيّاً في عصر يزدهر بأياديه البيض وايّامه الزّهر ، فان ذلك كفيل بأن يكون فاتحة حياة جديدة يختتم بها ذلك المعهد عهد النسيان يا مولاي

أودّ ان أتقدم على ضعفي الى سدتك العلية بكلمات من حقي ، وانا محصّن برعايتك محوطٌ بعنايتك التي هي من حق كل مصري على جلالتك ، أن لا تكون بتراء مقصوصة الاطراف منتقصة النواحي مأمورة المعالي . هذا المعهد الذي أنشأه عاهلنا العظيم جلالة والدك ، لا ينبغي ان يظلّ في عهدك الزاهر ، لغواً في لغة الحياة التي عشنا في هذه البلاد وترعرعت في بيئتها خطى المغفور له والدك . ولئن كان الناس قد نسوا ، فأخلق بجلالتك ان تذكر

ولئن كانت الصحراء سوف تُعمّر بمعهدها الذي لا أشك في أن جلالتك ستبث فيه الحياة بعد الموت ، فاني الى جانب ذلك أعود بالذكريات إلى العصر العباسي ، ذلك العصر الزاهر في تاريخ حياة العرب والعربية ، وإلى عصر الخليفة المأمون الذي أسّس « بيت الحكمة » في بغداد ليكون مستقرّاً للعلماء ينقلون فيه حكمة اليونان إلى العربية ، فأسّسوا بذلك مُلْكاً من العلم لم يبناه له في العصر العباسي من حيث الأثر الأعظم المأمون

ومعهد الصحراء يا مولاي عظيم متّسع الارجاء اتّساع العقل الخالد الذي فكّر في انشائه، فهل نطمع في أن يضمّ اليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم اوربا إلى اللغة العربية ؟ وفي مصر يا مولاي علماء أقعدهم النسيان عن العمل ، ومنعهم الخجل عن السؤال ، وعزّ عليهم أن يبيعوا العلم باسترداء العطف . انطمع يا مولاي أن تفيض عليهم من فضلك الواسع ما يُسدّ حاجتهم من حطام الدنيا ، ليكونوا نواةً لبيت الحكمة في عهدك ، يتركها للاجيال القادمة آثاراً لا يبزّها من حيث الأثر في العالم العربيّ الأعظمك ، ولا يفوقها في الجلالة الأجلالتك ؟

# تأسيس القاهرة

## والاحتفال بانقضاء ألف سنة عليه

لحضرة صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا

للقاهرة المعزية ، عاصمة بلادنا المصرية ، تاريخٌ حافلٌ يحق لها ان تزهو به بين أعظم المدن والعواصم ، سواء في الشرق او في الغرب . فهي اليوم تبلغ الف عام كاملة من عمرها ، اذا احتسبنا هذا العمر من تاريخ انشائها ، وهو شهرُ شعبان سنة ٣٥٨ هجرية . وقلَّ ان نجد بين أمصار التاريخ العظيمة حاضرة كالقاهرة المعزية بقيت هذا العمر الطويل ، وهي ما تزال محتفظة بشبابها ونضرتها وبهائها . او حاضرة تضم مثل هذا التراث الأثري الباهر ، وهذه الثروة الفنية العظيمة التي تضمها مدينة القاهرة

ولم تكن القاهرة في خلال هذه الاحقاب الطويلة التي قطعتها ، عاصمة الديار المصرية وحدها . ولكنها كانت منذ قيامها تتمتع في العالم الاسلامي بمقام أدبي خاص . فقد بدأت حياتها مركزاً لخلافة اسلامية ، هي الخلافة الفاطمية . ثم كانت حاضرة لدول السلاطين المصرية الزاهرة . ولما انهار صرح الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار في سنة ٦٥٦هـ ( سنة ١٢٥٨م ) تبوأت القاهرة زعامة الاسلام كله وغدت حاضرة العالم الاسلامي . وغدت بجامعها الازهر ومعاهدها ، ومدارسها الجليلة ، مركز التفكير الاسلامي والمدنية الاسلامية عصوراً وعصوراً

ومن بواعث الغبطة ان تعود مصر اليوم فتسترد مكانتها التاريخية القديمة بين الأمم الاسلامية الشقيقة وان تعود فتعمل لتأدية رسالتها التاريخية والادبية والثقافية ، وان تعود القاهرة المعزية فتغدو بأزهرها وجامعها ومتاحفها ومعاهدها العلمية العديدة حاضرة الثقافة العربية والتفكير الاسلامي

وقد كان طبيعيًّا ان تستقبل مصر شعباً وحكومة بلوغ قاهرتها الف عام من عمرها بكثير من الاهتمام والتقدير ، وان تستعد للاحتفال بهذا العيد القومي الجليل احتفالاً يليق بعظمته ومنزلته التاريخية . وقد ألفت بالفعل لجنة حكومية لتعنى بوضع برنامج هذا الاحتفال . ولكن تأليفها جاء مع الأسف ، متأخراً عن أوانه ، مما اقتضى ان يصرف النظر عن احتساب عمر القاهرة الأنيق من تاريخ انشائها ، وهو العرف المتبع في مثل هذه المناسبات . ولو احتسبناه من ذلك التاريخ الذي مضى منذ ذلك شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فان القاهرة تتم ألف عام من عمرها في

شعبان سنة ١٣٥٨ هـ الموافق لاكتوبر سنة ١٩٣٩ . ولكن اللجنة عدلت عن الاخذ بهذا التاريخ نظراً لضيق الوقت ، وحددت يناير سنة ١٩٤٣ موعداً للاحتفال بهذا العيد ، ليكون لديها متسعٌ من الوقت ، وليُتاح لها بذلك أن توفّق بين بعض الاعمال والمناسبات ، التي رأت أن يتكوّن منها برنامج الاحتفال

وهذا هو بالذات ما يجعلني أتحدّث منذ اليوم[1] في موضوع العيد الالفي . فأني اريد أن تتخذ فترة الاعوام الثلاثة الباقية بيننا وبين احتفاله ، فرصةً للقيام ببعض الاعمال والاصلاحات الهامة التي سأتكلم عنها والتي يستغرق تنفيذها بعض الوقت . ولهذا أردت ان انبّه الأذهان منذ الآن الى وجوب الانتفاع بهذه الفترة للقيام بهذه الاصلاحات ، وان أوجّه قبل كل شيء نظر ولاة الامور الى العناية بهذه المسألة الخطيرة . واذا كان من دواعي الأسف أن تكون الحوادث الدولية الحاضرة قد شغلت الاذهان وصرفتها عن الاهتمام بكثير من المسائل والشئون الداخلية فاننا نرجو مع ذلك أن يبقى ولاة الامر على عنايتهم بالاستعداد لاحياء هذه الذكرى القومية الجليلة بكل ما وسعوا من جهد وبكل ما تسمح به الاحوال من الروعة والبهاء

على أني لست أقصد بذلك ان يتخذ عيد القاهرة الألفي مناسبةً لاقامة المواكب والزينات العظيمة دون غيرها . وان كان من الطبيعي ان يكون مناسبة لتنظيم طائفة من الاحتفالات والمظاهر القومية والاجتماعية الرائعة . والتي يجب مع هذا ان تحتفظ بطابع من الرزانة والوقار ، وان تُصان من كل افراق وتبذّل . ولكني أقصد بنوع خاص ان يكون هذا العيد مناسبة تثير عناية السلطات للاهتمام بأمر المدينة المُحتفى بعيدها ، وان تكون ذا أثر حقيقي ثابت في تجميلها وتحسين خططها وإحياء ما درس من آثارها

ويحسن بي بهذه المناسبة أن أشير قبل كل شيء الى مسألة هامة تتعلق بمصير العاصمة ومصير ثروتها الاثرية والفنية . فلقد طغت المباني الحديثة عليها في العهد الاخير طغياناً شديداً كاد يُفقدها كل صفة شرقية . ولو استمرّ الامر على ذلك عشرين عاماً اخرى ، لانمّحت القاهرة بفقد هذه الصبغة التاريخية الجليلة . وفقدت كل ما تبعثهُ عليها من سحر وجمال فنّي . وغدت مدينة غربية من الطراز الثالث او الرابع . ولم يعمل ولاة الامور الى الآن للأسف شيئاً لوقف هذا التيار الجارف ، فاذا لم يكن ثمة مناص من وقوع هذا الشر ، لارتفاع اثمان الأراضي ، وما تقتضيه المدينة الحديثة ورفاهة العيش ، فانهُ يجب على الاقل ان نعمل لمنع هذا الشر بقدر الامكان ، وذلك بأن توضع سياسة ثابتة لتخطيط المدينة ، وان يصدر تشريع عاجل ، يفرض القيود اللازمة على هذه المباني الحديثة ويحددُ مساحتها وارتفاعاتها في بعض المناطق ، التي

(١) ألقيت هذا الحديث التليفوني من محطة القاهرة مساء ٢٠ ديسمبر ١٩٣٩

تقتضي المحافظة على جمالها وطرازها هذا التحديد . وقد أعد بالفعل مشروع القانون الخاص بهذه المسألة منذ زمن غير قصير ، ولكنه لم يدع في درج من ادراج بعض الوزارات . ويجب ان نعنى بنوع خاص بالمحافظة على الآثار الاسلامية التاريخية ومظهرها الفني وان نحرص بقدر الامكان على عدم تشويه الأحياء الأثرية ، بحجة شق الشوارع او توسيعها ، كما حدث مثلاً عند انشاء شارع الازهر ومازال نذكر الضجة التي أثارها بحق يومئذ هذا النوع من التخريب الاثري بين محبي الآثار الاسلامية والحريصين على سلامتها

ولاشك في ان عيد القاهرة الألفي فرصة طيبة للعمل على احياء معالم القاهرة وكنوزها الأثرية . ولعل اجدر هذه الآثار بالعناية هي آثار المدينة الفاطمية القديمة التي تمثل الاحتفاء بعيدها الألفي ، والتي ما زالت تمثل حتى الآن في قلب القاهرة بكل معالمها وحدودها القديمة . وفي مقدمة هذه الآثار السور الفاطمي الكبير الذي يمتد بين باب النصر وباب الفتوح ثم يمتد بعد ذلك غرباً حتى شارع الأمير فاروق ، وقد كان فيما مضى حد المدينة الفاطمية من الشمال. فهذا الاثر الضخم الذي لا يزال يحمل مسحة من روعته القديمة ، يكاد يختفي اليوم بين اكداس من الأبنية والخرائب الحقيرة التي تغمره فتشوه منظره وتخلع عليه مسحة من الزراية ، وتحجب قيمته الاثرية العظيمة . ولقد زرت هذا الأثر أخيراً برفقة السير روبرت كريج عضو لجنة حفظ الآثار العربية ، وهو من عشاق الآثار الاسلامية ، والأستاذ محمود أحمد مدير ادارة حفظ الآثار العربية ، الذي تدين له آثارنا الاسلامية بكثير من اعمال الاصلاح والصيانة القيمة ، ولا يسعني الآن أشير هنا الى الألم الذي شعرت به ، ويشعر به كل مصري حينما يرى هذا الأثر الفاطمي الجليل ، تحجبه المناظر الكريهة من كل صوب وحينما يرى ما يسود هذا الحي كله من مظاهر الشقاء والفقر مما يؤذي انظار الرواد ويصرفهم عن زيارته

ومن أغرب ما رأيت مجموعة من الخرائب المهجورة بجوار باب النصر من الجنوب الشرقي ورابور طحين بجواره من الشمال الغربي ، تلتصق مدخنته بالسور ذاته ، وكلاهما اي الخرائب والرابور ملك لوزارة الاوقاف ، وهي لا تحصل منها على ايراد مطلقاً ، ومع ذلك فهي تحتفظ بها وتشترك بذلك مع المشتركين في تشويه هذا الأثر النفيس

فهذه المناظر المؤلمة تحمل على كثير من الأسف ، والتفكير في مصير آثارنا ، وتحملني على ان اتمنى هذه الفرصة لأهيب بولاة الأمر أن يتداركوا هذه المسألة بحكمتهم ، وأن يبادروا بالعمل على احياء هذا الأثر الفاطمي العظيم ، وكشفه للعيان بازالة الأبنية والخرائب اللاصقة به ، منذ بدايته الى نهايته في باب النصر غرباً حتى شارع الأمير فاروق وهي مسافة لا تتجاوز الكيلومتر ، ويحسن ان تمهد الطريق مما يليه من الناحية البحرية حتى نهايته أعني الى شارع

الامير فاروق . ويجب ان تشمل عملية التطهير هذا الحيّ كلهُ فتزال المقابر القليلة المجاورة لباب النصر ، وجميع الأبنية والخرائب المحيطة بالسور من الجانبين ، ويغرس مكانها شريطان من الحدائق العامة ، يكون السور في وسطها . وبهذا تتحوّل هذه المنطقة الحربية الموحشة الى بسيط جميل أخضر يجلب الهواء والشمس والنور الى سكان هذه المنطقة المنحطة التي تشغل قسمًا كبيراً من أحياء باب الفتوح والحسينية والخليج المصري ، والتي حرمت من الحدائق العامة ، ونكون بذلك قد عملنا أولاً على احياء هذا الأثر الفاطمي العظيم ، واظهاره للعيان في أروع مظاهره بما يتفق مع عظمة ماضيه ومنزلته الاثرية . وثانياً على تحقيق اصلاح اجتماعي وصحي ذي شأن ، فان هذه المنازل والخرائب العتيقة التي يعمرها عشرات الالوف من السكان جميعها لا تصلح للسكن وهي على الضدّ من ذلك مواطن للامراض والجراثيم الخطرة التي يجب العمل على ابادتها . وهذه أعمال تدخل جميعها في صميم أي برنامج اصلاحي ، وهي مما يتضمنهُ برنامج الوزارة الحالية . ومن طيبتها أنهُ يمكن القيام بها في زمن الحرب . بل لقد أصبح من الواجب بعد ان وقفت جميع أعمال البناء وتعطل شأن الالوف من العمال ، ان تعمل الحكومة من جانبها شيئاً لتخفيف هذه الأزمة ، والقيام بهذه المشروعات الاصلاحية خير وسيلة لتحقيق هذه الغاية

وفي ظني ان هذا المشروع لا يقتضي كثيراً من النفقات اذا ذكرنا ان الحكومة تستطيع بعد نزع ملكية الأبنية المجاورة للسور ، ان تبيع الاراضي الزائدة عن الحاجة . ومن جهة أخرى فأمامي تقدير تقريبي لنفقات المشروع وضعهُ بعض الخبراء المختصين وهو لا يزيد على خمسة وعشرين الف جنيه . ومن الغريب ان مشروعاً كهذا قد بحث منذ سنة ١٩٣٠ ، وصدر به بالفعل مرسوم ملكي . ولكن لم تتخذ في سبيل تنفيذه الى الآن أية خطوة عملية . فالآن وقد اقترب عيد القاهرة الألفي ، فان تنفيذه يبدو ضرورة عاجلة . ومن الواجب أن يبدأ العمل فيه منذ الآن ، حتى اذا حلّ موعد الاحتفال الالفي تحقق ما نقصده للاثر الفاطمي ، والاحياء المحيطة به ، من إحياء وتجميل واصلاح

ولما كان جامع الحاكم بأمر الله ، وهو أقدم مساجد القاهرة المعزية بعد الجامع الازهر يقع بجوار السور الفاطمي مما يلي باب الفتوح ، وقد غدا اليوم اطلالاً دارسة ، ولم تبق منهُ سوى مئذنته وبعض جدرانه ، فانهُ يجب أيضاً ان تتدارك هذه البقية الباقية منهُ بالاصلاح ، قبل ان يأتي عليها الخراب التام

واذا كانت الآثار الفاطمية ، وهي آثار الدولة المصرية العظيمة التي قامت بانشاء القاهرة وشيدت صروح عظمتها المستقبلة ، هي أول ما يجب العناية به ، لمناسبة الاحتفال بعيد القاهرة الألفي ، فانهُ يجب ان تكون هذه المناسبة أيضاً فرصة للعناية بتراث القاهرة الأثري بوجه عام .

ولا شك في ان لجنة حفظ الآثار العربية وغيرها من السلطات ذات الشأن تقوم في هذا السبيل بجهود مشكورة . ولكنها في الواقع دون ما يجب للعمل على صون هذا التراث الفني الباهر ، وذلك لقلة الاموال المخصصة لهذه الغاية فهي لا تتجاوز في الواقع عشرين الف جنيه في السنة . ولذا رأينا بعض المشروعات الاصلاحية يبدأ بها ثم تقف في منتصف الطريق . فجامع ابن طولون مثلاً وهو من أجل آثار العاصمة ، فقد عني بكشف واجهته البحرية ، وبعض واجهته البحرية الغربية ، ولكن أهمل صحنهُ ومئارتهُ كما أهملت واجهتهُ القبلية والشرقية ، وما زال يحيط به من هذين الجانبين طائفة من الأبنية والخرائب التي يجب إزالتها وكشف الجوانب التي تحجبها على نحو ما تمَّ بالواجهة البحرية ، حتى يبدو هذا الجامع الفخم بكامل روعته وجلاله

وجامع السلطان حسن وهو أيضاً من أعظم مساجد القاهرة ، مع ما بذل للعناية به واصلاحه وإحاطته من الناحية الغربية برقعة من الخضرة قد ترك مهملاً من الناحية القبلية ، وتركت بعض اطلاله من هذه الناحية على حالها . هذا فضلاً عن انهُ يوجد في الشارع المحاذي له من الناحية القبلية أثر نفيس قد أهمل اهمالاً تامًّا ، وهو بقايا قصر بَشْتَاك الذي يرجع الى القرن الخامس عشر الميلادي ، والذي توجد منهُ واجهتهُ البحرية كلها ، وفيها بوابته الكبرى وبعض جدرانه الداخلية . فهذا الاثر الذي يواجه الجامع من الناحية القبلية قد ترك اطلالاً دارسة ، وحولت واجهته الأثرية الى صفٍّ من الحوانيت التي يحتلها بعض الحدادين وصغار الصنَّاع ، مما يعرض هذه البقايا الاثرية الى الزوال ، ويسيء على واجهة الجامع القبلية منظراً كئيباً . فهذا ايضاً مما تجب المبادرة الى اصلاحه واحيائه

هذه أمثلة قليلة ظاهرة نضربها أمثلة على ما يجب عمله لابراز مدينة القاهرة وصروحها الأثرية النفيسة ، في المظهر الجدير بماضيها العظيم من جمال المنظر وحسن الذوق والروعة الفنية ، وهناك أمثلة عديدة أخرى تحتاج الى مثل هذه العناية ولا يتسع المقام لذكرها

وخلاصة القول أن عيد القاهرة الألفي يجب ان يكون مناسبة طيبة لمضاعفة الجهود في سبيل اصلاح العاصمة وتجديدها وتجميلها ، ألاَّ نضنَّ في هذا السبيل بكلِّ ما يمكن انفاقه من المال . وان تتناول هذه الحركة الاصلاحية ، سائر النواحي والمرافق ، الأثرية والعمرانية والصحية ، بحيث يبدو هذا العيد القومي فاتحة عهد جديد حقًّا في تقدم العاصمة وتجميلها . ويكون له الأثر الفعَّال في تحقيق هذه الغاية : فلا تنقضي اعوام حتى تطهَّر العاصمة من هذه الركائم والخرائب والانقاض التي تتخلل كثيراً من مبانيها واحيائها الأثرية كما يجب ان تطهر في نفس الوقت من آثار التسوُّل والتشرُّد وغيرها من المناظر الاجتماعية المؤذية . وبذلك تبدو عاصمة البلاد في حلة أكثر جمالاً ورواء

واذا كنا نرجو ان يكون البرنامج الذي تضعهُ اللجنة المختصة لاحياء عيد القاهرة الالفي محققاً لاعظم مظاهر الروعة والبهجة فاننا نرجو من جهة اخرى ان يعنى هذا البرنامج بالناحية التاريخية والادبية ، فيتضمن العمل على نشر أهم الآثار التاريخية المتعلقة بتاريخ القاهرة ومعالمها وآثارها في طبعات شعبية حديثة وان يكون في مقدمة هذه الآثار كتاب المقريزي في الخطط ومن الأسف ان هذا الأثر الجليل لم تصدر منه الى اليوم طبعة شعبية محققة أو خلاصة مختارة تقربه الى جمهور المتعلمين وطلبة المدارس مع انهُ من أنفس الآثار في تاريخ مصر الاسلامية وتاريخ القاهرة في العصور الوسطى . كذلك يجب ان يعنى بوضع تاريخ الفي جامع لمدينة القاهرة ومعالمها الاثرية ، وان توضع لها خارطات اثرية تمثلها في عصورها المختلفة بالاعتماد على الوثائق التاريخية المحققة وهو ما لم نعنَ به حتى الآن . فليس لدينا في الواقع أية خارطات أثرية وثيقة لمصر الاسلامية ومدينة القاهرة ، سوى مجموعة الخارطات والرسوم التي وضعها علماء الحملة الفرنسية في فاتحة القرن الماضي

***

هذا ونلخص هذه الخواطر والملاحظات التي أثارها في نفسي ، حديث عيد القاهرة الالفي والتي تخطر بالبال لكل مصري يعتز بعظمة الحاضرة المصرية ، وتاريخها الحافل ويرى في القاهرة العزيزة مثلاً حيًّا لعبقرية مصر الاسلامية ، تلقى من لجنة العيد الالفي ومن ولاة الأمر كل ما تستحق من العناية والاهتمام

بل إني لتفاءل من هذه الناحية . فان ما اعربتُ عنه من الاماني الاصلاحية بالنسبة لمدينة القاهرة وكنوزها الاثرية ، يتفق تمام الاتفاق مع البرنامج الانشائي والاصلاح الذي وضعته وزارة رفعة علي ماهر باشا الحالية ووعدت بالعمل على تحقيقه . واعمال الاصلاح الاجتماعي مثل انشاء المساكن الصحية ، وازالة المساكن الضارة وغرس الحدائق في الاحياء الفقيرة المكتظة ، والعمل على تجميل العاصمة والعناية بالآثار الاسلامية وغيرها مما اشرت اليه ، جميعها داخلة في هذا البرنامج ولست اشك في ان الوزارة ستبذل كل ما في وسعها للعمل على تحقيقه

ولا يسعني في الختام ، الا ان أنوه في هذا المقام بما كان للمغفور لهُ الملك فؤاد الاول في ذلك كله من فضل سابغ ، وما كان لهُ بالاخص من مآثر جليلة في العناية بتجميل العاصمة واصلاح الآثار الاسلامية . وان ما يبدو اليوم من عناية صاحب الجلالة الملك فاروق — حفظه الله — بهذه النهضة الاصلاحية ورعايتها والاخذ بيدها ، لما يبشرنا بأن البلاد ستشهد في ظل جلالته عهد اصلاح شامل ، وان القاهرة العزيزة والآثار الاسلامية ستشهد عهداً زاهراً من التجديد والاحياء

للشاعر علي محمود طه

# تايس الجديدة

« ليلة نزول الغيطس على شاطئ بحيرة »
« زيوريخ في عيد سويسرا الوطني الأكبر »

أأنا المقيمُ لديك أم شبحي ... لعبتْ برأسي نشوةُ الفرحِ
يا حانةَ الأرواح ما صنعتْ ... بالروح فيكِ صُبابةُ القدحِ
ما للسماء أديمها لهبٌ ! ... الفجرُ؟ إنَّ الفجرَ لم يلُحِ !
ولمَّ البحيرةُ مثلما سُجرتْ ... أو فجّرتْ من عرقِ منذبحِ
نارٌ تطير وموكبٌ صخبٌ ... من كلِّ ساهي اللحظ منسرحِ
لولا ابتسامةُ جارتي وفمٌ ... يدنو اليَّ بصدرٍ منشرحِ
لحسبتُها (روما) تمورُ لظًى ... في قهقهات الآثم المرحِ
شدَّتْ براحتها على كتفي ... فجذبتُها بذراعٍ مُجترحِ
وشدا المنَى فاحتشدت لها ... كم للمُنَى لديَّ من منحِ
زهوٌ تملّكني فأذهلني ... ومن الذهول طرائف الملحِ
يا ربِّ صُنْعُكَ كلهُ يقنٌ ... أين الفرار وكيف مطّرحي ؟
هذي الروائع أنت خالقها ... ما بين منجردٍ ومتّشحِ
(تايس) لم تبرحْ براهبها ... لكنهُ أشقى على البُرحِ
ما بين اسوارٍ متألّقةٍ ... وطروق بابٍ غير منفتحِ
عرضَ الجمالُ له فأكبرهُ ! ... ورآكَ فيهِ، فجُنَّ من فرحِ !
أترى معاقبتي على قدرٍ ... لو شئتَ لم يُكتبْ ولم يُتّحِ ؟
إني عبدتُك في حِجَى شفقٍ ... وبدا، وراجٍ مشرقُ الوضحِ
ولو استطعتُ جعلتُ مسبحتي ... عُمرَ الخلود، وجلَّ في التسبيحِ

# اينبغي ان نشيخ

مباحث غريبة في موضوع مطبر

تميط اللثام قليلاً عن أسرار الخلود العضوي

هل الشيخوخة امر طبيعي لا بدّ منه ولا مفرّ منه ؟

سؤال يهم كل قارىء من قراء المقتطف وكلّ كاتب من كتابه ولا ريب ، من ناحيته العلمية والعملية . وقد كان الرأي الغالب على علماء الكيمياء الحيوية ان الشيخوخة ملازمة لكيمياء المادة الحية التي يتقوم بها جسم الانسان . ومع ذلك يذهب الاستاذ بيرس في مجلة « السينتفك اميركان » الى ان هناك ادلة على ان الشيخوخة ليست ملازمة للحياة

إن الشيخوخة لا تدرك جميع الاحياء . فالحيوانات الاحادية الخلية كالبراميسيوم (الطيابات: جمع فؤاد الاول للغة العربية ) والاميبا ( المتسورة : جمع فؤاد الاول للغة العربية ) لا تشيخان ولا تموتان اذا توافرت لهما البيئة الضرورية لذلك . ودراسة البراميسيوم بين المجهر المكبرة مدة طويلة تدل على انهُ يسمن ثم ينشطر . نعم انهُ يخسر ذاتيته بالانشطار ولكنه لا يفقد شيئاً من حيويته به بل قد يزيدها نشاطاً . وكل شطر من الشطرين يمضي في الطريق نفسه يسمن ثم ينشطر . ويمضي في ذلك الى ما شاء الله . والواقع ان جزءاً من اول براميسيوم ظهر على الارض منظور في ثنايا البراميسيوم الذي تراقبهُ الآن بالمجهر . فهو من الوجهة النظرية خالدٌ لا يشيخ ولا يموت

ثم ان بعض الخلايا السرطانية خالدة . يأخذ الباحث مركباً كيمائيًّا عضويًّا معيناً ( وهو احد مركبات متعددة[1] ) ويستعملهُ في إحداث السرطان في فأر ، وعند ما يموت الفأر تؤخذ شريحة من سرطانه وتزرع في فأر سليم فتنمو فيه وتميتهُ ثم تنقل شريحة منهُ الى فأر ثالث وهلمَّ جرًّا الى ما شاء الله

ومن غريب ما يستوقف النظر في هذا الصدد أن الاصابة بالسرطان تكثر في اجسام المتقدمين في السن اي الشيوخ ، اي ان الخلايا السرطانية تنمو نموًّا غريزاً في جسم ضعفت حيويتهُ

(١) 1, 2, 5, 6, dibenzanthracene

ونال نموّهُ او وقف تماماً . وهذه مفارقة على ما يلوح ، فأي عامل من العوامل الحيوية او الكيميائية يضبط خلايا الشيخ ويقيدها ولكنهُ لا يؤثر في خلايا النسيج السرطاني فيه فتمضي في نموها نمواً غزيراً ؟ في هذا السؤال ينطوي سرٌّ عظيم يشغل اذهان العلماء الآن

تصاب الدجاجة كما يصاب الانسان بتأثير الشيخوخة فتموت بها ، اذا لم تمت بغيرها . ولكن الدكتور كاريل اثبت ان الزمن لا يؤثر في انسجة فرخ صغيره فلا تشيخ ولا تموت شيخوخةً . وتجربتهُ في هذا الموضوع أصبحت آية من آيات البحث العلمي الحيوي . فقد أخذ بيضة مضى أسبوع على تلقيحها ، وكسر قشرتها واستخرج من جنين الفرخ فيها قطعة من نسيج القلب ، ونقلها منجباً تلويثها بالجراثيم الى هلام مغذٍ خاص كان قد أعدَّهُ وجعل حرارتهُ ٩٨٫٦ فارنهيت او ٣٧ مئوية . فيا النسيج . ثم جعل يشطره مرةً كل يومين فيبقي الشطر الواحد في وعائه مغيّراً هلامهُ المغذي وينقل الثاني الى وعاء آخر فيه الهلام المغذي . ومضى في ذلك سنوات فظلَّ نسيج القلب المنزوع من قلب جنين الفرخ حيًّا على الزمن لم يشخ ولا مات شيخوخةً

واذا كان في وسع الباحث ان يثبت خلود النسيج الحي ، سواء أمن القلب نزع أم من غيره ، فلماذا لا يكون في وسعهِ ان يقيم الدليل على ان العضو الذي قوامهُ انسجة مختلفة لا يشيخ كذلك ؟ والواقع ان طائفة من الباحثين استطاعت ان تنزع الغدتين الدرقيتين من الهررة والارانب وتزرعها في اوعية من الزجاج تحتوي على الهلام المغذي . ولكن العضو الكامل يحتاج الى اسلوب دقيق من العلاج يبقي حيًّا ، لانهُ يقوم على وجهٍ معقد بوظائف معينة لا بدَّ منها للحياة . وقد كان الدكتور كاريل — بالاشتراك مع الطيار لندبرج — اول من وضع الاسلوب العلمي العملي الذي يتيح ذلك للباحثين . فقد صنعا « قلباً صناعيًّا » وهو في الحقيقة مضخة تدفع السائل المغذي المحمَّل بالاكسجين في عروق العضو المحفوظ في الوعاء . وبعد ما جرَّب كاريل هذا الاسلوب قال « ان الغدتين اللتين تغذيان بهذه الطريقة ( مضخة لندبرج ) تبقيان حيتين مدى اسابيع واذا اتقن الاسلوب المستعمل الآن وتوافرت جميع اسباب العناية فيجب ان يكون مدى حياة الاعضاء غير مقيَّد بالزمان فيثبت أنَّ الاعضاء نفسها خالدة على الزمن

واذا صحَّ ان الانسجة والاعضاء لا تشيخ فالذهن يصرف بطبيعته النظافية الى ان الجسم يجب ألاَّ يشيخ اذا عرفنا كيف نتقيه عوادي البيئة التي نحيط بها . وهناك يدعو الدكتور وليم مارياس [illegible] — وهو كالدكتور كاريل من اعلام الطب التجريبي — الى انشاء معهد كبير تتركز فيه جميع البحوث الخاصة باستكشاف اسرار الشيخوخة على الارض . وقد قال الدكتور كاريل في هذا المشروع « من الخطر الكبير بشأنه . ولكن يجب ان نتذكر اننا لا نعرف مثلاً واحداً على بحث عن الحقيقة لم يجزَ في النهاية »

أن مباحث العلماء في اسرار الشيخوخة تبين ، على قلة ما بينها من التنسيق ، ان الشيخوخة ليست ضرورة ملازمة للحياة ، بل ان الموت نفسه قد يستعمل وسيلة لاطالة الحياة . ومن هذا القبيل ما ابرزه عن العلماء الروس الذين استنبطوا اسلوباً طبيًّا جديداً لذلك . فهم يأخذون الانسجة المختلفة كالدم ونسيج الغرنية في العين ونسيج الجلد وغيرها ممن توفاهم الله بعيد وفاتهم ، فيحفظونها حية في ثلاجات خاصة مدة اسبوعين ويستعملونها في خلال ذلك في عمليات جراحية عجيبة فيزرعون الغرنية المحفوظة مثلاً محل قرنية مؤوفة في عين رجل سليم ، ويصفقون دم مريض في حاجة الى الدم بدم محفوظ في اناء خاص بدلاً من ان يأخذونه من عروق رجل قوي . وقد انقضى على عهد موسكو عشر سنوات الآن وعلماؤه جارون على هذا الاسلوب في تصفيق الدم . وقد استعملوا انسجة الكبد المحفوظة في مئات من العمليات فردُّوا بها حياة كثيرين في الفئة من اصحابها وهم يبصرون بعد ما قطع الامل من ابصارهم . وما يصح على الدم والعين يصح على الجلد

ثم ان علماء الطب يديرون مباحثهم على استنباط اساليب تمكنهم في المستقبل من نقل الاكبد والكلى والطحالات المحفوظة الى من اصيبت كبده او كلياه او طحاله بآفة ما . والعقبة التي يواجهونها في هذا البحث مدارها انحلال العضو المنقول من جسم حار الدم الى آخر . فبعضهم متجه الى كشف سر هذا الانحلال وابتكار الوسيلة لمنعه . فاذا اتيح لهم ذلك فالمسألة تهون

ذلك ان الجسم لا يموت كلهُ دفعة واحدة . فقد تصاب بعض الخلايا او الانسجة او الاعضاء بمرض او عرض يمنعها عن القيام بوظيفتها فتسحب في ذيلها حياة الجسم الى هوة الانحلال فالموت . ومعنى هذا ان الموت قد ينشأ عن اصابة مباشرة لجزء صغير من الجسم فتصاب الاجزاء الاخرى اصابة غير مباشرة

وهذه الحقيقة تذكرنا بان الجسم لا يشيخ كلهُ دفعة واحدة . وقد تكون شيخوخة الجسم نتيجة لاصابة احد الاعضاء او جزء من عضو ، فينتقل تأثيره من نسيج الى نسيج حتى يصاب الجسم كلهُ . خذ مثلاً على ذلك تيبس المفاصل في الشيوخ . فهي صفة تسند الى الشيوخ عادة ولكننا نعرف شيوخاً يستطيعون القيام بأعمال رياضية يعجز عنها الشبان والاعضاء يلزم الشيخوخة على الغالب ولكننا نرى كل يوم شيوخاً منتصبي القامة كأنهم في ميعة الشباب . وقد توفي وكفلر الكبير وهو في السابعة والتسعين لأن قلبهُ شاخ ولكن بعض عضلات جسمه الأخرى ظلَّ غير شاخ . وكثيرون من الناس يموتون بشيخوخة القلب أو الشرايين أو الكلى مع أن اجزاء أخرى من جسومهم لا تزال في حالة صحية تامَّة لم تتطرق اليها آثار الشيخوخة

وقد قام فريق من الباحثين بتجارب كثيرة في العهد الأخير تؤيد القول بأن الشيخوخة تنشأ عن اصابة محلية متكرِّرة . ومن هذه التجارب تجربة الدكتور ماكيدو [illegible] عميد

كلية الطب بجامعة كارولينا الشمالية هو متوفر على درس تأثير السموم في تسجي الكلى والكبد. وقبل أن يبدأ تجربته كان الباحثان هوبيل وسبري ( Hoppel and Spary ) قد اثبتا أن للكلوروفورم تأثيراً خاصاً في الخلايا. ذلك انهُ اذا منع كلبٌ عن الطعام مدى يوم كامل ثم نشق الكلوروفورم ساعة ونصف ساعة أتت مناعق خاصة في كبده. فاتخذ ما كنيدر هذه التجربة اساساً لتجاربه. فسمَّ طائفة من الكلاب بمقدار معيَّن من الاورانيوم فمات بعضها متأثراً بالسم وبقي البعض الآخر حيّاً. فشرَّح الاحياء منها فوجد أن بعض خلايا الكبد قد مات بفعل السمّ وانه حلَّ محلها نوع آخر من الخلايا يختلف عن النوع السوي، أي انهُ كان مسطحاً بدلاً من أن يكون مكعباً. ثم جوَّع بعض الكلاب التي بقيت حية بعد سمّها مدة ٢٤ ساعة — كما فعل هوبيل وسبري — ثم نشقها الكلوروفورم فدهش أعظم الدهش عندما تبيَّن أن الكلوروفورم لم يؤثر فيها على النحو السابق. وهذا يعني أن النوع الجديد من الخلايا لم يمت بفعل الكلوروفورم فكأن الاصابة بسمّ الاورانيوم حرَّكت قوة الحياة في الجسم فدفعتهُ الى توليد خلايا جديدة تقاوم فعل سموم أخرى. وعلى ذلك خرج ما كنيدر من بحثه هذا بقوله ان الجسم ينجب الى ما يصاب به بتوليد نوع جديد من الخلايا يستطيع أن يحيا حيث يموت سلفهُ. وأجرى بعد ذلك تجارب أخرى تؤيد تائجها القول المتقدم. وهذا دليل على ان الحياة نفسها تستمرُّ ولو لبست في الخلايا الجديدة لبوساً جديداً

بعد ذلك شرح ما كنيدر أكبد ٢٤ حيواناً بلغت حدود الشيخوخة مستنداً في معرفة شيخوختها الى ما عرفه من عمرها ( ثماني سنوات الى ٢٣ سنة ) وظاهرات أخرى فوجد في أكبد ١٩ حيواناً منها خلايا تختلف عن خلايا الكبد السوية، أي انها كانت تشبه الخلايا التي تولَّدت في أكبد الكلاب التي بقيت حيَّة بعد سمّها بالاورانيوم. فخطر لهُ ان يسأل نفسهُ: هل تستطيع هذه الخلايا المتولدة في أكبد هذه الحيوانات بعوامل طبيعية مجهولة أن تقاوم فعل الكلوروفورم كما قاومتها الخلايا المكبة في أكبد الكلاب. فجرَّب التجربة بتجويع هذه الحيوانات الشيخة مدة ٢٤ ساعة ثم نشقها الكلوروفورم فقاومتهُ مع انهُ يميت الحيوانات السوية من نوعها

والحياة عائدة على سطح الارض، الا اذا وقعت كارثة كونية بترت الارض ومن عليها هباءً في الفضاء. تغيرت اشكال الاحياء وتحوَّل وتبيد منها انواع وتتولد انواع، ولكن المادة الحية باقية على الزمان. فقد انقضت الف الف من السنين ومادة التناسل البشري تنتقل من جيل الى جيل. ثم ان الف مليون سنة قد مضت ومادة الحياة التي منها الانسان تتوارثها انواع متعاقبة من الاحياء على اختلاف اشكالها

ما اكثر الانواع المنقرضة من الحيوان والنبات. ولكن ليس بين علماء الوراثة والجولوجيا

والانثروبولوجيا من يستطيع ان يقول ان الدليل قد قام على ان هذا الانقراض سببه شيخوخة النوع المنقرض . فليس هناك على ما نعلم أساس علمي للقول بشيخوخة السلالات . ويرى بعض العلماء ان هناك صلة وثيقة بين التناسل وتجديد الشباب . ولكن هذا الرأي لم يتضح بعد ولا تدعمه الأدلة العلمية القاطعة . ولكنهُ اذا صح فانهُ لا يجب ان يحول دون البحث عن وسائل غير طبيعية لتجديد الشباب

ويظن فريق من الباحثين في اسرار الحياة انهم قد مهّدوا المرحلة الاولى من الطريق المفضي الى تجديد الشباب بالوسائل الصناعية . ويشيرون الى قدرة كاريل ومن جاراهُ على الاحتفاظ بالخلايا في أوعية البحث حيّة على الزمن . ثم يشيرون الى انهُ اذا وقعت بعض الخلايا عن النمو في انسجة جسم الشيخوخة فيمكنهم ان يحفزوها الى النمو فتنشط وتتكاثر كأنها خلايا بدء سن نشاط الشباب . ومن تجاربهم أنهُ اذا أُخذت قطعة من نسيج من جسم هرم ووضعت في وعاء وغمرت بعصارات مستخرجة من نسيج جسم لا يزال في ميعة الشباب، فان النسيج الهرم يبقى فترة وكأنهُ مستكنٌّ حتى اذا انقضت هذه الفترة انبعثت فيه حيوية النموّ انبعاثاً يستوقف النظر . يلوح ازهناك موادّ تمنع النمو تتجمع في النسيج الهرم فاذا غمر بالعصارات المستخرجة من نسيج شاب دلت على مادات النمو فتنطلق الحياة في الخلايا بعد انغلالها من قيودها . ويقابل ذلك ان العصارات المستخرجة من انسجة هرمة تمنع نمو انسجة شابّة مع ان النموّ فيها هو الصفة الطبيعية . وادهى من ذلك وأغرب ان فريقاً من الحياء جامعة كولومبيا أنبأوا أن معالجة النسيج الهرم بمادة الماشية المعروفة باسم ترپسين قبل غمسه في العصارات المستخرجة من نسيج شاب تنتهي الى تقصير فترة الاستكنان السابقة لابتداء النمو فيه . فكأن المادة الهاضمة تزيل من النسيج الهرم بعض مانعات النمو بفعل هضمي ، فاذا اتصل بالعصارات المذكورة استكنَّ قليلاً ثم سرت فيه حمى النمو من جديد . ولولا فعل الترپسين لكانت مدة الاستكنان طويلة

ثم وجد هؤلاء الباحثون ان مصل الدم ( البلازما ) لهُ فعل الترپسين اي تقصير مدة الاستكنان . وبعد بحث دقيق خلصوا الى القول بان هناك عاملاً مشتركاً في «الترپسين» و«البلازما» يفعل بعد الفعل فدعوهُ ( عامل A ) . فاذا كان النسيج يعوزه هذا العامل كان نموّهُ متعذراً

وفي شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٧ كشف الدكتور روتري [illegible] — مدير معهد فيلادلفيا [illegible] — مادة مساعدة للنمو شديدة الفعل . وقد استخلصها من أجنة حبوب الحنطة بعد [illegible] من جهابالا يرحتى تتحلل فيه . ثم اضيفت هذه المادة الى طعام الحرذان البيض ( [illegible] )[1] فأطلقت خلايا انسجة البطن من قيد مانعات النمو فنمت نموّاً غزيراً تجيباً وولدت اورماً مائت

[1] [illegible] الدكتور حنفي سبح — المرقى ، أحمد : الدكتور محمد شرف

بها الجرذان . وهذه الاورام مما يمكن نقلهُ من جرذ الى جرذ فتبقى محتفظة بخصائصها الاساسية ولو كان النقل من جرذ الى آخر عشرين مرة على التوالي . ويرجح ان المادة التي تحدث هذه الاورام أفعل من المادة التي تحدث النوامي السرطانية وتأثيرها اسرع . ولما كانت هذه هي المرة الاولى التي استعملت فيها مادة بانية الاصل لاحداث ورم في حيوان دليحث متجه طبياً الى استشفاف ما ينطوي عليه هذا النمو من اسرار . ويؤخذ من جميع المباحث في المواد المحركة لنشاط النمو في الخلايا بالنسبة للنوامي السرطانية ان الفعل كيميائي على الأغلب . ومهما يكن تأثير هذه الاورام والنوامي ضاراً او نافعاً فليس ثمة ريب في ان العلم قد ظفر بحقيقة جديدة مؤداها ان هناك مواد معينة تعيد الى الخلايا نشاطها الحيوي الذي تتصف به في عهد الشباب . ولا بد ان يسفر البحث في تركيب الخلية من الناحية الكيميائية الطبيعية عن كشف حقائق اخرى تزيدنا علماً بموضوع عويص مكتنف بالاسرار

واذا صرفنا النظر عن المباحث والتجارب التي أفضت الى اثبات حقائق متفرقة عن خلود الخلية في أثناء التجارب وبعث نشاطها الحيوي بعد ان تبلغ مرحلة الخمود، وجدنا تجارب اخرى تثبت لنا كذلك ان الجسم كله ليس محكوماً عليه بالشيخوخة التي لا رادَّ لها وفي المباحث التي تثبت ان في الامكان اطالة الحياة باحداث تبديل في عوامل التغذية

فقد استعمل الدكتور كارِل اكثر من عشرين الف فأر . . . الجيل متوالية لتبيين تأثير الحياة المقيدة، الحياة المطلقة من القيود في طور حياة الفأر . فالفئران التي يقضي عليها بأن تعيش معيشة خاصة مقيدة في اقفاص، تعيش اقل من الفئران الحرة بطبيعتها التي لا يقيدها قيد ما في الاسطبل . المجيء والذهاب والتناسل . والفرق بين عمر الفريقين نحو ٣٠٠ في المائة

رأى بعد كارِل فريق آخر من الباحثين حاول ان يبين تأثير الغذاء في مدى الحياة . فاستطاع ان يزيد مدى الحياة نحو الثلث بجعل غذاء حيوان التجارب من أنواع معينة فعسى كارِل عند ما اطلع على نتائج بحثه « ان طول الحياة على رأيه لكنه يتأثر بعوامل يستطيع الانسان ان يتدخل فيها وبعد . فذلك لا يتعذر ما يتعذر بأن يقضي حسن تدبير البيئة الى إطالة الحياة »

وقد عني الدكتور ستيفان ماكلوم الاستاذ بجامعة كولومبيا بدرس تأثير الغذاء في طول الحياة وعاونهُ في ذلك فريق من الباحثين فأثبتوا ان وكلسيوم وفوسفور الريبوفلافين (riboflavin — وكان يعرف قبلاً باسم فيتامين ج) تأثيراً لا ريب فيه في اطالة الحياة . واذا احتوى الطعام المناسب على المقادير الوافية بالنسبة اللازمة من هذه المواد كان من شأنه إطالة الحياة . وهؤلاء العلماء معنيون الآن ببحث تأثير الريبوفلافين على حدة

وقد كانت الفئران الحيوانات التي جرّبت بها هذه التجارب فطالت حياتها جيلاً بعد جيل. وكيمياء جسم الفأر شبيهة بكيمياء جسم الانسان . وهذا هو سبب اختياره لتجربة التجارب به فلا ريب على ان مدى حياة كل جيل من الفئران قصير ففي الوسع تتبع تأثير الغذاء في طول الحياة في اجيال متعاقبة في فترة قصيرة من الزمان بالقياس الى مدى حياة الانسان. واحدث المباحث في هذا الموضوع تشير الى ان اللبن الحليب ذو منزلة خاصة في الغذاء الكامل الذي يطيل الحياة لانهُ يحتوي على الكلسيوم والڤيتامين المعروف بالڤيتامين D

ولكن كاريل ، شرمن يدركان أن الوراثة عامل أساسي في طول الحياة أو يبدو انهما كذلك. غير ان مباحث الفسيولوجيين على رأسهم شرمن وكاريل اثبتت أن الميل الوراثي الى الموت شيخوخةً، لا يعدو كونهُ ميلاً يمكن تعديلهُ اذا اتيح للعلماء التأثير في اجيال متوالية. وما هي الوراثة؟ انها نظام كيماوي طبيعي يستطيع العالم الحديث ان يحدث فيهِ تعديلاً حذفاً وزيادةً. وليس ثمة ريب في اننا لا نعلم عن الوسائل التي تمكننا من احداث هذا التعديل الا أقل من القليل. ولكن البحث الحديث قد مهد المرحلة الاولى من الطريق السائر بنا نحو هذا الهدف البعيد

وبعد كل هذا نلتفت يمنة ويسرة فنجد ان العلماء يجربون التجارب لدفع عوامل الشيخوخة وهم غير متفقين على تعريفها . فنحن نعلم ان هناك صفات خاصة يتصف بها الشيوخ كتغضون الجلد والاعياء الجسماني والعقلي وهذه الصفات تبدو على الناس بعد انقضاء عدد من السنين يختلف باختلاف الناس . لكن الدكتور كابل يقول ان اندمان الجروح في الشيوخ ابطأ منهُ في الشبان على الغالب . ولذلك اقترح قياس السن بقدرة الجسم على تجديد انسجته . ثم يقول ان هناك مقياساً آخر ، وهو معرفة الزمن الذي يبحث معهُ الدم لمعرفة بعض وجوه التغيّر فيهِ . اذ ثبت لهُ ان معدل الدم يقدر الخلايا في احوال معيّنة . وهذا تأثير يزداد بازدياد العمر

ولكن اقوال كابل هذه لا تفوز بتأييد جميع العلماء الباحثين . فليس بالنادر ان يكون هناك رجل يحسب شيخاً لسبب واحد او اكثر من مقاييس الشيخوخة . لكنهُ اذا جرح فجروحه تندمل سريعاً . فتذكر ان الجسم لا يشيخ كلهُ دفعة واحدة . وهذه حقيقة يجب ان يقام لها وزن مهما كان تعريف الشيخوخة . والواقع ان سرّ الشيخوخة ما يزال سرّاً

ان تيار الزمن يحمل جسم الانسان نحو حتمه الموت الا قليلاً حتى الآن يردّه . فما هو الموت ؟ هو ذا سرٌّ آخر ، ونحن لا نستطيع ان نقف لأنهُ حالة سلبية تقابل الحالة الايجابية التي نسميها الحياة . ومنذ عصور متقادمة في القدم قد فكر البشر بدركون ان الموت والحياة وجهان مختلفان لشيء واحد ووراء الحجاب الذي يحجب سر الحياة نجد كذلك سر الموت وهو سر الشيخوخة . فهل يتاح للانسان ان يرفع هذا الحجاب ؟

نبذة من الغايات

# حجر الفلاسفة

## يتحقق في القرن العشرين

### بطريقة غير مباشرة

للدكتور ادمون براده

كان كيميائيو العصور الوسطى يسعون رددحاً من الزمن الى تحقيق حلمهم اللذيذ بتحويل العناصر الخسيسة الى الذهب فكانوا يقدمون بالتجربة تلو الأخرى فلا يخرجون من هذه التجارب الا بالاخفاق المرير . فحدا ذلك بهم بعد طول التجريب الى نبذ هذه الفكرة جانباً والتهوض بهذه الصنعة — كما كانوا يسمونها إذ ذاك نسبة الى جابر بن حيان — لتحقيق أغراض أخرى أجدى عليهم وان كانت أقل قيمة مما يرمون اليه . الا ان هذه التجارب عادت عليهم وعلى العالم بثروة الفت انظارها على مرّ العصور حتى لتبدو في هذه الايام متشعبة النواحي تقوم على أساس متين من النظريات الصحيحة الخالية من زخرف الخيال الخصب . فطبقيها آلاً على ناحية الطبية فالزراعية ثم الصناعية وأخيراً على كل ما يمت الى الحياة بسبب

والآن يزاول الكيميائي الحديث ميدان البحث مزوداً بهذه الحقائق والنظريات ليطلع لنا بما يزري بدهشة الحلم القديم بل بما يشبه المعجزات كما لو كان ساحراً يحيل ما هو أخس من هذه المعادن نفسه الى ما يربي على الذهب ثمناً . فهو يحيل زغب الريش وبذور زهرة عباد الشمس والفحم الحجري — فضلاً عما يستخرج من غضارف الحيوانات وحوافرها بل ومن الشعر نفسه . . . كما يحيل الحجر — يحيل هذه النفايات الدنيئة الى بلورات تعدل وزنها مضاعفاً من الذهب

هذه البلورات الثمينة التي نحاكي الجواهر الثلاثة في بهائها وتسمو على كثير منها في ثمنها في نظر فاكيرفيلد تسمى أحماض الأمينو . . . وقد بلغ ثمن الرطل الواحد منها حسبما يعلم أحد أعضاء مجلس الوزراء الأميركي اثني عشر جنيهاً مصرياً . وتبدو هذه البلورات للناظر اليها بالعين المجردة كبلورات الاملاح التي تستعمل في الحمامات او كذرات مسحوق الخلق

ويتجلى جمال شكلها بأروع مظاهره عند ما يكبرها المجهر (الميكروسكوب) حيث تبدو كالدرر المنتشرة الأطراف حقيقة صقل شظايا الجواهر الكريمة

ويعد قسم الكيمياء في جامعة كاليفورنيا بلوس انجليس بأمريكا احد المحلات القليلة او النادرة حيث يستطيع الانسان شراء بعض انواع احماض الامينو هذه منها . فهي تحضر هناك تحت اشراف الدكتور ماكس دن Dr. Max Dunn مدير هذا القسم وبمساعدة طلبته وتطلب منهم للتجارب والمستشفيات ومعامل الابحاث في جميع انحاء العالم

وهذه الاحماض من المواد الكيميائية النادرة التي قلما توجد في حالة خالصة — غير مختلطة بمواد اخرى — وقد عرف منها حتى الآن اثنان وعشرون نوعاً وضعت لها اسماء تعرف بها علمياً وتجارياً وهي دعامة المواد الزلالية (البروتينات) التي لا غنى عنها للحياة في اي شكل كانت

هذه المواد الزلالية التي يتألف منها غذاؤنا الرئيسي كاللحوم والسمك والبيض والخضروات الغضة والفواكه تتحول في الجسم الحاجاً لا غنى عنها كالاظافر والشعر والعضلات وغيرها وهي ذات تركيب معقد جداً يتعذر على الكيميائي الحديث محاكاة الطبيعة في تقليدها والاتيان بمثل واحد منها. وقد اجريت الابحاث المطولة بصددها فثبت انها تحتوي على انواع مختلفة من احماض الامينو وهذا حمل الدكتور دن على بحث هذه الاحماض ثم صنعها لكي يتسنى للمشتغلين بالبحث عن هذه المواد الزلالية على ماهيتها وتركيبها الكيميائي وسائر اوصافها الطبيعية الاخرى . وبذا يضيء الطريق امام الباحثين للعمل لخير البشرية ورفعتها فوفق في صنع هذه الاحماض التي تتألف المواد الزلالية من مجموعها وعرف منذ بداية عام ١٩٣٥ انهُ المنتج الوحيد والتاجر الذي ليس لهُ منافس في هذه الصناعة. ولما كان الغرض الرئيسي من صناعة هذه الأحماض علمياً بحتاً ومجرداً عن الصبغة التجارية فان الدكتور دن استطاع بفضل تحسينه طريقة تحضير هذه الاحماض الى النزول باسعارها الى الحد الادنى ومع ذلك فان اسعارها الحالية تتفاوت ما بين الالف وبال اميركي للرطل وبين الثمانمائة والى الخمسمائة وبار للرطل في اصناف اخرى وذلك حسب مزاياها وطريقة تحضيرها والمواد الاولية التي تصنع منها

وطريقة صنع هذه الاحماض بقدر ما هي بسيطة تحتاج الى يقظة وعناية خاصة . أما المواد الزلالية الخام التي تستعمل في تحضير هذه الاحماض فتختلف باختلاف نوع المطلوب منها . فهذه الزلاليات من لحم مختلف وزلال حبوب الشعير والقمح والملاس وقصاصات الشعر وغيرها توضع في انابيب وتحفظ بالحمض الكبريتيك المركز او الكلوريدريك القوي وتسخن مدة ٢٤ ساعة او اكثر بحرارة الى ذلك في اثناء عملية التسخير المذكورة مواد كيميائية اخرى كوسيط لاستخلاص

منها فيما بعد بالتبخير او الترشيح أو بأية وسيلة كيميائية اخرى. وعند ما يتم التجفيف وتستبعد المواد الترابية منها يبدو المتخلف في قعر الاناء كسحوق هو بلورات حمض الأمينوثم يفرز ويعزل ويعبأ في زجاجات خاصة يراعى في إغلاقها الاحكام حتى لا تتسرب اليها رطوبة من الجو المحيط بها

وقد أتقن الدكتور دن طريقته باختزال هذه البلورات بطريقة خاصة حتى لتبدو في تبلورها نقية شفافة وهي خاصة يدرك قيمتها من يشتغل بالبحث الكيميائي الدقيق

وأحماض الأمينو ثمينة من أوجه متعددة . ولتقدير قيمتها الحقيقية علينا ان نتصور امتناع الحياة اذا حرم الجسم منها في شكل مواد زلالية . فلكي نعيش لا بد لنا منها وهي ما نحصل عليه من أكل الخضروات ولحوم الحيوانات التي تعيش على النباتات . والنباتات هي الكائنات الحية الوحيدة على الارض التي تستطيع أن تمتص الأملاح الكيميائية المذابة في التربة وبمساعدة أشعة الشمس تجعل هذه الاملاح تتحد مع ثاني أوكسيد الكربون والماء لتركيب مادة زلالية . فعند ما نأكل لحوم الحيوانات النباتية أو أي نوع من الخضروات فالسائل الهضمي يختزلها الى احماض الامينو فتسري في الجسم وتعيد بناء الانسجة والعضلات التي تهدمت بالشغل أو التي استنفدت بالحركات العضلية والفكرية وهي ذات تأثير واضح في زيادة الحجم وتنشيط النمو وسائر ما يمت الى الحياة بصلة حتى ليقال ان لون العينين والشعر يتأثر بهذه الاحماض ويزيدون على ذلك أن الشخصية أيضاً ذات علاقة وثيقة بهذه الاحماض حتى أن أحدها وهو المعروف بالثيروكسين ( Thyroxine ) اذا بلغت درجة تركيزه جزءا في الالف في الغدة الدرقية استطاعت ان تكون حداً فاصلاً بين الحياة الطبيعية الهادئة او الموت او الجنون

وقد انتفع أخيراً بالمعلومات النفيسة عن هذه الاحماض وبدا للباحثين فيها انها ذات سيطرة خاصة على جسم الانسان فان احدها وهو المعروف بالحمض الجلوتاميك [illegible] يصنع ويباع كدواء وافق له نكهة طبيعية بديعة ومذاق اللحم الطازج تقريباً

ومن هذه الاحماض ما يعرف بالسيستين ( cystine ) وهو يكثر في الشعر الآدمي خصوصاً ويقول الباحثون في هذا النوع من احماض الأمينو أن تجاربهم به ستفيد قريباً في حل مشكلة الصلع ثم النوع المسمى بالجليسين ( glycine ) ويستعمل بنجاح في علاج الخلل العقلي . وكذلك الهيستدين ( histidine ) في علاج قروح المعدة . ثم ان علماء الباثولوجيا في جامعة كاليفورنيا يقومون بتجارب واسعة النطاق بالاشتراك مع المعاهد التي تعنى بتقصي حقيقة السرطان وعلاجه لمعرفة فعل هذه الأحماض في حالات من هذا القبيل ويتفاءلون كثيراً في امكان الوصول بهذه التجارب الى ملاءمة هذا الداء ان لم يكن الى القضاء عليه تماماً

البحث الحادي عشر

# خليل مطران

## شاعر العربية الإبداعي

الدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

### طبيعة مطران الفنية

﴿ توطئة ﴾ : — الشاعرية الحقة وليدة الطبيعة الفنية التي خاصتها الاساسية القدرة على استيعاب الحياة في الاشياء عن طريق الخيال ثم الفيض بها من الوجدان . والحياة تنعكس عادة من مرآة نفس الشاعر متخذة لوناً معيناً تستمده من مزاج الشاعر الخاص وطبيعته الخاصة . واستقراء هذا اللون ذو شأن كبير ، لأنهُ يدل على منحى الطبيعة الفنية في الشاعر . والواقع ان الشعراء يختلفون فيما بينهم من جهة طبيعة شاعريتهم ، وذلك نتيجة لاختلاف طبائعهم الفنية . ونحن لا يهمنا من دراسة ادبية يبتغى بها وجه البحث الفني غير أصحاب الشاعرية المتميزة بخصائص تدل على تميز عالم من طبيعة فنية ذات منحى خاص

ولما كانت الشاعرية نتيجة لطبيعة الفنية وليدتها ، فمن الممكن ان نرد الشعراء من جهة طبيعتهم الفنية الى أنواع ثلاثة : الاول : شاعر بسيط الشخصية ، ينكس الخيال في صورة بسيطة ، ويتصف بعدم وجود جوانب متعددة في شخصيته ، تنعكس الحياة من مرآة نفسه في دائرة ضيقة من الفكر والخيال ، لان الحياة تجيء من خلال شخصيته الفردية الضيقة ، وتغيب فيها

الثاني : شاعر معقد الشخصية ، الشخصية كالبلور ذي أضلاع وجوانب متعددة ، تنعكس عليها أشعة الشمس في أشكال وتحلل في وجهات مختلفة وتأخذ صوراً متعددة ، فهي تنعكس الحياة التي تخالطها في صور شتى وأشكال مختلفة ، على ان يتم الشعور الذاتي فيهم بالحجب وراء ستار من الموضوعية الخارجية

الثالث : شاعر يمتد الى نطاق شخصيته الخاص شخصيات أخرى منطوية فيها . ثم الطبيعة وصل بها العقد الذي فيه . وكل شخصية من الشخصيات التي يحتويها في ذاته معقدة ، تنعكس الحياة في صورة متنوعة ، ويتعدد شخصياتهم المتعددة الى بقاع واسعة الى ان تنعكس الدراما الحية للحياة من مرآتها في صورة غنية وثرية . وهذا النوع الاخير هو الاساس الخطي ، ولكن ان نتخذ قاعدة لتقسيم الشعر والشعراء الى طبقات ثلاث تقابل ثلاثة فئة منها نرتاح من هذه الانواع الثلاث التي سبقت الاشارة اليها . وهذه الطبقات هي :

الاولى : الشعراء الذين يعدون : وهم عادة يخلقون بالحياة او بالطبيعة بالاضافة الى نفوسهم فتجيء الحياة من نفوسهم نفسة واحدة من وتر واحد ، هو الذي تتألف منه نفوسهم

الثانية : القصاصون وأشباه التمثيليين : quasi-dramatists وهم يعبرون عن الحياة والطبيعة في الصورة التي تأخذها في نفوسهم غير أن الحياة في جيشها من نفوسهم تأخذ لمسات متنوعة وتخرج سمتاً . وان كانت بعد ذلك خارجة من وتر واحد

الثالثة : التمثيليون الحقيقيون : وهؤلاء هم الخالقون الذين تجيء الحياة عندهم من خلال مرايا نفوسهم في صورتها الحقيقية المتنوعة المتغايرة وتخرج أحداثاً لعدد الاوتار في نفوسهم

والطبقة الاولى يلتحق بها عامة الشعراء ، ومنها يجيء معظم شعراء العربية سوى قليل في طليعتهم ابن الرومي والمتنبي والمعري وابو تمام والبحتري وابن هانيء فهم بين الطبقة الاولى والثانية . والطبقة الثانية يلتحق بها نفر معدود من الشعراء ، هم أقل كثيراً من الذين ينحدرون بالطبقة الاولى. ومن بين المتحدين بها عدة اسماء أدبية ضخمة في تاريخ الآداب العالمية ، مثل يندار واقردوسي وجاي ولرحيل ودانتي وتاسو وميلتون وجوته وبيرون و بولريدج وشيلي وكيتس وشيلر ووردزورث وراسين وليكتور هيغو وحامد . وازاء هذه الاسماء الضخمة المختلفة المناحي والاقاعلا نجد عدة عامة تضم هؤلاء في نطاق واحد غير كونهم يحيشون من طبيعة ثانية معقدة في أصل شخصيتها . أما الطبقة الثالثة فيكاد لا يمكن ان يظفر بشرف الالتحاق به الا نفر يعدون على الاصابع في طليعتهم شكسبير واسخيلوس وسوفوكليس وكورنيل وموليير وراسين وشوسر وبعاودة النظر نجد ان شعراء الطبقة الاولى يمتلون طبيعة ثانية خالصة الا قليلا وبسيطة الشخصية . وصورة يشترك بمواطنهم الباطنة عن ان يكون ثم عطف عميق على الحياة التي تكتنفهم . ونسمي الشعر الذي يمثل شعر هذه الطبقة ، الشعر الاسرائيلي الوجداني ، فكله يجيء انشاداً عذباً تجيش جنباته ، الا انه يدور في عالم النفس ويجيء من انتشار التي تكتنفها ، ألماً او فرحاً ، مزتاً او سروراً ، خوفاً او طموحاً . ومن هذا الباب يجيء جل الشعر العربي ان لم يكن كله . أما شعراء الطبقة الثانية فهم لا يفترقون عن شعراء الطبقة الاولى ، الا في كونهم لا تشغلهم عواطفهم الداخلية عن ان يعطوا من الحياة المحيطة بهم . وذلك يرجع الى أنهم أصحاب خيال واسع رحيب عميق ، الا انه لكونه يجيء من احواء نفوسهم فهو لسيء يظهر عليه عنصر الذاتية (من الذات او الانا Ego) ، ونظرتهم وان كانت مشتملة للحياة والطبيعة الا انها لا تتعب حتى ترى جملة الاشياء ، وعموم الحياة ، وشموع البشرية ، في جميع الحالات التي تلابسها ، لان الحياة والوجود متراكزان في ذواتهم والذات او الانا عندهم تتصور بمكس عدة أشكال من الانا ، الا أنه يجيز من ذلك أنا جديدة تسمى شعراء الطبقة الثانية ، وهي الانا التي لهم المتحول الخلاق حتى ان روح الالوهية تتصفح بعد الخلق تتحول فيهم وتوجدهم . وهؤلاء القدرة غير تصوير الحياة في جميع الاوضاع التي تلابسها وتغتاها

والحد الفاصل بين شعراء الطبقتين الاولى والثانية يبدو واضحاً متميزاً عند النقاد الحديثين . الا ان الحد غير واضح ومتميز عند هم بين شعر الطبقة الثانية والثالثة . وهذا صحيح اذا اتخذنا الاسس التي يتخذونها في التقسيم ، ولكن اذا جعلنا مرجع النظر الى عدد من التكاوين في تقسيم طبائع الشعراء الفنية كما فعلنا ، قلن هذا الحد يتضح ويتميز ان شعراء الطبقة الثانية يصبحون الحياة الى نفوسهم ، ليكسر شعراء الطبقة الثالثة الذين يصبون الى نفوسهم الحياة ، فهم يتجهون الى الموضوعي . واتسق الاول يفردنا حتما الى العنصر الذاتي بعكس الثاني — فهو يصرفنا الى العنصر الموضوعي . وبعد فالشق الاول ذاته يتجه تحت ستار من الموضوعية ، وبهذا نميز بين شعراء الطبقة الثانية وشعراء الطبقة الاولى الواضحة ذاتيتهم (١) .

هذه مطالعات أولية ، يجب ان نضعها نصب النظر ، فهي في مقدمة مبادىء لتقسيم رئيسي لطبائع الشعراء الى أنواعها

وما طبيعة هذا الذي الذي الآن مثل عالم نحس خاص متميز من نوع من الطبائع الفنية . ونحن اذا نظرنا الى طبيعة شعرية وجدناها من النوع الثاني فهو على هذا من شعراء الطبقة الثانية

(١) وازن مجد هذا بما ورد في مجلة — وما — في [illegible] — الطبيعة الشعرية عند العرب وبحث لا [illegible] الاستاذ الانجليزي الشهير ، وقد نشر ما ترجمناه في مجلة [illegible] ، وقد نشر هذا البحث في ٣٧ — [illegible] وهو [illegible] الاستاذ مارجليوث [illegible] في بحثه الذي اتخذه في موضوع

الذين يسحبون الحياة الى نفوسهم غير ان هذا السحب لا ينتهي بهم الى الوقوف عند الحدود الوجدانية نتيجة لتعدد المناحي في شخصياتهم ، ولهذا يعطفون على الحياة والطبيعة . ومن هذا الاتجاه (المنحى) تستمد طبيعة مطران الفنية الخيوط الاساسية التي تدخل في نسيجها العام

— ١ —

أساس الشاعرية اندماج الحياة في الطبيعة الفنية ولكن فهم الطبيعة الفنية يقتضي منا ملاحظة وجه الاندماج . وقد أشرنا الى ان الشعراء الذين من طراز مطران يسحبون الحياة الى نفوسهم فتجيء من انطواء ذاتهم . وهؤلاء عادة يجعلون الحياة جزءا من شخصياتهم فيتصل عندهم الموضوعي بالذاتي والخارجي بالداخلي ، ولكن هذا الاتصال أساسه الاضافة الى شخصياتهم ، ولما كانت شخصياتهم متعددة المناحي كالمنشور ذي الاضلاع والجوانب العديدة فانهم يكسون الحياة التي تخالط نفوسهم في صور شتى وأشكال مختلفة ، ان سقطت على بعضها وكلت بعضها : جاء التصور عندهم ، وهكذا يحتجب العنصر الذاتي عندهم وراء ستر من الموضوعية . والواقع ان مطران شاعر مصور ، ولا أدل على ذلك من ان شخصيته وذاتيته تنيب وراء الصور التي تجيء من العالم الخارجي (عالم الموضوع) والتي تمر خلال نفسه المتعددة النواحي والجوانب فتتحلل الى أوصاف وصور تصويرية (١) مثل ذلك ان مطران في قصيدة ( العالم الصغير مرآة العالم الكبير : فنجان قهوة الديوان ١٢٩/١٣٠) يقول : —

١ : أرأيت سوغ الدر في العقيان هذا حباب البن في الفنجان
٢ : فلك تمثل شمسه ونجومه أفلاكنا في السير والدوران
٣ : ليلى أصيل الطرف فيه تنظري سر الكيان وآية الارمان
٤ : تجدي مهارات وسن عوالما دانة الابداع والاتقان
٥ : متناثرة أفرادها منظومة جمعاً بما لا تدرك العينان
٦ : سيارة خلل الجهات حوائراً مرتادة في البحث كل مكان
٧ : كل يصير الى حبيب مرتجى حتى يسدانيه فيلتصقان
٨ : فيذوب كل منهما في صنوه وكذاك يحيا بطوى العنوان
٩ : جسمان يقتديان جسماً واحداً كتوحد الخلين يقترنان
١٠ : روحان تمتزجان حتى تصبحا شبه الصبا والطيب يمتزجان

في هذه القصيدة التي نقلنا لك بعض أبياتها بلغت قوة التخيل imagination عند الشاعر مبلغاً جعله يصور حباب البن في الفنجان وكأنه من الاحياء . على أن هذا الشيء ليس مما يقع من غرضنا من هذه الأبيات هنا . وانما الغرض يقع على ما يظهر عند الشاعر من ظاهرة انه شاعره في صور تصويرية . فمطران في هذه القصيدة يراءى للنظر وقد ألبس شاعره واحساساته

(١) التصور انما تمثل الصورة والشكل في الذهن — انظر مادة ص و ر في المعجم الكبير — ومن هنا يمكن تحليلها معنى البروز وهكذا انظر للمصطلح الافرنكي

صوراً وأوصافاً استمدها من العالم الخارجي وخلع عليها من احساساته البشرية ما جعلها حية ، وهكذا كان اختلاط الغرضين الوجداني بالوصفي . فضلاً عما هنالك من مظاهر العطف على الجماد من الشعور ، وهو يظهر غنى النفس . وهذه أشياء يمكنك أن تخلص بها كقاعدة regle من امعانك في مطالعة شعر ديوان الخليل . فهو في قصيدته القصصية « الجنين الشهيد » ( الديوان ١٩٩/٢١٨ ) يقول على لسان الفتاة الفلاحيّة التي غرر بها مخادع حتى حملت منهُ ، وهي تخاطب جنينها وهي في معرض التخلص منهُ :

فياولدي المسكين فلذة مهجتي ويا نعمة عوفيت فيها بنقمة
ومن كنت أرجوه لسدي وبهجتي وكانت بناجيه ضميري بثتي
وآمل ان يحيا ويرحم لي بلى
تموت ولما تستهل مبتسرا تموت ولم أنظر محياك مسفرا
وتبرح قبراً فيه عذبت أشهراً الى جئت منه أبر وأطهرا
وتحيا صغاراً دونك والنحل
تموت وما سلمت حتى تودعه وأمك تستبقي النسوم لتصرعا
وتنبيك من جوف بكنت مودعا لتكنيك عمراً لا يطاق لما وعى
من الخزي والآلام والفقر والذل
أأن تلق وجه الله في عالم النقى فقل ربي أغفر ذنب أمي عسى
فما اقترفت شيئاً ولكن أبي جنى علينا فعافيه بتعذيبه لنا
وأمغره تهدا تذيب ولا تبلي
كفرت بحبي في ذهول تنفسي فسموك يا ابني ما أبوك يذنب
فقل ربي أبي أهلكتني لا أبي وأبي زنت حتى جئت ما جئته بي
فردها شفاء وأجزها القتل بالقتل ( الجنين الشهيد : ١١٤ )

فهنا نجح الشاعر عن طريق قوة خياله ، في أن يلقي دائرة غنية من الشعور والإحساس خارج شخصيته وقد نجح في ذلك على أساس اعارته شخصيته للفتاة ، ولبسه اوقفها من جوّ القصة اللبوس الصادق الذي يتفق وحالتها . ومن هنا جاء انطلاق الفتاة بهذه الابيات التي نقلناها لك ، وأنت لا تخطىء ما فيها من غنى الشعور ، وفيض الاحساس ، والقوة في التعبير والتجيش بالروح الدرامية . كما أنك لا تخطىء صدق التصوير ، في اظهار الفتاة في حالة طبيعية من توزع الشاعر بين حملة على أب جنينها ثم استيقاظ شعور حبها له ، فتحاول أن تسوّغ فعله ، بالتماء النوم على نفسها ، لاستسلامها له . ومن هنا جاء دعاؤها على نفسها بزيادة الشقاء وتمني جزاء القتل لشخصها لاسقاطها جنينها بالسم من جوفها

ومهما يقل في خيال الشعراء العرب فهو أضيق من أن يلقي مثل هذا النور الشعري على مثل هذه الدائرة الواقعة خارج شخصية الشاعر ، ومن هنا نجد مطران أوسع أفقاً وأرحب في طبيعته الشعرية ، من الشعراء العرب الذين تقدموه او عاصروه على انهُ بعد ذلك من المهم ان نقول أن الخيال الشعري عند مطران اضافي relative لا ينتهي به الى الخاص ، وان وقف به عند

العام. وهذا يجعل مطران يقف من الطبيعة البشرية والحياة عند القسط المشترك بين الناس والأفراد ، الذي يشترك هو معهم فيه . ومن هنا يجيء خياله . على ان هذا ليس بالغرض الذي يقع من بحثنا هنا ، وانما الذي نرغب الاشارة اليه هو توضيح وجه اندماج الحياة في طبيعة مطران الفنية

— ٢ —

الآن وقد بان لنا وجه اندماج مطران الحياة في شعره ووجدانه فجدير بنا ان نلاحظ الصورة التي تأخذها الحياة في وجدانه . واول كل شيء يستوقف النظر ان الحياة تندمج في وجدان الخليل من وجهها العام ، الذي يشترك فيه كل الاحياء . وهذا يثبت ان نظرة مطران رغم عمقها واتساعها فهي لا تزال نسبية لا تصل الى ابعد من رؤية الحياة العامة الكلية ممثلة في شخصه . بيان ذلك انه ينطق في قصصه الشعرية الشخوص على اساس اعارته شخصيته لهم ، ولهذا تبقى شخوص قصصه ناقصة من حيث انها لا تدل على انماط خاصة وشخصيات خاصة تنتهي شخصياتها الى الجزئيات والتفاصيل التي تتقوم بها ، والتي تختلف باختلاف الافراد . فنحن نلاحظ ان صرخة الفتاة الفلاحية في قصة «الجنين الشهيد» الشعرية ( الديوان ٢١٦/٢١٨)، ليست صرخة امرأة معينة ذات طبيعة خاصة ، وانما هي صرخة كل امرأة ، تجيء من القسط الشائع من كل انثى اذا اصيبت بمثل ما أصيبت به فتاة قصة «الجنين الشهيد» . وهذه الصرخة يصح ان توضع على لسان أية امرأة اخرى في الحالة نفسها من دون ان تفقد قيمتها . والحالة هنا متصلة بالجو الذي يوحي بصرخة الفتاة ، والذي يعبر عنهُ الشاعر في قوله :

أضاعت به ما تشتهي وتشتهيها وعانت من الارهاب فيه أشدها
يغالب آناً وجدها فيه حقدها ويغلب آناً حقدها فيه وجدها
وتصرخ من وسط التألم والالم : ( الجنين الشهيد ١:٢١٦ )

هذا ... والحياة تجيء من نفس مطران متعددة المناحي مختلفة الاشكال . وهذا التعدد والاختلاف يرجع الى كون الحياة تنعكس من مرآة نفسه المتعددة الجوانب . وهذا التعدد يجعل الحياة تجيء من خلال وجدانه في صور شتى . فهو ساعة ينطق عن نفسه ويصور احلامه وأمانيه وآلامه وأحزانه ولذاته وأفراحه ويترجم عن عواطفه ومشاعره واحساساته ؛ وهو حيناً آخر ينطق عن الحياة الخارجية ( وان كان على اساس الاضافة الى شخصيته ) فينزل الى عنصر الشعور المتدفق في أطواء الحياة ويترجم عنها وهذا ما نراه واضحاً في شعره الرثائي الذي يصور فيه الشخصية التي يرثيها ويترجم عنها لك . فهو في مراثيه لحافظ ابراهيم (ابولو ١:٢٠٨/ ٢١٣-٢٠٦) التي بلغت جملة ابياتها ١٧٠ بيتاً استطاع — على حد تعبير الاستاذ احمد الشايب —

«أن يؤرخ عصر حافظ ، وان يلم بسيرة حافظ ، وان يدرس فن حافظ . ثم استطاع مطران ان يبين أهم الحوادث السياسية والاجتماعية الاولى التي اثرت في شعر حافظ وأنشأته ولا سيما شعره في الشباب والرحولة ، ثم صوّر لنا حياة حافظ ورؤسه ، ومزاجه وخلقه ، وطريقة تكوينه الشعري ، ثم هذه الأطوار الشعرية التي امتاز بها شاعر مصر الكبير ناشئاً ، وشاكياً ومترجماً روح مصر ونهضتها الاولى ، وأخيراً هذا الرثاء الحار الجميل »[1]. وأنت يمكنك ان تلمس بدايات فن الخليل الرثائي القائم على الترجمة للشخصية التي يرثيها في شعر الرثاء في ديوانه فرثاثه لساي باشا البارودي (الديوان ٢٣٨/٢٤١) والشيخ ابراهيم اليازجي (الديوان ٢٧٤/٢٧٦) ومصطفى باشا كامل ( الديوان ٢٩٨/٣٠٢ ) تجيء من هذا المنهاج وتلك الطريقة التي توضحت واستبانت خطوطها بنضوج فن الخليل الشعري مع الزمن

وترجمة الخليل عن الحياة الخارجية تسوقنا الى النظر في قدرته على نقل الاشكال التي تأخذها الأحياء في العالم كما تقع من حسه وشعوره وخياله فنجد لخليل مطران قدرة على التشخيص تمثيل الاشياء في موضوعيتها عن العتاد) وهذا يرجع الى ما في عينه من تعدد الجوانب التي ينكس من كل جانب منها مظهر من مظاهر الحي أو شكل من أشكاله ، وبتناسقها وعمله على ضبط نسبها يمثلها في صورة بارزة ، ولوحة لها العمق بجانب الطول والعرض. والقدرة على التشخيص لاشك وليدة خيال قوي واسع وشعور عميق زاخر وهي تبدو حيناً في صورة من شعر الوصف والتصوير وحيناً آخر في صورة من شعر القصص . ومن أبرز القصائد التي تجيء من القسم الاول قصيدة « المرآة الناظرة او عين الأم» (الديوان ١٣/١٤) في هذه القصيدة يقول الشاعر :

دبجت برود في الاصيل تطوفها كمليكة طافت معاهد حكمها
حسناء أسرها الجمال فأنشأت في أيكها الاطيار تخطب باسمها
والحس أكمل ما يكون تهيبة في بدئها وملاحة في تمها
سترت بأخضر سندسي جيدها فحكى الحيا وردة في كمها
وتمايلت في ثوب خز مورق غصناً وهل للغصن نضرة جسمها
فاذا دنت في سيرها من زهرة همت بأخذ ذيولها وبلثمها
أو حورت فرعاً وطيب لثاثه أدنى بمعطفه ومال لضمها
وتحفها هفل الذرى ليجزها بحياتها ويشكنها في وهمها
كالنحل طاف بزهرة فلسعتها ورشفن منه ما رشفن برغمها
حتى اذا حمي الحيا جنيها ندى وأخذ جمرة من عزمها
جاست تقابل أمها وكأنما كانا ما جلست قبالة رسمها
والروض ما كفه بل سماؤها تصغي اليب حديثها ولثمها
اذ غاب فيها وصف مائت به عذباتها حتى التذين بنجمها
وتحاورت صفو الفتاة تحاكماً سترت عن الابصار طلعة نجمها
تتحيرت فيها تحاول وهي قد أبيت بلا مرآتها عن نظمها

(١) احمد الشايب — مقال في رأي مطران — أبولو ، م ١ ج ١١ ص ١٣١٠

بدت تحافي اسها وتناظرت بعيونها وجدت سحابة همها
وكذا الفتاة اذا اصابت ساعة مرآتها نظرت بعيني أمها

فها وصف دقيق قوي بارز يتمثل في الذهن كشهد منحوت أكثر منه لوحة من صنع الخيال . والواقع ان الشاعر أظهر مقدرة على محاكاة المشهد الذي استوعب نظره والذي يقول فيه : « كنت في حديقة الجيزة أصيل يوم هبت فيه ريح السموم فرأيت فتاة تنظر في عيني أمها وتصلح شعرها » (الديوان ١٣:١) . وهذه المقدرة نتيجة ملكة التصوير التي تنقل الاشكال الموجودة في الخارج كما تقع في عالم الحس والشعور والخيال . رأيت لا تخطىء في القصيدة التي تناولها تلك عناصر التصوير فالالوان مضبوطة بقدر، والشكل منقول بقوة، والحركة وهي اهم شيء في فن التصوير ممثلة في جملها وتفصيلها بوضوح وصدق . اما القصائد التي تجيء من الشعر القصصي وفيها عنصر التشخيص قوي فجمّة في شعر مطران ، نذكر من بينها « فتاة الجبل الاسود » (الديوان ١٥٤/١٥٨) وهي تجيء من باب شعر الملاحم — Epos — وقصيدة « حرب عادلة ولا متعادلة » (الديوان ١٤٧/١٥٣) و « فتحان قهوة » (الديوان ١٢٣/١٢٨) و « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » (الديوان ٦٤/٧٤) و « غرام طفلين » الديوان ٢٢٣/٢٢٦) و « الافتران » ( الديوان ٢١٩/٢٣٣ ) و « نيرون » التي نظمها مطران عام ١٩٢٤ — ١٩٢٥ والتي تليت في الجامعة الاميركية ببيروت (انظر بروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية : ج ٣ ص ٩٤ ) . وهو يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » ( الديوان ١٥٤) :

٦ : ويوم كأن شعاع الصباح كشته مطارف من عسجد
٧ : تفرقت الترك فيه عصائب كل فريق على مرصد
٨ : يسدون كل شعاب الجبال على نازليهن والصعد
٩ : أسود تراقب أشبالها ولا يلتقون على موعد
١٠ : وكأن عداهم وهم دونهم بعد الجنود وذات اليد
١١ : يوافونهم بلفتات الصوص ويرمون بالنار والجلد
١٢ : ويغترون تجاه الصفوف ويجتمعون على المفرد
١٣ : ويمتنعون بكل خفي عمى على أمهر الرود
١٤ : وأي رأى شارداً يختلسه وي رأى وارداً يصطد
١٥ : ويلتقمون جناح الحيس اذا الموت أعمى عن النجد
١٦ : مناهم سائمين وقوفاً ولا يهجمون على مرتد
١٧ : وما منهم للدنى بمرتد سوى غادر ساء من مرشد
١٨ : اذا لم يندهم الى مهلك أصل بحيله المهتدي
١٩ : ويعتسف الترك في كل صوب فهذا يروح وذا يغتدي

في هذه الابيات تتجلى مظاهر الاقتدار على التصوير . فقد اتخذ الشاعر من ميدان القتال أرضية — [illegible] — أظهر عليها القتال في صورة بارزة واضحة الخطوط بينة المعالم ،

صادقة الحركة دقيقة التصوير. ولا شك ان هذا الاقتدار على التصوير والوصف تابع لقدرة مطران على نقل الاشكال من العالم كما تقع من الحس والشعور والخيال [١]

— ٣ —

القدرة على التشخيص بما يتبعها من ملكة الوصف والتصوير، ثم التعاطف بين الشاعر والحياة وتعدد المناحي والجوانب في نفسيته، تهيء خليل مطران لخلع الحياة على الطبيعة الجامدة. ومن هنا جاء حياة الطبيعة عند مطران نتيجة اتساع أفق الشعور والخيال وغنى الحس والشعور ومن المهم ان نقول أن حياة الطبيعة عند مطران ليست من قبيل تجريد الشخوص من الطبيعة ومخاطبتها واسناد صفات الاحياء اليها كما هو شائع عند شعراء العرب الذين يحدثون مظاهر الطبيعة وتحدثهم مظاهرها. ولا هي نتيجة للمجاز أو التشبيه الذي تسوق اليه ضرورة اللغة والتعبير فتسند الاوصاف الحية الى الطبيعة الجامدة. وانما هي نتيجة التعاطف بين وجدان الشاعر والطبيعة يضرمه سعة الخيال وزخوره. وهذا التعاطف هو الذي ينتهي بمطران الى النفوذ الى اعماق الطبيعة كما وأنه يمكنه من النزول الى اعماق الطبيعة البشرية (في الفسط الشائع بين الناس) ويترجم عن العواطف والمشاعر. وهذا كله مما لا ريب فيه نتيجة لتعدد الجوانب، فهو الاساس الذي تحيء منه جميع الخصائص التي تتميز بها طبيعة مطران الفنية

وخلع مطران الحياة على الطبيعة واغداقه عليها شعوراً من شعوره وحياة من حياته، ان يظهر لك من مطالعة شعر مطران. ولربما لاحظت هذا في الأبيات التي نقلناها لك من قصيدة «العالم الصغير مرآة العالم الكبير: فنجان قهوة. الديوان ١٢٩/١٣٠) في صدر الفقرة الاولى من هذا البحث. فقد اشرنا الى ما فيها من قوة الخيال التي جعلت الشاعر يصور حباب البن في الفنجان وكأنه من الاحياء، خالعاً عليه احساساً من احساسه وشعوراً من شعوره. ومن هنا يمكننا ان نقول ان الطبيعة الجامدة تتجلى للشاعر على اعتبار انها قلب نابض وحياة تتدفق في اعطاف الكائنات وشعلة تأجج في الاشياء. ومن هنا جاء حنين الريح وزفيره، وأنين الحياة التي تذوب منها الصخور، وحديث النسيم الذي يوب على الروح، وتفكير الازاهر الذي يحكيه عنها العبير في قصيدة «بدري، بدر السما» (الديوان ١٤/١٥). وكل هذا يثبت ان مطران يعطي الطبيعة ذاتاً حية، يناجيها العطف. اما عن اعطاء الطبيعة ذاتاً حية فواضح من قوله في قصيدته «تعزية» (الديوان ١٩٧/١٩٨)

---

١ — انظر كتاب Abrahaly: The Poet لبنج ١٩٣٨ ص ٢١ وما بعد بخصوص شعر الوصف والتصوير وقابل ذلك بما هو عند مطران

١٨: ايس الهوى روح هذا الوجود كما شاءت الحكمة الفاطرة
١٩: فيجتمع الجوهر المستدق بآخر بينهما آصرة
٢٠: ويأتلف الذر وهو شتى فيمثل في الصور الظاهرة
٢١: ويحتضن الترب حب البذار فيرجعه جنة زاهرة
٢٢: وهذي النجوم اليست كذر حواف على البحر زاخرة
٢٣: عقود منتثرة بانتظام على نغمها ابداً دائرة
٢٤: يقيدها الحب بعضاً وكل الى سنوها صائرة

فخلع الحب على الطبيعة الجامدة، مظهر لتمثل ذات حية لها، وهذه الأبيات التي نقلناها لك تسوق الذهن الى بعض شعر الفيلسوف الدكتور شبلي شميل الذي قاله في الكونيات. أما عن مساجلة الطبيعة العتب فيظهر عند الخليل تارة في الهروب الى الطبيعة والركون اليها كما هو الحال في قصيدته «وفاة عزيزين» (الديوان ٤٥/٤٨)؛ حيث يرى في الطبيعة عزلة يفر اليها من مجال الأسى في الحياة، وطوراً في شعوره بحياة الطبيعة الخارجية ومساجلتها العتب كما هو الحال في قصيدة «الحمامتان» (الديوان ٥١/٥٣) او قصيدة «وفاء» (الديوان ٨٤/٨٨) حيث يقول فيها:

٣٩: واستشهد الروض الاريض ودوحه وما فيه من زهر وعطر مضوع
٤٠: وهذي الظلال الباسطات اكفها وهذي الشعاع الدليات بأذرع
٤١: وهذي المياه الناظرات بأعين وهذي الغصون المصغيات بمسمع
٤٢: بأني لا ابغي سوالك حيلة وهيهات تسعى مبوي فيك المضيع

وقصيدة «الوردة والزنبقة» (الديوان ١١٣/١١٥) وكذلك «قصيدة المساء» (الديوان ١١٩/١٢١) التي فيها يظهر التماطف بين قلب الشاعر والبحر على أبلغ وجه وفيها يقول الشاعر:

٢٢: منفرد بصبابتي متفرد بكآبتي متزايد بعنائي .....
٢٣: شاك الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
٢٤: تاو على صخر اصم وليت لي قلباً كهذي الصخور الصماء
٢٥: يتناوبها موج كوجع مكارهي ويفتها كالسقم في اعضائي
٢٦: والبحر خفاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء
٢٧: تفنى البرية كدرة وكأنها صعدت الى نبئي من احشائي
٢٨: ولاذ مفكر قريح جنه ينفي على الفترات والاقذاء

وأنت لا تخطىء الدليل على ما نقول في الأبيات التي نقلناها لك من هذه القصيدة الوجدانية الرائعة. وترى مطران يحسن الاصغاء الى سر الحياة في الطبيعة فيحيا معها كما هو الحال في قصيدة «اعتذار» (الديوان ١٦٧/١٦٨) و«نفحة الزهر» (الديوان ٢٥١/٢٥٤) فترى الطبيعة المرقصة المتنشة العامرة بالطيور والبلابل والأزاهر والورود تبدو للنظر من خلال شعر الخليل. والواقع انك يمكنك ان تلمس من شعر الطبيعة عند مطران وهو جم وضوح خطوط حياة الطبيعة عنده.

على انه يهمنا ان نلاحظ وجه الحياة التي يخلعها مطران على الطبيعة وهل هي على

أساس بعث الصور التي تلبسها الحياة أم على أساس الامتزاج بالشعور الذي يميز الحياة عن غيرها. والذي يبدو للنظر من استقراء شعر الطبيعة عند مطران ، ان نظره ينتهي الى عنصر الشعور الذي وراء صور الحياة . فهو حين يتكلم عن حياة البرتقال ، لا يهمه من حياته الصور التي تلابسهُ وانما نجده ينزل الى الاعماق فيرى حياتها المتصلة بأغصانها والتي تستمد منها عصارة الحياة ، ومن هنا يجيء تشبيه ثمار البرتقال في تعلقهن بالاطفال الملتقمين ثدي أمهاتهن . فيقول في قصيدته « يوسف أفندي » ( الديوان ٣١/٣٢ ) :

١٠ : هذا هدي الثمار الرضيعات تعلق كل منقل بثدي

كذلك في تصويره لحبه ينزل الى الأعماق ، فيرى وجه الاتصال بين عاطفة الحب التي تدفق الرجل من فلك المرأة وتجعله يسبح فيه وبين سير الارض مشدودة لفلك الشمس . وفي هذا يقول من قصيدة « تبرئة » ( الديوان ١٩٧/١٩٨ )

٢٧ : وانك في فلكها الحسن شمس وتسعى اليك به سائره

وفي هذا البيت استعارة تمثيلية نادرة ، والمعنى المستتار يحجب وراءه قانوناً من قوانين الطبيعة . فهي من هنا ليست بالفكرة الشائعة المبتذلة . وتمثيل مطران لحبه على أساس كونه بين اثنين من الاشخاص الذين لا يقفون عند مظاهر الاشياء ، وانما هو من الذين ينزلون الى الأعماق ويكشفون عن الهندسة غير المنظورة التي تسيطر على عالم المظاهر والاشكال . ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن هذا المعنى الذي أداه مطران في البيت المذكور أدارهُ مصطفى صادق الرافعي على وجه لا يبعد عن الوجه الذي قاله فيه مطران ، فقال

يا نجمة ما في افلاكها قمر من حيثما لي قد اختلفت افلاكي

وهو — على حد قول الاستاذ محمد احمد الغمراوي — بيت بقصيدة من الشعر[1] . وهذا الكلام يعود أيضاً ويصحب على بيت مطران . كذلك من الصور العميقة الدلالة قول الخليل في قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير افنجان قهوة » (الديوان ١٢٩/ ١٣٠) :

١٥ : . . . . . فأحبتها السعد آخر شقوة الانسان

وأنت لا تخطىء ما في هذه الشطرة من التصوير الصادق للسعد

والواقع ان مطران شاعر تبرز في شعره الفكرة الكونية المربوطة بماهية طبيعة الانسان وحقيقة الحياة والكون واستقراء الخطوط الاساسية التي تدخل في هذا النسيج تلج بنا الى تناول فلسفة مطران الشعرية ، لهذا نتركها الى مكانها الطبيعي من الدراسة حيث نفرد لها مبحثاً قائماً بذاته

---

(١) — الرسالة — السنة السادسة (٢٦٦) ص ١٣٠٠ — ١٣٠١

# البترول ومشتقاته

نقولا افندي ابراهيم كحيل
كبير مفتشي الكيمياء بوزارة المعارف(١)

لاتخلو قصة صناعة البترول ومشتقاته ونموها السريع العجيب من طرافة . فهي ككل قصة مليئة بعناصر المجازفة والاقدام واليأس والقنوط والغنى الفاحش والفقر المدقع وهي قصة امتزجت فيها عوامل الحظ والبحث العلمي والاختراع المثمر والثروات الضخمة وتضافرت في سبيل اتمامها عقول جبارة المال ونوابغ العلماء من كل لون وخاصة الكيميائيين والمهندسين فأدركت في أقل من قرن ما لم تدركه غيرها من الصناعات في عدة قرون

فالبترولم او النفط كما سماه العرب معروف من قديم الزمان استخدمهُ جدودنا المصريون القدماء ومعاصروهم من أهل بابل والصين والهند في مرافق كثيرة منها الانارة ومنها الاستشفاء من بعض الامراض الا أنهم كانوا جميعاً يستخدمونهُ كما عثروا عليهِ خاماً قذر اللون كريه الرائحة لزجاً تعافه النفس عند اول عهدها به

والبترولم كلمة مركبة من لفظتين لاتينيتين هما ( Petra ) او الصخر و( Oleum ) او الزيت فمعنى البترولم هو الزيت الصخري او المعدني تشبيهاً له بالمعادن لاستنباطها جميعاً من باطن الارض وقد سماه العرب النفط . والغريب ان اسم إحدى مشتقاته الهامة هو( Naphtha ) والشبه بين اللفظين واضح . أما كيف تكوّن النفط في باطن الارض فسرٌّ من أسرار الطبيعة لا تملك الا ان تتقدم مع العلماء الذين اهتموا بموضوعه بشتى الظنون والنظريات بشأنه . فمنهم من يقول انهُ تكوّن من تأثير الماء في بعض مركبات الحديد الكربونية ومنهم من ظن انهُ كالفحم تكوّن من كر العصور على بقايا نباتية او حيوانية وهي مدفونة في جوف الارض تحت تأثير ضغط الطبقات الارضية وحرارتها فيها الا ان الرأي الغالب هو انهُ من أصل حيواني خالص كما ان الفحم من أصل نباتي خالص . ويوجد النفط في مناطق متعددة من الكرة الارضية بمقادير متفاوتة وأغناها به هي بعض مناطق الولايات المتحدة وجنوب روسيا وخاصة بلاد القوقاز وجزائر جاوى

(١) الحديث مأخوذ من محاضرة الاستاذ الكبير ألقاها في جمعية العلوم الطبيعية

وبورنيو في الهند الشرقية وإيران والعراق والمكسيك وأخيراً مصر

والزيت الخام سائل لزج كريه الرائحة كما قدمت يختلف لونه من الاسود القاتم الى الاصفر الباهت ويوجد غالباً في طبقات الارض المسامية كالرملية او الطفلية الجيرية فيخترق مسامها والكهوف التي تتخللها تملوه طبقة او طبقات من الصخر الصلد ويستخرج منها بحفر آبار في خلال الطبقات المرتفعة حتى يصل غور البئر الى الطبقة المسامية فيندفع الزيت المحبوس بقوة تتفق ومقدار الضغط الناشيء من وجود غازات محبوسة مع الزيت . ولقد يحدث ان يخرج الزيت في نافورة يبلغ ارتفاعها مئات الامتار ويستمر كذلك حتى يهبط الضغط تدريجاً ويصحب ذلك طبعاً ضياع مقادير وفيرة من الزيت في بعض الاحيان كما حدث في أحدى آبار بلاد القوقاز اذ اندفع الزيت وتكوَّنت منهُ بحيرة فاض زيتها الى بحر قزوين وقدّر ما اندفع منها في الثلاثة الايام الاولى بنحو ٤٥٠٠٠٠٠ جالون من الزيت الخام

هذا والى جانب امثال هذه البئر آلاف من الآبار لا ينتج الواحد منها جالوناً واحداً أو تخرج منها مقادير ضئيلة لا تفي بعشر معشار ما أنفق على حفرها وتجر بذلك الخراب على مستثمريها

والنفط من الناحية الكيميائية مزيج من عدة مواد مختلفة الكثافة وباقي الخواص الطبيعية الاَّ انها تكاد تتفق جميعاً في كونها ايدروكربونات او مركبات كيميائية من عنصري الكربون والايدروجين . وقد دل البحث على ان النفط الخام يتكوَّن من ٨٤٪ من الكربون من وزنه و١٢٪ من الايدروجين ومقادير صغيرة متفاوتة من النتروجين والاكسجين والنتروجين

ولقد استخدم الزيت الخام في اوائل عهد استنباطه في حالته الطبيعية ولم يُنقَّ الاَّ من الرمل والمواد الصلبة العالقة به وذلك بترشيحه من خلال طبقة من القماش ولقد وجد انهُ لا يصلح الاَّ لمرافق محدودة ولذا كانت عملية استنباطه تدبراً عملية خاسرة ولولا ان تقدم الاستاذ بنيامين سيليمان استاذ الكيمياء في جامعة ( Yale ) بفحص النفط فحصاً كيميائيًّا ودراسة خواصه وتمكنه بعد فحص مستفيض من اشتقاق جملة مواد منهُ بحالة نقية مقبولة لآخر ميلاد صناعة البترول سنوات عن عام ١٨٥٩

تمكن سيليمان من ان يحوّل الزيت القطراني الكريه الى منتجات شفافة تكاد تكون عطرية الرائحة استخدم بعضها للانارة وبعضها كوقود في اول الامر ونشر نتيجة بحوثه فهب المستثمرون من كل صوب يبحثون عن الزيت ويستخرجونهُ من باطن الارض توطئة لاستخراج مشتقاته . والاحصاء التالي يبين مقدار اقدامهم

ففي عام ١٨٥٩ استنبط من باطن الارض في آبار بنسلفانيا ٢٠٠٠ برميل والبرميل سعته نحو ٤٠ جالوناً

وفي عام ١٨٦٩ كان المستخرج من نفس المنطقة ٤٢١٥٠٠٠ برميل
» ١٨٩٩ بلغ » » » ٥٧٠٨٤٤٢٨ برميلاً
» ١٩٠٦ » » » » ١٢٦٤٩٣٩٣٦ »
» ١٩٣٨ » » » » ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ برميل

هذا في اميركا أما في مصر وقد استنبط البترول لأول مرة عام ١٩١٣ على يد الشركة الانكليزية المصرية للنفط فقد استخرجت المقادير التالية

في عام ١٩١٤ كان المستخرج ٧٠١٠ أطنان
» ١٩٢٤ » ١٥٩٥٩٠ طنًا
» ١٩٣٤ » ٢٢١٠٢٨ »
» ١٩٣٨ » ٢٢٥٧٣٣ »

وعملية تقطير النفط صناعيًّا معقدة وتختلف باختلاف المكان الاَّ أني سأشرح العمليات الاساسية التي تكاد تكون مشتركة فيها جميعاً . وتقطير سائل كما تعلمون هو عبارة عن تسخينه في إناء مناسب وإمرار الابخرة المتصاعدة منهُ في أنابيب او مسالك تبرَّد بطريقة ما فتهبط بذلك درجة حرارة البخار فيتكاثف وينعقد سائلاً يستقبل في وعاء نظيف . وهذه هي طريقة تقطير النفط الخام إذ يوضع في مراجل كبيرة من الحديد تحمى بوقود مناسب وترتفع درجة حرارتها حتى تغلي ويتصاعد منها في أثناء التسخين أبخرة المشتقات المختلفة الداخلة في تكوين المزيج وتمر هذه في أنابيب تحملها الى خزانات مختلفة يحتوي الواحد منها على واحد او اكثر من نتائج التقطير

وأساس تقطير النفط هو تقسيمه الى اربعة أقسام أساسية في اول الامر

أما القسم الاول وهو ما يقطر فيما بين ٤٥ — ٧٠°م ويسمى تجاريًّا إثر البترول وهو سائل كثافته ٦٥ر٠ سنتجرام ويستخدم في الصناعة كوقود او كذيب للمواد الدسمة وهذا هو السر في استخدامه في تنظيف الملابس مثلاً ويستخدم كذلك كذيب للمواد الراتنجية في صناعة الدهانات والورنيش

والقسم الثاني وهو مايقطر فيما بين ٧٥ — ١٥٠°م ويعرف في الصناعة بالجازولين وهي المادة التي يسميها العامة بالبنزين وتستخدم كوقود في محركات السيارات والطائرات

والقسم الثالث وهو الذي يقطر فيما بين ١٥٠ — ٣٠٠°م ويعرف في الصناعة باسم الكيروسين وهو زيت الجاز المعروف الذي يستخدمه سواد الشعب في الاضاءة والطبخ والمرافق المنزلية الاخرى وهو سائل شفاف ذو لون أزرق باهت كثافته ٨٠٦ر٠ سنتجرام

وأما ما يبقى في المراجل بعد ذلك فانهُ في كثير من الاحوال يترك ليبرد فتفصل منهُ عند

ذاك مادة صلبة شفافة تميل للبياض تسمى بالبارافين وتستخدم في عمل الشموع وفي بعض أدوات العزل الكهربائية ويؤخذ الزفت بعد فصل البارافين منه وهو سائل أسود لزج يسمى بالمازوت او الزيت الوسخ ويستخدم في ادارة الآلات المعروفة بآلات ديزل

واذا قطر المازوت فوق درجة ٣٠٠°م فانهُ يحصل منهُ على منتجات أخرى نذكر منها الفازلين وهو مجينة رخوة لينة والتي منهُ يستخدم كثيراً في العلاجات الطبية وخاصة في عمل الدهانات المعروفة بالمراهم وفي عمل بعض مواد التزين والتجميل عند السيدات ويخرج منهُ نوع وخو آخر من الشمع يستخدم في طلاء الاراضي الخشبية كما يحصل أيضاً على أنواع مختلفة من الزيوت تستخدم في تشحيم أجزاء الآلات المختلفة نذكر منها زيت المحاور وزيت الاسطوانات وزيت سولار وهكذا . ويبقى في النهاية القار والاسفلت ويستخدمان غالباً في رصف الطرق وطلاء الاحجار المستخدمة في ذلك وله منافع أخرى

وكل واحد من المنتجات الاربعة الاساسية التي ذكرناها يمكن تقطيره على حدة لاستخراج منتجات فرعية منهُ تصلح لنوع معين من الصناعات ولا يتسع المجال لذكرها الآن تفصيلاً

والنفط المصري اذا قطر تقطيراً عادياً استخرجت المنتجات الآتية وهي : —

| | | |
|---|---|---|
| منتجات خفيفة وجازولين | ٧٫٧٣ | ٪ |
| « متوسطة او كيروسين | ١٤٫٢٤ | ٪ |
| « ثقيلة او مازوت | ٧٧٫٢١ | ٪ |
| | ٩٩٫١٨ | ٪ |

ولايختلف النفط المستخرج من اماكن اخرى عن ذلك كثيراً ومما نعرفه جيداً ان سعر البنزين يزيد على ضعفي سعر الكيروسين او الجاز حجماً بحجم فثمن الجالون من الاول اليوم هو ٨٦ مليماً بينما سعر جالون الجاز هو ٣٤ مليماً وما يستهلكه العالم منهما في نمو دائم ولاسيما ان عدد السيارات والطائرات في زيادة مستمرة وخاصة الآن والعالم يستعد بجيوشه الميكانيكية لحرب ضروس عدتها السيارات والطائرات ولذا سعى المنتجون وعلماؤهم علماء الكيمياء في زيادة محصول البنزين على حساب المنتجات التي تفوقهُ ثقلاً ، وجدوا ان ذلك ممكن بتحطيم جزيئات المركبات الثقيلة فتكون منها جزيئات متعددة من المنتجات الخفيفة باستخدام عوامل مساعدة من جهة ، وبتقطير النفط من اوان مزدوجة لا تخرج منها الا أبخرة المنتجات الخفيفة . وأما الثقيلة فتتكاثف قبل ان تصل قمة البرج وتتساقط رذاذاً خفيفاً على السائل المسخن في جوف البرج فتحطمها الحرارة الى منتجات أخف منها وهكذا فكان في الوسع رفع نسبة الجازولين الحاصل من التقطير من ٨ ٪ الى اكثر من ٢٠ ٪ من النفط الخام

ولقد وجد ان المنتجات الخاصة من التقطير لا تصلح للاستخدام الصناعي من دون تنقيتها من شوائب تخرج مع الابخرة وهي مواد دهنية او قطرانية لو تسرب لها بدخول مسالك الآلات الدقيقة لسدتها وعطلت عملها ولذلك فالطريقة العامة لتنقية مشتقات البترول هي مزجها أولاً بالحامض الكبريتيك المركز الذي يفحم تلك الشوائب ثم تنقى الزيوت بعد ذلك من آثار الحامض بغسلها بمحلول الصودا الكاوية ثانياً ثم بالماء النظيف الذي يزيل آثار الصودا واذا كان الزيت الخام يحتوي على كبريت فانهُ يتنقى منهُ بأن يضاف اليه البيارج او المرتك الذهبي وهو اكسيد الرصاص الاصفر الذي يتحد بالكبريت متحولاً الى كبريتات الرصاص التي ترسب

وبعد ذلك يقطر الزيت للمرة الثانية فيخرج نقيًّا صالحاً للاستعمال

هذا باختصار بيان الطريقة العامة لتكرير البترول والطرق الخاصة كثيرة ومتشعبة الا ان اساسها جميعاً التقطير لفصل النفط الى منتجات متعددة ثم تنقيتها بعد ذلك بالحامض الكبريتيك والصودا الكاوية ثم اعادة تقطير المشتقات كل على حدة

وكلمة اخيرة ارى ان لا بد من ذكرها وهي : ان ما يستخرج من النفط الآن يقرب من الخمسين بليوناً من الجالونات سنويًّا ولسنا نعرف بالتدقيق مقدار ما يحويه باطن الأرض من هذا السائل النفيس ولقد بعث ذلك العلماء على البحث عن موارد اخرى للجازولين او البنزين وهو اغلى وأنفع منتجات النفط ولقد اهتدى الكيمائي النابغة sabatier الذي فاز بجائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٣١ الى حل موفق للمشكلة وقد بنى بحثه على حقيقة معروفة وهي ان مقدار الايدروجين الذي يتحد بمقدار معين من الكربون في الفحم الحجري هو نصف الايدروجين المتحد بنفس المقدار من الكربون في النفط فهل اذا تمكن بطريقة ما من جعل الكربون في الفحم يتحد بمقدار آخر من الايدروجين يتحول الفحم الى سائل نفطي نحصل منهُ على الجازولين ؟

بدأ بحثه على هذا الاساس ولقد نجح في ذلك فعلاً وتتلخص طريقة برجيوس هذه في اضافة مسحوق الفحم الى زيت ثقيل وبعد وضع المخلوط في مراجل متينة من الصلب وتسخينها تحت ضغط يبلغ ٢٠٠ ضعف الضغط الجوي يدفع الايدروجين الغازي الى المراجل وبعد تمام العملية وجد أن الكربون الصلب المسحوق قد ذاب وتحول المخلوط داخل المراجل الى سائل نفطي اذا قطر حصل منهُ الجازولين والكيروسين

هذا ما وصل علمه الى الناس ومما لا شك فيه ان علماء آخرين في بلاد اخرى يسعون الى الحصول على الجازولين بطرق اخرى ولربما يكون قد نجح اكثر من واحد منهم ومع اخفاء طرقهم عن الناس فالجازولين في الحرب الحالية له مكانة البارود او أعلى من مكانة البارود ومن الجائز اعتبار طرق استنباطه والاستزادة منهُ من اسرار الحروب

# سواكن

## مدينة سودانية

للبيور زباشي عبد الرحمن زكي
امين المتحف الحربي بالقاهرة

### سواكن[1]

« يقع ثغر سواكن على البحر الاحمر على خط العرض الشمالي ٧° ١٩' وخط الطول الشرقي ٢٠° ٣٧' وعلى نحو ٧٢٠ ميلاً من السويس و ٢٨٥ من مصوع و ٢٠٠ ميلاً من ثغر جدة بالحجاز . وهي جزيرة محيطها ميل ونصف ميل ومساحة من الارض أمامها على البر الأفريقي يقال لها « النيف » بينهما في البحر مسافة ٤٠ متراً . وقد وصل بينهما بجسر عام ١٨٧٩ عرضهُ نحو ٨ امتار بناه جوردون باشا . وهي تقع اليوم على بعد اربعين ميلاً جنوبي بورسودان منافستها التي قضت عليها »

سواكن اليوم في حالة احتضار يحرّك أسى النفس فهي في الرمق الأخير من حياتها . لا يزيد عدد سكانها عن اربعة آلاف مع أنهُ وصل في عصرها الذهبي الى ثلاثين ألفاً . يحيط بها سور قديم كان يشتمل على عدة طوابٍ لم تبق منها الا آثارها لتخبر عن جهادها وبناء سواكن مع انها عميقة وصالحة لرسو السفن الكبيرة بيد ان مدخلها الذي يؤدي اليها لا يثق بأي حال . وطراز مباني سواكن عثماني كالذي نلاحظه على موانىء البحر الأحمر الأخرى كجدة ومصوع

وليست سواكن أقدم ثغور الشاطىء الغربي للبحر الأحمر لكنها اشهرها . فقد كانت في أعز ايامها حلقة الاتصال بين بلاد العرب والحبشة ومصر والهند الى بلاد الصين . وزارتها سفن جميع بلاد العالم . وأشار اليها معظم الرحالة من المسلمين وغيرهم في كتاباتهم . ولا يهمنا في قصة هذه المدينة التي احتوت الكتابة عنها ذكر تاريخها الجغرافي الذي يتناقله ابناؤها وتتحدث عنه الأمهات لأطفالهن . او أن نقص شيئاً من حياتها الملبئة بعجائب أيام النبي سليمان او بعض اخوادث الدموية التي اصابت قبيلة البجة حين عاشت في بطون تلالها الغربية منها . بل

(١) اقتبس الكاتب معظم ما كتبه في هذا الموضوع لمقال الكاتب الانجليزي ... نشره في مجلة Sudan Notes and Records بالعددين ١٩ و ٢٠ عام ١٩٣٦ و ١٩٣٧

سنتناول اهم نواحي تاريخها كما يقتبس المؤلف تفاً من يوميات السياسي او الفيلسوف

كانت الاراضي التي شيدت عليها سواكن فيما بعد محط رحال القوافل الحبشية او السودانية وكانت تنتظرها على الشاطىء السفن المصرية او الاغريقية او الرومانية وأخيراً الاسلامية والعثمانية فتتبادل المنتجات وأصناف التجارة . ولما تمت العلاقات التجارية في تلك الانحاء تحولت سواكن الى قفر نشط من ثغور الطبقة الأولى . ومضت في سيرها من يسر الى رخاء وثروة أيام مصر البطليموسية . ولا سيما في الفترة الواقعة بين عامي ( ٣٠٠ و ٢٠٠ ق. م. ) وازدحمت منطقة الساحل الجنوبي لشاطىء الغربي للبحر الأحمر بالمحطات البحرية. وقد اشتهرت تلك المحطات بتربية الفيلة التي كانت تصاد في أواسط افريقية اذ ذاك او تستجلب من الهند للانتفاع بها في الجيوش الرومانية او المصرية ضمن الاسلحة الثقيلة

وقد عني البطالسة بمنطقة سواكن وشيدوا عليها مصالح السن . ونمت تلك الصناعة التي احتكرها أهالي البلاد مدة طويلة . واشتهر سلطان أسرة البطالسة هناك الى عام ٣٠ ق.م حينما غزا الرومان مصر واستولوا عليها . فوضعوا ايديهم على المستعمرات المصرية التي امتدت على شواطىء البحر الأحمر . واستغلوا مناجم الذهب ثم امتد نفوذهم الى جنوبي عدن . ووزعوا تجارتهم على امتداد الساحل بعد ان انشأوا لها معاقل تحميها كما بنوا أسطولاً تجارياً قضوا به على نفوذ قراصنة البلاد العربية في عام ٥٢ . وقد ترك الرومان آثاراً لهم في تلك الانحاء . و نظن ان صهريجاً رومانياً ما زال باقياً بالقرب من سواكن

## سواكن المسلمة

وبزغ نجم الاسلام في شبه الجزيرة العربية . وغزا المسلمون مصر وسوريا والعراق . وكانت بعض القبائل العربية قد رحلت في ظروف مختلفة الى داخل بلاد السودان الشرقية واختلطت بسكانها . ولكن لم يتم الاستعمار الاسلامي بسهولة في داخل السودان — فان قبائل البجه مضت في مقاومة النفوذ الاسلامي طيلة خمسة قرون . كانت البلاد في اثنائها في حالة عدم استقرار . وقد عمت الفوضى بشكل ذريع كل المنطقة الشرقية الساحلية من عيذاب [1] الى

(١) ذكر المقريزي ان عيذاب مدينة على ساحل بحر جده (البحر الاحمر) وكانت غير مسورة ومن أعظم مراسي الدنيا بسبب ان سفن الهند والمين تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة وكان الحجاج من مصر والمغرب لا يتوجهون الى مكة المشرفة الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويسيرون هذه الصحراء الى عيذاب ومنها يركبون البحر الى جدة . وكذلك تجار الهند . ولم تزل عيذاب سلكا للحجاج من اهل مصر والمغرب في ذهابهم وايابهم اكثر من مائتي سنة الى عام ١٢٦٢ . وذلك في ايام الملة المستنصر باللة العباسي واتفق الحج في البر الى ان كسا السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الكعبة ثم اخرج قافلة الحجاج في سنة ١٢٦٨ فقل سلوك الحجاج لهذه الصحراء

الحبشة . وتسلطت هذه الاخيرة على حكم تلك الاقاليم . وأخيراً تمت عيذاب وصارت من الثغور المصرية الهامة . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى عرفت المدينة بأسمها الحالي ولكننا نقول انهُ في نزهة الماثي عام بين ٧٥٠ و٩٥٠ ( ميلادية ) تمت القرية الصغيرة وثغرها الطبيعي لمواجه لها . واكتسبت بالتدريج منزلة تجارية متواضعة . كانت تعرقلها — من حين الى آخر — ثورات الأهالي الذين كانت الحكومة المصرية ترسل حملات عسكرية لتأديبهم

وقد ذكر الاستاذ الانكليزي « ا ر . ربلسون » في مقال نشره بجريدة الجمعية الافريقية عام ١٩٢٨ . انهُ بعد قتل الخليفة مروان الثاني عام ٧٥٠ اتجهت أسرته جنوباً الى أكسوم عن طريق النيل وسواكن وعقيق . وقد عثر على مقابر اتباع الخليفة الاموي على شاطىء البحر الاحمر وعلى امتداد الطريق الذي اتبعه رجال الأسرة في فرارهم

وفي منتصف القرن الخامس عشر بلغت سواكن درجة المنافسة الخطيرة لعيذاب ثغر الشمال لانها كانت إذ ذاك الثغر الوحيد لتجارة السودان الداخلية بعد ان كانت قرية ساحلية كما أسلفنا القول يلجأ اليها أصحاب السفن في طلب الماء . ثم نمت المدينة وعمرت وزاد عدد سكانها

ومضت الامبراطورية الاسلامية تفسح رقعتها وتزداد قوة وبأساً . ففي عام ١١٧٢ غزا صلاح الدين بلاد النوبة . ودخل أهلها في دين الله أفواجاً . واستولى المسلمون على بيت المقدس . فلفت ذلك أنظار الدول المسيحية الذين اتفقت كلمتهم على إنقاذ حلة صليبية لاستعادته من يد المسلمين . وفي ذلك الحين كانت السفن المسيحية تشن الغارة على ثغور البحر الاحمر مما أثر في تجارة سواكن مدة قصيرة . والى أواخر القرن الثالث عشر كانت سواكن تدين بالطاعة لسلطان مصر . وكان حاكمها خاضعاً لها وقادراً على ادارة شؤونها . وكان سلاطين المماليك على جانب وافر من القوة والجبروت فلم يترددوا في إرسال حملاتهم القوية لتأمين البلاد كلما قام الثائرون ضد الحكم المصري . فانتظمت التجارة وعم الأمن البلاد . وبلغت حدود مصر الى جنوبي سواكن

وفي عام ١٣٦٦ اثناء حكم السلطان شعبان وصلت الجيوش المصرية الى أعالي النيل . وبلغت شاطىء البحر الاحمر الى سواكن . وانتصرت بسهولة على القوات التي قاومتها . ولكن لم تثبت أقدام الحكام المصريين لقسوة رجالهم . وقامت عليهم القبائل وطردتهم من البلاد الى اسوان

ومنذ أوائل القرن الخامس عشر نمت مساحة سواكن نمواً محسوساً . وعاد ذلك الى حالة اليسر التي تمتعت بها البلاد المصرية في تلك الايام . فقد كانت سفائن الاسطول المصري التجاري تمخر عباب البحرين المصريين الابيض والاحمر الى المحيط الهندي . وبلغت ثغور الهند والصين حاملة منتجات البلاد الغنية — وباضمحلال ثغر عيذاب (حوالي ١٤٢٨) أصبحت سواكن الثغر المصري الوحيد على شاطىء البحر الاحمر من جهة الجنوب . ولتخذها الحجاج ممراً لهم في

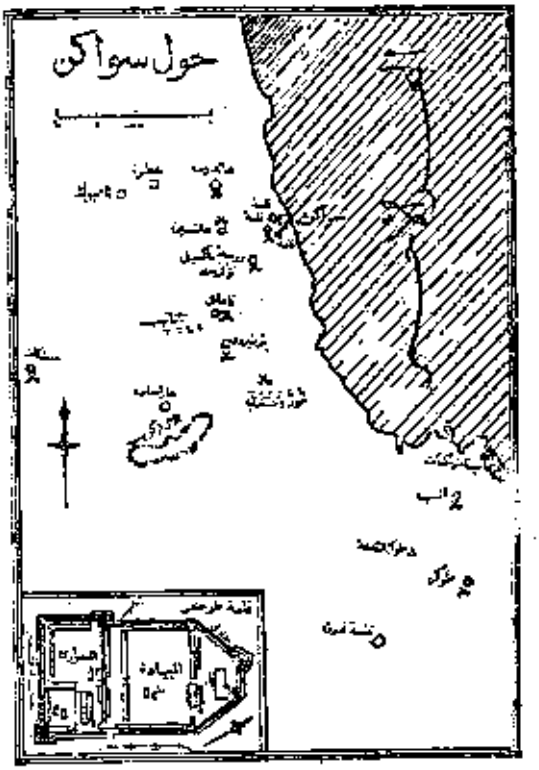
حول سواكن

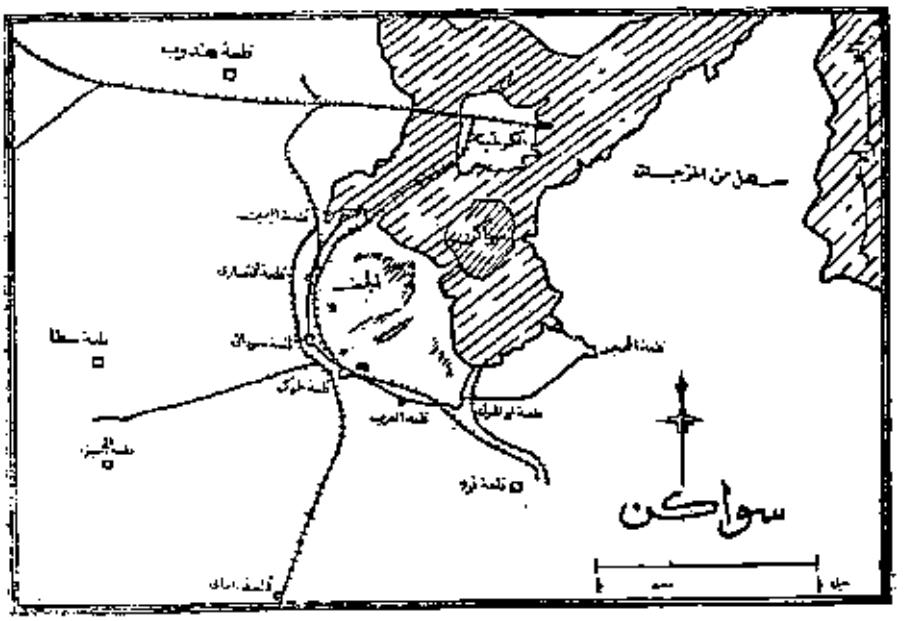
سواكن

طريقهم من مصر الى البلاد العربية واليمن . واحتكرت وحدها تجارة السودان . وقصدتها جميع السفن من الجنوب ومن الشمال. ومنذ العام المذكور (١٤٢٨) الى انشاء بور سودان في أوائل هذا القرن كانت سواكن ميناء البحر الاحمر بلا منافس على الاطلاق

## العثمانيون في سواكن

وفي عام ١٥١٧ لما استولى العثمانيون على مصر أرسلوا عدة حملات عسكرية الى الجنوب بقيادة سنان باشا . فوضعوا أيديهم على أواخي المماليك في مصوع وسواكن وجده

وكانت حوادث ذلك القرن عاملاً هاماً في تغيير أحوال ثغور البحر الاحمر أولاً لاحتلال الاتراك الثغور المذكورة . وثانياً لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بواسطة البرتغاليين . فتحولت معظم السفن الأوربية وأخصها سفن البرتغال الى الطريق الجديد

وباستيلاء الاتراك على سواكن بلغها التحسن والنمو . فشيدوا المنازل من حجر المرجان . وعينوا والياً من باشواتهم على رأس قوة من الجند . كما صنعوا في جده ومصوع . واحتفظوا بأسطول جعلوا قاعدته في السويس . ولكي يحافظوا على سلامتهم البحرية في هذه المياه شمالاً حرموا على البرتغاليين دخول البحر الاحمر وجعلوه منطقة خاصة بسفائن السلطان . فلم تتجاوز سفن البرتغال المياه الحبشية . ومهما يكن من شيء فكثيراً ما اصطدمت القوتان المتنافستان . . . تركيا والبرتغال . ففي عام ١٥٤٠ هاجم أسطول برتغالي بقيادة أمير البحر «ستيفانو دي جاما» أسطول العثمانيين ولم يكسب الموقعة أحد الفريقين . وقد وقعت بالقرب من سواكن . وأتيح لاحد رجال الاسطول البرتغالي الدون جوان داكاسترو مشاهدة المدينة وقد وصفها بالعبارة التالية: «من أغنى مدن الشرق» وأنها تضيق بالبارة والسكان . وانها قريبة الشبه بلشبونه . . .

غمت سواكن على حساب مصوع . لأنها كانت أقرب الثغور الى القاعدة التركية جده . وكثيراً ما استخدمت قاعدة للقوات العثمانية التي غزت اليمن . واكتسبت المنزلة الأولى بين ثغور ذلك الشاطىء . وقد استمر يحكمها الوالي العثماني الى القرن الثامن عشر . وبلغ عدد حاياها الترك في عام ١٦٧٣ حوالي المائة

## القرنان الثامن عشر والتاسع عشر

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت للاتراك السيادة الاسمية في البحر الاحمر وعلى البلدان المطلة عليه . وقد تفوقت البحاسة على كل تجارة أخرى بسبب وجود القراصنة وكان همهم الوحيد نهب السفن والاستيلاء على ما فيها . ولم يكن يجرؤ التجار الفرنج على المجازفة بثروتهم خوفاً من ان تقع في ايدي الناهبين

وقد وصف الرحالة « بروس » تجارة سواكن وصفاً دقيقاً ودونه فيما كتبه عن رحلاته بين عامي ١٧٦٨ و ١٧٧٣ . ومع ان بروس لم يزر المدينة مطلقاً الا أنه قد تناول الكلام عن تاريخها . ومعظم البيوت القائمة الى اليوم في سواكن من بناء اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كمنزل خورشيد افندي الذي شيده صاحبه التركي في عام ١٧٧٠ . وهو ملاصق لفرع البنك الاهلي (القديم) . وأقدم بيوت سواكن ما قام منها في قلب الجزيرة ومعظمها خرب اليوم ولم يبق الا بعض آثار بيت الباشا حيث كان يسكن الوالي مع رجاله . وقد جددت بعض بيوت سواكن في اثناء الاحتلال المصري في القرن الماضي . ويلاحظ هذا التجديد في تنوع طرازي العمارة المصرية والعثمانية . ولما زار العلامة « بورخاردت » سواكن في العام الماضي قال عنها انها تصدر ما بين ألفين وثلاثة آلاف من الرقيق كل عام الى جده

وفي اوائل القرن التاسع عشر فتح محمد علي باشا السودان وضمه الى ممتلكاته وأعاد اليه النظام بعد الفوضى . واستولى على الموانىء الثلاثة جدة وسواكن ومصوع في مقابل جزية وفّاها الى السلطان . وقد زار السير صمويل بايكر سواكن في ١٨٦١ . وكانت اذ ذاك مستودعاً كبيراً لتجارة الصادر والوارد الى مصر . وقد أشار بزراعة القطن حول المدينة والعناية بواردات الصمغ والعاج والجلد وشمع النحل . وقد شاهد سوراً يحميها ضد غارات القبائل المجاورة يحيط به خندق عميق بناه المصريون بالين

في ذلك الحين زار المدينة منازباشا وحاول اقناع تجارها بوضع الميناء تحت الادارة المصرية لتصل اليهم اصناف بضائعهم من مصر مباشرة بدلاً من مرورها بثغر جدة . ولكن لم يوافق التجار على رأيه ورأوا ان ذلك سيسهل مجيء التجار المصريين فيحلون محلهم تدريجاً ويقبضون على ازمة تجارة الثغر . وعلى الرغم من احتجاج هؤلاء التجار تسلمت الادارة المصرية المدينة مقابل زيادة الجزية المصرية ١٢٥٠٠٠ دولار . وتسلمت أيضاً ميناء مصوع . وفي عام ١٨٦٥ استعاد الاتراك سلطانهم على بعض ممتلكاتهم العربية مستعينين بحملة من الجيش المصري

## أيام الخديو اسماعيل

وفي أيام اسماعيل تطورت أحوال السودان الاقتصادية وشرع في بذل مساع متعددة لاستغلال موارده وقد نجحت معظمها . كانت سواكن ميناء السودان الوحيد ، وكانت في مقام تجاري لا ينافسها فيه أحد للتجارة الواردة الى مصر ومن الهند والحبشة وبلاد العرب واليمن . فضلاً عن أنها الميناء الرئيسي لحجاج السودان وإفريقية الغربية . ولذلك ارتفعت منزلتها وارتقت في خلال النصف الثاني من القرن الماضي

وكان ممتاز باشا اول حاكم للميناء تقلد منصبه في عام ١٨٦٦ . وفي أيامه تقدمت حركة البناء في المدينة وظهرت روح التقدم واضحة . فأصلح بناء محافظها وزاد عليه الجزء العلوي . واقام كثيرون من التجار المصريين بيوتاً كثيرة ونمت حركة التجارة الى حد كبير . وكانت حاجة مصر الى المال الكثير داعية لفرض ضرائب ثقيلة على واردات جركها . ولما لم تكن حركة السفن في الميناء منظمة ارتفعت نفقات التخزين . فهبط ميزان حركتها وقد تحدث « بايكر » عن امكان الانتفاع بالميناء لو تحسنت حركة السفن ونظمت . ولما نشبت نيران الحرب الانكليزية الحبشية في عام ١٨٦٨ فكر أولو الامر في أفضل الطرق التي تتبع لارسال المير والذخيرة الى القوات . فمد خط تلغرافي بينها وبين كسلا . وفضلت ميناء سواكن كقاعدة حربية عن مصوع . وكانت تستغرق الرحلة على ظهر الجمال من سواكن الى كسلا من ١٦ الى ٢٠ يوماً

وقد بلغ عدد سكان سواكن عام ١٨٦٩ ثمانية آلاف فقط . قل عددهم عما كان عليه في اثناء الحكم المصري . وفي العام المذكور افتتحت قناة السويس . فعادت عليها بغنم طيب . ونشطت حركتها التجارية . وقصدها كثيرون من التجار الاوربيين والمصريين

وفي عام ١٨٧٢ زار سواكن الكاتب الانكليزي « سوتوارد » فأشار الى ما يرجى منها . وتحدث ايضاً في الطريقة التي اشتراها بها الخديو اسماعيل من الحكومة الثمانية . وفي ذلك العام تم وصل الخط التلغرافي بينها وبين كسلا . كما وضع السودان الشرقي تحت امرة حاكم واحد . ونقل مقر حكمه الى مصوع واكتفى بأرسال وكيل له الى ثم سواكن . واستبدل « مونزنجير » بك بممتاز باشا الذي سافر الى مصوع . وفي عام ١٨٧٧ تقلد علي رضا باشا منصب مونزنجير بك

وفي عام ١٨٧٧ عين جوردون باشا حاكماً عاماً للسودان . وفي طريقه الى الخرطوم مر بسواكن فأمر ببناء الجسر الذي يربط الجزيرة بالشاطىء الافريقي . فتم إنشاؤه في النصف الاول من عام ١٨٧٨ بواسطة عدد كبير من المذنبين . وكان علي رضا حاكماً عليها

وفي عام ١٨٨١ صدر مرسوم مصري قرر فيه فصل اقليم السودان الشرقي وجعله قائماً بنفسه تحت امرة حاكم عام مستقل عن حكومة الخرطوم . وعين لهذا المنصب اللواء علاء الدين باشا . فتقلده في اوائل عام ١٨٨٢ . وقد قوبل خبر إستبدال علي رضا بالفرح . السرور في سواكن بين جميع الاوساط لانه كان مكروهاً ومتصفاً بصفات كثيرة لم تكن لتجعله محبباً بين أهلها

***

وفي يونيو ١٨٨٣ أنشئت لجنة لبحث مشروع انشاء خطوط سكة حديدية في السودان فاقترحت الخطوط الثلاثة الآتية :

١ — سواكن — كسلا — جوز رجاب — الخرطوم . ويخترق هذا الخط اقليم زراعة

القطن . وقد اعترض عليه لسببات هندسية . ٢ — القاهرة — الخرطوم . قامت صعوبات طبيعية أخرى . فرؤي مده الى اسوان فقط . ٣ — سواكن — بربر — الخرطوم . ولم يعترض هذا المشروع عراقيل ما . بيد انهُ لم يبدأ به في تقرير اللجنة . فلم ينشأ خط من الخطوط المذكورة . وتصادف اندلاع الثورة المهدية وشيوعها في شرقي السودان تحت امرة القائد عثمان دقنة وانتشرت في تلك الناحية في عام ١٨٨٣

## عثمان دقنة

وكان عثمان دقنة [1] مدير الثورة ورأسها والمحرك الأول في اشعالها من عام ١٨٧٧ . فلما استولى المهدي على « الابيض » سافر عثمان دقنة اليه . وقدم فروض الطاعة . فقلده هذا امارة السودان الشرقي . فعاد الى اسوان حاملاً خطابات المهدي . وكانت قبائل جبال البحر الأحمر تسلم اليه أمورها بادىء الأمر ولم تكن مرتاحة الى أعماله . لكنها غيرت موقفها بعقب عودته من زيارة المهدي . فاحترموه وأجلوه مكاناً عالياً في قلوبهم

وقصة ثورة شرقي السودان معروفة ولا محل لسردها بالتفصيل هنا . وان كنا نقول ان عثمان دقنة لقي مع رجاله في اول جهوده ضد الحكومة المصرية هزائم متعددة . لكنها لم تقل من عزيمته ولم تؤثر فيها التأثير الذي كانت تتوقعه الدوائر الرسمية . وفي نوفمبر ١٨٨٣ عين سليمان باشا نيازي حاكماً للسودان الشرقي وحضر الى سواكن . وفي طريقه اليها أقام في سنكات خوفاً من مهاجمته واستدعى حامية سواكن اليه لحراسته . وبينما كانت الحامية سائرة الى الباشا هاجمتها كافة القبائل وأبادتها ، واضطر الحاكم للاستنجاد برجال حامية سنكات ، وكان نجاح عثمان دقنة مشجعاً لتمادي رجاله في ثورتهم وانضم اليهم قاضي سواكن وبعض اعيانها وكانت النتيجة ان تقدم الى طوكر . وإذ ذاك شكلت قوة من المصريين والباشبوزق والسودانيين وأرسلت من سواكن الى ترنكتات لتخليص طوكر . لكنها هزمت

## سواكن بين عامي ١٨٨٣ و ١٨٩٨

إن تاريخ سواكن في فترة الخمسة عشر عاماً التي تتوسط ١٨٨٣ و١٨٨٩ هو وصف مسهب

(١) ولد عثمان دقنة في سواكن . وكان أفراد اسرته يزاولون مهنة التجارة وينقلون الرقيق من أعالي النيل الى بلاد العرب . فلما بلغ سن الرجولة شارفهم العمل في مهنتهم . وقد حدث في سنة ١٨٧٧ ان اسرت الطرادة الانكليزية « دابن سواكن » وزورته . فكان ضابطاً سوداني وسوداني فزج به في السجن وحكم عليه غرامة الف جنيه . وكان من الطبيعي ان يتطوع عثمان دقنة على الحقد للانكليز فبدأ بضرب ثورة الفتنة في سواكن وانتهى الى بربر والابيض وتعاون مع المهدي في ثورته . وأصبح في ١٣ يناير سنة ١٩٠٥ وهو كان معتصماً بجبال أسلم نفسه الى كتشنر وتنقل الى ان مات سنة ١٩٢٤ وابنه نور عثمان في كتاب [illegible]

للمعارك الدموية التي نشبت بين قبائل السودان الشرقي والقوات المصرية والانكليزية والعثمانية. فكم من أبطال زهقت أرواحهم واستشهدوا في سبيل إعادة الأمن والطمأنينة . لعلم ان الثورة المهدية نشبت متأججة في صدور رجالها القاطنين بشرقي السودان في منتصف عام ١٨٨٣ لما قام الزعيم عثمان دقنة تاجر الرقيق وجمع حوله الرؤساء الاقوياء من قبيلة عدندوه والقبائل الأخرى وأغاروا على سواكن ، وكانت للحكومة المصرية حاميات كثيرة موزعة بين أنحاء ذلك الاقليم الشاسع ، بين سنكات وطوكر وكسلا وجيرة والقضارف والجلابات ، وفي نقطتين بشمالي الحبشة ، فلم ينض العام المذكور حتى كانت كل تلك الحاميات مهددة بحصار رجال تلك القبائل . وفي حالة شديدة الحرج

واذا أحصينا الحملات المتتالية التي أرسلت للقضاء على عثمان دقنة وجدناها سلسلة من الهزائم المفكرة . ففي اكتوبر سنة ١٨٨٣ أباد المدد قوة أرسلت لانقاذ سنكات . وفي ٤ نوفمبر هزمت تجريدة أخرى أرسلت الى طوكر وذبح قائدها مونكريف . ولم تكد تصل الى سواكن قوة امداد من القاهرة قوامها ٢٦٢٠ جندي بقيادة الكولونيل فالنتين بايكر حتى سمع رجالها بنكبة سابقة حلت بسبعمائة جندي بالقرب من طمانيب . وكان المنتظر ان يقوم بايكر بالقضاء نهائيًا على قوات الدراويش . لكنهُ أصيب أيضاً بأشنع نكبة أصيب بها الجيش بعد حملة حيكس المعروفة ، وتفصيل الحادث أنهُ في أوائل عام ١٨٨٤ تقدم لتخليص طوكر . فلما وصل الى الطب هوجمت حملتهُ وتعدادها ٣٧٠٠ برجال عثمان دقنة وعددهم ١٢٠٠ . فولت جنودهُ الأدبار ولقوا حتفهم في أبشع صورة . ولم ينج الا ثلث القوة بأعجوبة . ونجا «بايكر» وزملاؤه من البريطانيين ، وغنم العدو ثلاثة آلاف بندقية وأربعة مدافع كروب

## البطل توفيق المصري

وفي ٨ فبراير سقطت سنكات بعد بلاء قائدها البطل « محمد توفيق » وجنوده ضروباً نادرة في أعمال البسالة ورجاله الذين استشهدوا جميعاً ، وما زالت ذكراهم المجيدة الشهودة يتغنى بها سكان تلك البقاع . وترددها من حين الى آخر الكتب الانكليزية والعربية . فلما وصلت أخبار تلك الهزائم المتتالية الى الحكومة الانكليزية أرسلت حملة بقيادة الجنرال جراهام قوامها أربعة آلاف لتخليص طوكر ، فاكتسبت نصراً يذكر في موقعة الطب ( ٢٩ فبراير ١٨٨٤ ) وفي موقعة طماي ( ١٣ مارس ١٨٨٤ ) التي اكتسحت فيها جموع الدراويش . وفي ذلك العام عين الماجور شرمسيد حاكماً عامًّا للسودان

ثم سقطت القضارف في ايدي الدراويش . وفي العام نفسه تسلمت انكلترا مديرية بربر

وزبلع من الحكومة المصرية . وسلمت هرر للوطنيين وتخلّت مصر نهائيًا عن هذه الأقاليم

وحدثت فيها بعد معارك هاشين ( ٢٠ مارس ١٨٨٥ ) وطوفريك ( ٢٢ مارس ) وطماي ( ٣ ابريل ) لكن لم تأت إحداها نتيجة فاصلة . وفي تلك الفترة سلمت مصر تقريبًا للايطاليين

وفي ابتداء عام ١٨٨٦ حاول عثمان دقنة القيام بحركات حول سواكن لكنهُ لم يلق تشجيعاً من رجال القبائل وحاربهُ بعضهم . فأجبروه على الفرار وظل مختفياً لا يسمع أحد باسمه عاماً طويلاً وفي ذلك الحين اشتعلت الحرب بين قوات الاحباش والدراويش وقد انتهت بانتصار الآخرين في موقعة ديراسين . ودخلوا جندار

وفي اواخر عام ١٨٨٨ ظهر عثمان دقنة مبتدئاً بحصار سواكن فهزم وارتد الى هندوب وحاول الكولونيل كنشنر على رأس بعض قواته غير النظامية القضاء على قوات عثمان . فلقي خيبة ذريعة وأصيب بجرح خطير في وجهه . واستمر القتال دائراً في فترات متتالية حول سواكن الى ان ارسلت القاهرة قوات نظامية من الجيش المصري وأورطة انكليزية سلمت قيادتها الى السير «فرانسز جرنفل» . فالتحمت بقوات الدراويش . ونالت نصراً باهراً عليها في موقعة الجيزة ( ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ ) وقضت على العدو . وفي ٩ مارس ١٨٨٩ حدثت موقعة المتمة . وفي ١٩ فبراير ١٨٩١ وقعت معركة طوكر بعد استيلاء الكولونيل هولدستيت على ترنكتات والطب . وارتد عثمان دقنة الى قرية تيمرين . وفي عام ١٨٩٣ تولى حكمدارية سواكن الكولونيل جنتر ثم خلفهُ الكولونيل وبحت . لقد سادت ذلك الأقليم الفاشوذة الدموية سنين طويلة الى ان كتب لهُ الخلاص بانتصار الجيوش المصرية والبريطانية على قوات المهديين في معركة ام درمان (١٨٩٨)

وبالقضاء نهائيًا على قوات عثمان دقنة استأنفت سواكن — الى حدّ ما — حياة الطمأنينة والهدوء . وان بقيت ادارتها خاضعة للاحكام العسكرية . وانتظمت احوال المعيشة فيها غير ان التجارة كانت مقيدة بقوانين . وافتتح محافظها الكولونيل لويد ( وقد عين عام ١٨٩٥ ) مدرسة اميرية في الجيف . وكانت اول المدارس في تلك الأقاليم . وبدأت الحكومة السودانية تعنى بوضع برامج الاصلاحات والتعمير في انحاء البلاد . وقامت على أكتاف جنود الجيش المصري عدة مشروعات عمرانية جلبت الخيرات على أهالي البلاد

## العلم المصري

كانت سواكن محط انظار رجال الدولتين لما لها من المنزلة التجارية . فهي كما عرفنا المنفذ الوحيد للقطر السوداني . وكانت الى عام ١٨٩٩ وهي السنة التي وقع فيها الاتفاق الانكليزي المصري خاضعة للادارة المصرية البحتة ، فكانت المدينة الوحيدة التي رفع عليها العلم المصري دون العلم البريطاني ، وكانت تطبق عليها اللوائح والقوانين المتبعة في مصر ، ولا شك ان

هذا الموقف لم يرق الأسد البريطاني في ذلك الحين ، فعمل على اضافة فقرة جديدة في اتفاق عام ١٨٩٩ وبموجبها ادخلت سواكن ضمن الاقاليم السودانية ، ورفع العلمان معاً منذ عام ١٩٠٠

وعند ذلك بدأ بحث عدة مشروعات هندسية لتحسين ثغر سواكن للانتفاع بها ، فوضعت مقترحات شتى تتعلق بالمدينة وثغرها ، وبحث بعض تلك الأمور المستر « كروسلند » في كتابه «حدائق الصحراء والمياه على ساحل البحر الاحمر» ، وتناولها ايضاً المستر ريشموند في مقال له سجل فيه مقترحاته لانشاء مدينة جديدة مع تحسين احوال المدينة القائمة المشتملة على الجزيرة والحيف ، وقدم مقترحاته عام ١٩٠٣ لبحثها وكان من أهمها انشاء حي للاوربيين عند نقطة « جراهام » ، وبناء رصيف بحري محاذ الجانب الجنوبي للميناء بالقرب من المكان الذي وقع عليه اختيار تشييد مدينة جديدة وبناء محطة نهائية للسكة الحديد ، واعادة تخطيط الجزيرة والحيف من جديد بأساليب حديثة ، وقد رؤي ان تقوم الحكومة بجميع هذه المشروعات بعد شراء الأراضي اللازمة لتنفيذ التعديلات الجديدة ، وقد اتفقت وجهات النظر في ذلك الوقت على ان المدينة بحالها لا تصلح مطلقاً لأعمالها في المستقبل

وفي عام ١٩٠٤ كتب الكولونيل « والستون كنيدي » مدير الأشغال الملكية بالسودان تقريراً عن التعديلات الضرورية لسواكن ، ولأول مرة نقرأ تقريراً تدور اهم نقطه حول فكرة جديدة ، وهي الانتفاع بموقع «مرسى برغوث» الكائن على مسافة أربعين ميلاً شمالي سواكن ولأول مرة نقرأ هذا الرأي وفيه القضاء نهائيًا على سواكن كثغر للسودان ، وقد ارفق المستر « كنيدي » بتقريره تخطيطاً للمدينة المقترحة ، وأشار الى وفرة المياه الغزيرة في خور أرباط القريب منها ، وكانت النتيجة أن لقي هذا التقرير موافقة عامة ، ورؤي في الحال التخلي عن التغييرات المقترحة لسواكن وبناء ثغر جديد في مرسى برغوث ، أما الثغر الجديد فلا يتم بناؤه الا بعد أعوام ، فماذا تصنع الحكومة ؟ تقوم سواكن بدورها النهائي الى ان تؤدي الميناء الجديد مهمتها المقبلة

***

استطاع لورد كرومر بما كان له من نفوذ توفير المال المطلوب لانشاء السكة الحديد بين عطبرة وسواكن ، وفي اكتوبر عام ١٩٠٥ قطع القطار لأول مرة المسافة بين المدينتين في ثلاثين ساعة ، وفي يناير من السنة التالية امتدت السكة الحديدية الى بور سودان ، وهو الاسم الذي أطلق على الثغر الجديد الذي كان العمل جارياً في انشائه ، وكان لورد كرومر قد رأى ان يطلق على المدينة اسم « بورت وجبت » ورأى « وجبت » ان يكون اسمها « بوركرومر » ولكن لم يسل بالرأيين وقرر ان يكون « بورسودان »

وأخيرا . . . . .

قامت سواكن بمهمتها كثغر للسودان مدة ليست قصيرة . انتقلت اليها المصارف وبيوتات الاعمال والتلغراف وشركات الملاحة والنقل — الخ ، وكان موظفو الحكومة وغيرهم من الأوربيين يسكنون البيوت القديمة في الجزيرة حيث أقيم ناد لهم وبعض ملاعب التنس وغيرها وكنيسة انكليزية

وفي عام ١٩٠٥ كسر سد المياه الذي خارج سواكن فتدفقت المياه من خلفه وطغت على الجيف وأغرقته ، فشيد مكانه سور جديد من السمنت المسلح لا يزال قائماً الى اليوم ، وبدأ الحجاج ينقلون منها في سنابك كبيرة ، وباختصار نمت تجارة سواكن نمواً كبيراً ، وكانت معظم واردات للسودان تصل اليه عن طريقها

وفي عام ١٩١٠ انتقلت وآسة المديرية الى بور سودان . وفي ذلك العام افتتحها الخديو عباس ولم يكن نقل التاجر قد تم عن طريق الميناء الجديد . وظلت سواكن تقوم بعملها الاقتصادي على أحسن ما يرام . وجاءت الحرب العظمى فلم تحقق ما كان مرجواً من بور سودان . واستمرت الأولى على تأدية دورها فأطيلت حياتها مدة أخرى . وفي عام ١٩٢٢ بدأت الاشغال الكبيرة تتجه ناحية بور سودان . وانتقلت فجأة منزلة سواكن الى زميلتها الجديدة بور سودان .

الدور النهائي

جاء دور السقوط النهائي لسواكن . فأصابها الاهمال والنسيان . وكلما اقتربت من قبرها سنة كبيرة . فاكفهر وجهها الخراب والشقاء . وبدأت تتحول عمائرها الشرقية الى آثار خربة او أكوام من الانقاض . وخصص مبلغ ١٥٠ جنيهاً في ميزانية الحكومة للاحتفاظ بمبانيها . وتقي « الجيف » ما لاقته الجزيرة من اهمال . وتحولت أسواقها العامرة الى أماكن خالية . وتحول سجنها الى مصنع وأصبح البنك الاهلي استراحة . وعطلت اعمال الكورنتينا فلا تؤدي الا أثناء موسم الحج

كان لسواكن المدينة السودانية حقاً طابعها الخاص التي امتازت به على جميع مدن السودان ، ولكن انتهت حياتها بعد ان ادت دورها ، واختلسته زميلتها المصرية عيذاب مدة الى ان جاءت بور سودان ، فاختلسته هي ايضاً ، ولن تقوم لها قائمة بعد اليوم ، فقد ادت رسالتها كثغر شرقي ، وسوف لا ينسى المؤرخ السوداني ماضيها المجيد ، ووقفتها وملاحمها ومن استشهد في بنائها من الابطال ، كذلك لا يغفل عنها رجل الاقتصاد ، وما كانت عليه من مقام فريد

# هنري دافيد ثورو

## كاتب الطبيعة والعزلة والتأمل

لمحمد عبد الغني حسن

في مارس سنة ١٨٤٥ حينما اقترض هنري دافيد ثورو فأساً من صديقه الثابه « الكوت » واخترق الثابة الى غدير « والدن » كان يمشي الى تحقيق أمل طالما صبت نفسه الى تحقيقه ...

وكانت ذكرياته الاولى ترجع دائماً الى هذه البقعة التي تبعد ميلاً عن القرية ، لانهُ يذكر وهو صغير ان جدته احتملته وطوفت به في تلك الثابة فوداً لو أتاحت له الايام ان تكون له مقاماً.

وكبر الصبي ، وساقه الشوق الى الثابة ، ودعاه الهوى الى الغدير فأخذ يتردد عليه صائداً او سابحاً في الصيف ، أو متزلقاً على الجليد في الشتاء . ولقد فتن جمال الغدير ، وهدوء الثابة وعزلتها قلب الكاتب فكان يختلف اليهما من حين الى حين . وما زال كذلك حتى حبب اليه المقام هناك فأقام.

في جامعة هارفرد التقى « ثورو » بشاب يدرس الأدب القديم ، وقد اختار له كوخاً على ضفاف غدير هادىء .. لعل عزلة المكان تشجعهُ على المضي في دراسته. فود « ثورو » لو أتيح له أن يجد مكاناً مثل ذلك المكان تطمئن اليه نفسه وفي ذلك كتبت اليه « مس مارجريت فلر » سنة ١٨٤١ ( اود أن تخبرني هل ما زلت على عادتك من التردد الى ذلك الكوخ المنفرد؟ لذلك تكتب إلي عن شاكسبير وهل كنت تقرؤه في ذلك الهدوء الجميل ). ليس هذا الكوخ المنفرد هو الذي قضى الكاتب فيه أيام عزلته . وانما هو اول كوخ اتخذه فراراً من القرية الهائجة استعداداً لكوخه الاخير في ( والدن )

ولد « ثورو » في كونكورد ( أميركا الشمالية ) سنة ١٨١٧ في بيت متواضع من أب اتخذ صناعة أقلام الرصاص حرفة له ، وأم مرحة طروب اسمها سنثيا . وبعد اتمام دراسته الثانوية دخل جامعة هارفرد فلم يكن فيها نابهاً ولا دائباً . وانما اكتفى بالحصول على درجتها الجامعية. ودخل ميدان الحياة جاسّاً للاقلام مرة ، ومعلماً مرة أخرى ، وصاحب جريدة أخيراً

وكان في صناعة التعليم زميلاً لشقيقه وحبيبه (جون) في إحدى مدارس كونكورد . وفي صيف سنة ١٨٣٩ بينما هو وأخوه قافلان وقتما برحلة نهرية اسفرت عن اول كتبه (أسبوع على نهري كونكورد وبيرمماك). لقد كانت صداقة ثورو الاولى بعد تركه الجامعة مع شاب نابه من قرينه

اسمهُ «رالف امرسون» فكان اوثق بينهما وثيقاً طويل الأمد . ولقد بلغ من وثوق الصلة بينهما ان عاش ثورو في بيت صاحبه ثلاث سنوات يساعده في تنسيق الحديقة ويدير معه شئون البيت

وكان ثورو يصنع الاقلام ويبني الاسوار ويمسح الارض . ولا يبالي العمل الحقير ما دام شريفاً . وظل كذلك حتى فاجأ جيرانهُ وأهل قريته — وهم عمليون لا يسبحون في سموات الخيال — بفراره الى الغابة للسكن في كوخ حقير . . .

لم يصطحب « ثورو » معهُ الى الغابة الا بدنه الصحيح وعقله الرجيح ونفسه الهادئة كأنما وطن العزم على ان يستمتع بها الى حدٍّ بعيد . . . وكانت فطارة شبابه وصحة بدنه واستواء تركيبه اكبر عون له على العيش في الغابات . فهو ابن ثمان وعشرين . قصير بدين . مليء نشاطاً وحياة — وصف شبابه الاول في آخر أيامه فقال ( لقد كانت حياتي متاعاً . في الشباب قبل ان تهد الايام أحاسيسي أستطيع ان أذكر أني كنت متقداً . . . ولقد كانت متاعب الشباب حلوة اليَّ كرغائبه ) . ويقول ( ليس البوغ الا توفر الحياة واكمال العافية ... حتى نستطيع ان نحس الجمال في كل شيء : — في هذه الحبَّات من التوت نطعمها . وفي خوار البقر كأنما يردد اصداءه الجبل الهادىء قبل المساء . . . حيث الندى المتأرج يعطر الهواء ... وهناك قوة لا تزول . وصفاء هادىء يخيل الى المرء معهما أن هذا الصباح المشرق دائم الى الابد . كل منظر أو صوت . وكل أريج أو طعم يبكر الانسان بخبر الصحة ... )

كان ( ثورو ) حاد الحواس لانهُ استعملها في الاحساس بجمال هذا العالم . ولقد قويت حاسة الشم فيه حتى أصبح يميز بين الازهار في ظلمة الليل البهيم برائحتها لا بشكلها . وكان يذوق الاشياء التي يرى الناس خطراً في تذوقها . . ولما ضعفت عينهُ من اختلاف السنين وتطاول العمر لم تضعف فيه قوة الابصار . وكان صديقه « امرسون » يدعوها « العين المجهرية »

اما الصوت فكان له تأثير عميق في نفسه . فهو يفرح اذا سمع نباح الكلب أو خوار البقر . أو مرور الريح على الشجر . وهو يطرب اذا سمع أسلاك البرق ترن رنيناً . أو أصغى الى الموج يطن طنيناً . أو صوت واحدة من خشاش الارض ... هذه الاصوات المختلفة كانت تجعله يقضي الليل قائماً مستمعاً او كما يقول هو عن نفسه « مغموراً في أمواج الصوت المتلاطمة »

وكان يقول ( أنا أحمد الله على الصوت . الصوت دائماً يصعد . ويجعلني دائماً في صعود ) ويقول ( لقد كانت حياتي بالامس متقطعة لا اتصال فيها ولا عمق في معناها ومنذ الساعة التي ارهفت فيها سمعي عادت اليَّ حريتي وانابني شعور روحاني )

ولا تنس حاسة اللمس فقد كانت قوية فيه وكان يقول ( بدني كله يستطيع ان يلمس ) . ولقد عوَّد يديه العمل . فكان نجاراً وبناء وفلاحاً ومساحاً وعاملاً في مصنع . وكان في ذلك

كله مجداً . كان يستطيع ان يصنع قارباً او يقيم سوراً او يبني بيتاً او يرفع مدخنة او يزرع حقلاً او يصنع قلماً . . وكان ذلك سبيله الى كسب عيشه واقامة صلبه . وخلق الميل الى العزلة في نفس «ثورو» ميلاً الى الانتفاع بالتجارب . وأتاحت له أيامه في «كونكورد» و«هارفرد» أن يوسع معارفه في الادب القديم وان يكتسب حبًّا لأبلغ ما أنتج الادب الانكليزي

ولم يكن مع ذلك كله متوقد الذكاء ولا مكبًّا على الدرس وانما هي طريقة هادئة اختارها ووصل بها الى ما يريد . وأضاف الى حبه للادب الانكليزي حبًّا آخر فأغرم بالكتب المقدسة ولاسيما كتب الهند ووجد لذة في مطالعة تاريخ أميركا وخطط مدنها وخاصة مدن «انكلترا الجديدة» واهتم بقراءة أخبار المستعمرين الاولين

وكيف يقاسي العزلة او يتحمل مرارة الوحدة من امتلأت خزائن قلبه بهذا التاريخ العظيم ؟

كان ثورو الطفل يجد سرور نفسه في الازهار والطيور والحيوان والاشجار والحيال والغدر ( جمع غدير ) والحقول فلما كبر تحول ذلك كله الى عاطفة شعرية لازمته طول حياته

اسمعه يقول ( أيتها الطبيعة الغالية ! كم أتذكر الآن — بعد لسان قصير — غابات السنوبر ! اني أتهالك عليها كما يتهالك الجائع على كسرة من الخبز )

وكأنما أحست هوام الارض وبنات الطير بعطفه عليها . . . ! فاطمأنت اليه . . لقد كانت الطير تحط على كتفيه . والسمك يجري الى راحته . والزواحف تلتف حول رجليه . والجرذ يدور حوله ويداعبه . وما اجمل رضاه بأن يعيش عيشاً ساذجاً بين هؤلاء الاصدقاء المتواضعين !

كان « ثورو » رحالة عظيماً لا يدانيه عظماء الرحالين . ولكن رحلته كما قلنا هو لم تتجاوز ارض قريته ( كونكورد ) فهو لم يركب بحراً . ولم ينشر قلاعاً . ولكنه مع ذلك عرف لذة المخاطرة . وذاق حلاوة الاستكشاف . انهُ استكشف كونكورد قريته الصغيرة ! انهُ استكشف نفسه ! انهُ ركب بحاراً بعيدة . بدى مجهولة الشاطىء عميقة الاغوار . ورجع الى الميناء محملاً بعجائب الكنوز . انهُ ذاق اللذة التي ذاقها خرستوفرس كولمبوس ورجاله حينما دفعتهم الامواج الغربية الى ارض نائية بعيدة . انهُ احس بما احس به المستكشفون الذين وقفوا صامتين على قمة في « داريان » ينظرون بعين العجب الى عظمة المحيط الهادي . .

لم يكن ثورو مخاطراً فحسب بل كان ثائراً . انهُ ثار على الكنيسة وأبى ان يدفع لها ضريبتها . انهُ ثار على الحكومة وأبى ان يدفع لها ضرائبها . . . انهُ ثار على المجتمع . . .

ولما سجنوه في ثورته زاره في السجن صديقه امرسون وقال له (لماذا أنت هنا ؟ ) فكان رده عليه (ولماذا أنت لست هنا ؟ ؟ ) . وكأنه يقول لصاحبه : في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا الظرف يجب ان يكون السجن للرجال . . .

والآن نصل الحديث عن قرية « كونكورد » التي ولد فيها ثورو . فكانت وحي أيامه الاولى . والمشهد الذي تفتحت على جماله عيناه الطفلتان . .

في حرب الملك فيليب لم يستطع الهنود ان يتغلبوا على هذه القرية مع أنهم أحرقوا جاراتها الصغيرة . وتقول خرافة تاريخية ان رئيس الهنود أطل على القرية من هضبة مجاورة ثم قال « ان نستطيع ان نغلب هذه القرية الثائرة . . أنها محبوبة الروح العظيم »

ولا تمتاز هذه القرية بمعدن او منجم . . حتى جليدها الابيض لم يسلم من الحمى الأخير في طياته . وانما تمتاز بغاباتها وحشائشها وهدوئها السائد . وفي ظل هذا الهدوء نشأ أمرسون وثورو . ولقد كان أمرسون صديق كاتبنا وأستاذه ورفيقه في الغابة يرتاح الى هذا الهدوء الذي لا يقصه الا خرير الماء ، وخوار البقر ، وثغاء الشاة ، وتمتمة النسيم . وكان يقول ( ان هذه الاشجار الجاثمة تحت ظل هذه الاشجار تبدو لي كأنها سابحة في بحار من الافكار العظيمة الهادئة )

وفي هذه القرية أيضاً يقول مستر بروكس مؤرخ الادب الاميركي ( كانت هذه القرية مدرسة لدراسة الطبيعة البشرية . يستطيع المرء ان يتعلم فيها شتى أنواع المهن بالتحدث الى صاحبها او بدراستها . وقد تجمع فيها تاريخ البشرية وتكرر حتى لترى العالم في أحد أركانها المتواضعة . نعم العالم بماضيه ومستقبله ) . نشأ الصديقان كزهرتين نابتين في حوض واحد... وكانت احدى الزهرتين اكبر من اختها وأشد صبغاً . وكانت الثانية أشذ رائحة . وكان ما بينهما من المسافة يأذن للنسيم بالمرور على كل واحدة في طلاقة وحرية

كان ثورو مثل أمرسون يخرج الى الغابة كل يوم ومعهُ اوراقهُ يدوّن فيها مشاهده ومرائيه . ومعهُ «عينه المجهرية» يشاهد بها ألواناً شتى من حشرات الارض وهوامها. ولم يكن ينظر الى الطبيعة فحسب . بل كان ينظر فيها ويرى خلالها ويدرك ما وراءها

انهُ كان يحب الوادي وهو مغمور في بحار الضباب الكثيف حيث تبدو فيه الاشجار كأنها السفن في عُرض المحيط . وما أحب المطر الى نفسه ، يتساقط كالسيل الذهبي وهو واقف تحت شجرة ينظر الى اوراقها المتأثرة تحت قدميه ، او يفحص لحاءها المتقشر

وكانت غدران (والدن) كما يصفها هو بقلمه « بلوراً على سطح الأرض . ولو قدّر لها ان تتجمد وتصفل فجأة — كالأحجار الكريمة — الى الابد لظلت تزين رؤوسهم . ولكن سيولها وكثرتها جعلاتها قليلة القيمة »

هذا هو هنري دافيد ثورو الأميركي ، هدتني اليه ايفلين ميلر Evelyn Miller الكاتبة الأميركية يوم ان التقينا على نهري الشير والنوار بفرنسا سنة ١٩٣٤ . فسمعت في صوتها صوت الطبيعة الجهير . . .

آرو عطشك بماء فيه ملح قليل

# العطش والماء

## في الصحة والمرض

للدكتور عبره رزق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة في الفاو ( العراق )

الشعور بالعطش حالة فسيولوجية تامة يمكن تحديدها بحاجة الانسان — والحيوانات كافة — الى تعويض خسائر الجسم الدائمة من سائل الدم الذي يُفرز عرقاً وبولاً او مفرزات اخرى مختلفة

والعطش يكون على نوعين : الأول منهما يظهر في اثناء تناول الطعام كنتيجة محتملة لضرورة تحليل الأطعمة الجامدة ، والآخر بين وجبات الطعام . وهو يتفاوت بحسب حالة الانسان الصحية ويكون بوجه عام على أشده في الامراض الحمّوية الحادة ، ولا سيما داء السكر والهيضة (الكوليرا) حيث يصعب التغلب عليه . أما في الحالات السوية فيكون مرتبطاً بما يخسره الجسم من العرق والبول والبراز والتنفس وغيره . وهذه المفرزات تقدر بنحو ٣٠٠٠ غرام من الماء يومياً وذلك حسبما يلي : ٣٣٠ غراماً بالتنفس و٦٦٠ غراماً بالعرق و١٧٠٠ غرام بالبول و١٣٠ غراماً بالبراز . ولما كانت انسجة الجسم تحتوي على سبعة اعشار من الماء كان لابد اذ ذاك من تعويض تلك المفرزات بادخال مقدار مساو لها من الماء ، في جسم الانسان. ويتم هذا في الدرجة الأولى بما نتناوله من مختلف الاطعمة التي تحتوي على مقدار وافر منهُ. فالحنطة مثلاً تحتوي على ١٣٠ غراماً بالألف من الماء ، والجبن ٣٧٠ ، ولحم الثور ٧٣٤ ، والأسماك ٧٨٥ ، والتوت الأفرنجي ( Banana ) ٨٧٤ ، والسلاطة ٩٤٠ . وقس على ذلك سائر الأطعمة ، مما يغني احياناً بعض الاشخاص عن شرب الماء أو بالأحرى يكفيهم الاقلال منهُ ، وعلى الضد من ذلك اذا امسكنا عن تناول الطعام فتركيب خلايا جسمنا يجعل تلبية الاحساس بالظمأ لامندوحة عنها ، وهذا الاحساس يكون غالباً أشد تأثيراً من الجوع

ويجب ألاّ يغرب عن ذهننا ان الافراط في استعمال التوابل والملح والبصل واللحوم المحموسة والاطعمة المقلوة من شأنه ان يزيد وطأة العطش . وكذلك التدخين الذي يسبب

جفافاً في الفم ، ومثله الماء الآسن . وعلى كل يجب الامتناع عن شرب مقادير وافرة من الماء ، وعلى الخصوص الماء المثلوج عند الذي يضع عرقه تجنباً لحدوث احتقان رئوي او دماغي غالباً ما يكون وخيم العاقبة

وعند ما يتعذر تقع غلة الظمأ فالاحساس به يتحول الى ألم حقيقي . وقد يعتري الفمَ واللهوةَ الجفافُ فالالتهابُ فالتقرحة ، وفي بعض الحالات يبدو الشخص فريسة للهيج والهذيان وينتهي الأمر أخيراً بالموت الذي لا مفر منهُ كما يحدث احياناً لبعض المسافرين في الفلوات والصحاري القاحلة ، أو في البحار عند ما ينفد ماؤهم

اما مركز العطش فيظهر أنهُ خلف البلعوم ويؤيد ذلك تسكين غلة الظمأ بوضع قطعة من النسيج مبتلة بالماء على مقدمة النق ، أو بالاستحمام أو بالحقن الوريدية من الماء المعقم

وعلى كل حال مهما تكن أسباب العطش الجوهرية فيجب ان نشرب لنعيش وهنا نجد انفسنا بين أمرين متناقضين : فاما الشرب بافراط ( Dipsomanie ) كما يفعل بعضهم ، وإما الامتناع عنهُ (Adipsie) كما نشاهد ذلك احياناً في بعض الاحوال عند كثير من الناس

وفي وسعنا من الوجهة الطبية ان نعتبر الافراط في شرب الماء مرضاً حقيقيًّا ذا علاقة وثيقة بوجه عام بما يسمونهُ « الهذيان الكحولي المرتعش » ( Delirium tremens ) او بأحد أشكاله المعروفة . والمصاب بهذه الحالة يكون معرّضاً غالباً لأشد الآلام لعجزه عن ارواء عطشه فاذا ما حاول التغلب على هذا العطش اتجهت أفكارهُ الى تعاطي الخمر والمشروبات الكحولية الاخرى ، ويبدو اخيراً فريسة للهيجان ونوبات الجنون المطبق

أمَّا الامساك عن شرب الماء فيشاهد في بعض الاشخاص الذين اعتادوا ان يكتفوا بقليل جداً منهُ او عدم تناوله بتاتاً في اثناء تناول الطعام . فأي الحالتين نراها اشد ملاءمة من الناحية الصحية : الافراط في شرب الماء أم الاقلال منهُ ؟ من الراجح ان يستطيع كثير من الناس بالتروض الخاص اعتياد الامتناع عن تناول السوائل في اثناء الأكل . وكذلك تصبح هذه العادة غريزة تتعذر ازالتها ، والعادة كما يقول المثل طبيعة ثانية . ومع ذلك فالتقليد والعرف والعادات غالباً ما تغري الناس وتحملهم على الشرب في اثناء تناول الطعام ولاسيما اذا كانت المائدة مجهزة ببعض المآكل الشهية اللذيذة والمشروبات الفاخرة . اذ لا يمكن ان ينتهي الانسان من تناول طعامه ثم يجرع بعده مقداراً وافراً دفعة واحدة مما يريدهُ من المشروبات التي امامه

اما من ناحية الحيوانات كالجياد والثيران مثلاً فتجد انفسها مرتاحة مثلاً الى اتباع قاعدة معينة في طعامها وشرابها عندما تكون في الاصطبل . فنراها تأكل اولاً ثم تشرب بعد ذلك . لكنها تخالف هذه القاعدة عند ما تكون في المراعي والحقول وذلك ان طعامها الجامد يتخللهُ

بين حين وآخر جرعات صغيرة من الماء. كذلك يفعل الكلب عندما يضعون امامه وعاء من الحساء مثلاً فانهُ يقطع طعامه هذا من الحساء ليلحق الماء بين فترة وأخرى

***

قلنا فيما تقدم ان الافراط في شرب الماء يُعدُّ مرضاً حقيقيًّا وانَّا عواقبهُ الوخيمة. والواقع ان المسابين او شاربي الماء الذين غالباً ما يشكون آلاماً واضطراباً في المعدة لا تتحسن حالتهم قطعاً بهذه الطريقة بل على عكس ذلك تزداد سوءاً في بعض الاحيان. فهم يشربون كثيراً ظنًّا منهم ان شرب الماء القراح هو أشدُّ ملاءمة لهم من الناحية الصحية وأقل المشروبات خطراً، وبذلك لا مانع يمنع، بحسب زعمهم، تناول مقدار وافر من الماء عند ما يشعر احدهم بالظمإ

وقد طلع علينا أحد أطباء الألمان في السنوات الأخيرة، يدعى الدكتور ستاركنستين Starkenstein بنظرية جديدة استوقفت انظار بعض الباحثين، وهو ان الماء التي الطبيعي الذي يعتقد الناس انهُ السائل الوحيد الذي ينقع غلة العطش هو، بحسب زعمه، اقل السوائل تأثيراً في تسكين هذا العطش. واليك البيان:

لهدئة العطش يقتضي تعويض ما يخسرهُ الجسم من الماء بسبب العرق وأبخرة التنفس والبول وغيرها. وعند ما يتم هذا التعويض بمساعدة المراكز الدماغية اولاً تم بالشعور المؤلم الناتج عن جفاف الفم والبلعوم، يتم حينئذٍ التوازن المنشود بين الداخل الى الجسم من الماء والخارج منهُ وبزول ذلك الاحساس المؤلم. لكن عندما تزداد خسارة الجسم من الماء في إبان الهبط مثلاً حيث يغدو التنفس سريعاً والحاجة الى تعويض الماء المفقود تكثر فجأة، فتضطر طبعاً الى المزيد من الشرب فاذا كان هذا الشرب من الماء كان عملنا على ما يظهر خطأً فسيولوجيًّا فاضحاً لان الماء التي الذي نشربهُ يفرز سريعاً بالعرق والبول وغيره لتنشيط غدد هذين الافرازين، وفي هذه الحالة لا تلبث الحاجة الى الشرب ان تتجدَّد سريعاً فكلما كثر الشرب كثر الافراز. ولكي يبقى الماء المتناول في الجسم ويعوض النقص الحاصل بصورة ثابتة يجب أن تكون نسبة الاملاح المعدنية المذابة فيهِ مساوية للنسبة الموجود منها في مصل الدم نفسهِ وفي سوائل الجسم الاخرى أيضاً (٨ بالألف تقريباً). أما اذا كانت أملاح الماء الذي نشربه أقل من ٨ بالألف فتهبط حينئذٍ نسبة الاملاح في مصل الدم وهذا ما يدعو الى تهيج غدد العرق والكلى فيعرق الانسان ويبول كثيراً. وكذلك يختل التوازن وتتجدد العملية نفسها من جهة افرازات الجسم الزائدة من الماء ويحدث العطش سريعاً من جديد

واختبارات الدكتور ستاركنستين هذه قد أيدت كلَّ التأييد هذه النظرية الصائبة او بالأحرى هذه القاعدة التي يصح الاعتماد عليها. لان السائل الذي يدخل الجسم لا يمكن ان يغدو فعلاً

سائلاً ثابتاً فيه ، وبقدر ما يكون الماء نقيًّا ، خالياً من الاملاح وقريباً من الماء المقطر يكون بقاؤه في الجسم قصيراً

أما الماء المحلى بالسكر وهو يتضمن الشاي والقهوة ومنقوع الحشائش والبذور فلا فائدة منهُ أيضاً من هذه الناحية لانهُ يستنفد سريعاً بواسطة أنسجة الجسم ويعود ماء نقيًّا . كذلك اللبن الحليب لاحتوائهِ على سكر اللبن وهو مدرٌّ للبول . والشاي والقهوة هما أيضاً مدران للبول لاحتوائهما على مادة الكافيين ، ومثلهما كثير من النباتات المنقوعة والمثلية المتصفة بذات الخواص المدرة للبول لاحتوائها على نيترات البوتاس

ويدخل في هذه القائمة أيضاً حمض الكربون الذي يهيج افرازات البول . ولهذا يقتضي في حالة ارواء الظمإ بدل جميع المشروبات الغازية كالجعة ، وعصير التفاح ( Cidre ) والاجاص والشمبانيا والليموناده الغازية الخ . وأردأ المشروبات التي تقدم ذكرها هي الشاي والقهوة وعرق السوس لانها تهيج معاً افرازات البول والعرق

ونخلص من ذلك كله الى أن أفضل ماء يهدىء العطش هو شراب نسبة الملح فيه تقرب من تركيب الفصل الصناعي اي الذي يحتوي على ٨— غرامات من كلور الصوديوم في الليتر الواحد اما الاملاح النتروية في المياه المعدنية ، والنيترات والبيكاربونات والليموناده الطبيعية فلا تفيد من هذه الناحية لانها أيضاً ذات خواص مدرة للبول ، على الضد من كلورور الصوديوم الذي يفضل عليها جميعاً لانهُ يُحفظ في أنسجة الجسم

***

وربَّ سائل يسأل : كيف يمكننا أن نصبح بشرب الماء المالح ارواء العطش ؟ الجواب عن ذلك لاون وهلة كلا . لكن الواقع إن الماء المالح (بنسبة ٨ بالالف) لا يكاد يشعر شاربهُ بطعمه . ويكفي أن نضيف أيضاً هذا القدر من الملح الى المشروبات الاخرى التي أتينا على ذكرها كي يزول او يتبدل ذلك الطعم المالح وتبقى فائدة هذه المشروبات كما هي . وعلى كلٍّ ينبغي ألاَّ تتعدى نسبة الملح ٨ بالالف خوفاً من عودة الشعور بالعطش الى ما كانت عليه قبلاً .

فهذه البحوث التي أجراها الدكتور ريشار كستين بغية التوصل الى أفضل سائل يمكن اتخاذهُ نموذجاً لعمال المعادن ، والذين يشتغلون بالزجاج ، والفعلة والحصادين الخ — أولئك الذين تضيق العطش عندهم أمرٌ مؤلم أو مضنك معاً بسبب العرق الزائد الذي يتصبب من أجسامهم والذي يضعف قواهم العصبية ويفقدهم اتاحهم في الوقت نفسه — يمكنها أن تسدي أفضل الخدمات ، فتزيل عنهم تلك الموانع والاضرار وتحسن حالتهم وتكثر انتاجهم وذلك باضافة ملعقة صغيرة من الملح ( قدر ملعقة قهوة ) الى شرابهم اليومي

# سير الزمان

## مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية

١ — فترة التفاؤل والتقدم

٢ — ثورة المرصرار

٣ — النظام النازي وأساسه

٤ — مقدمات ونتائج

ا — معاهدة فرساي

ب — حبوط العقوبات

ج — الروح الدمقراطي

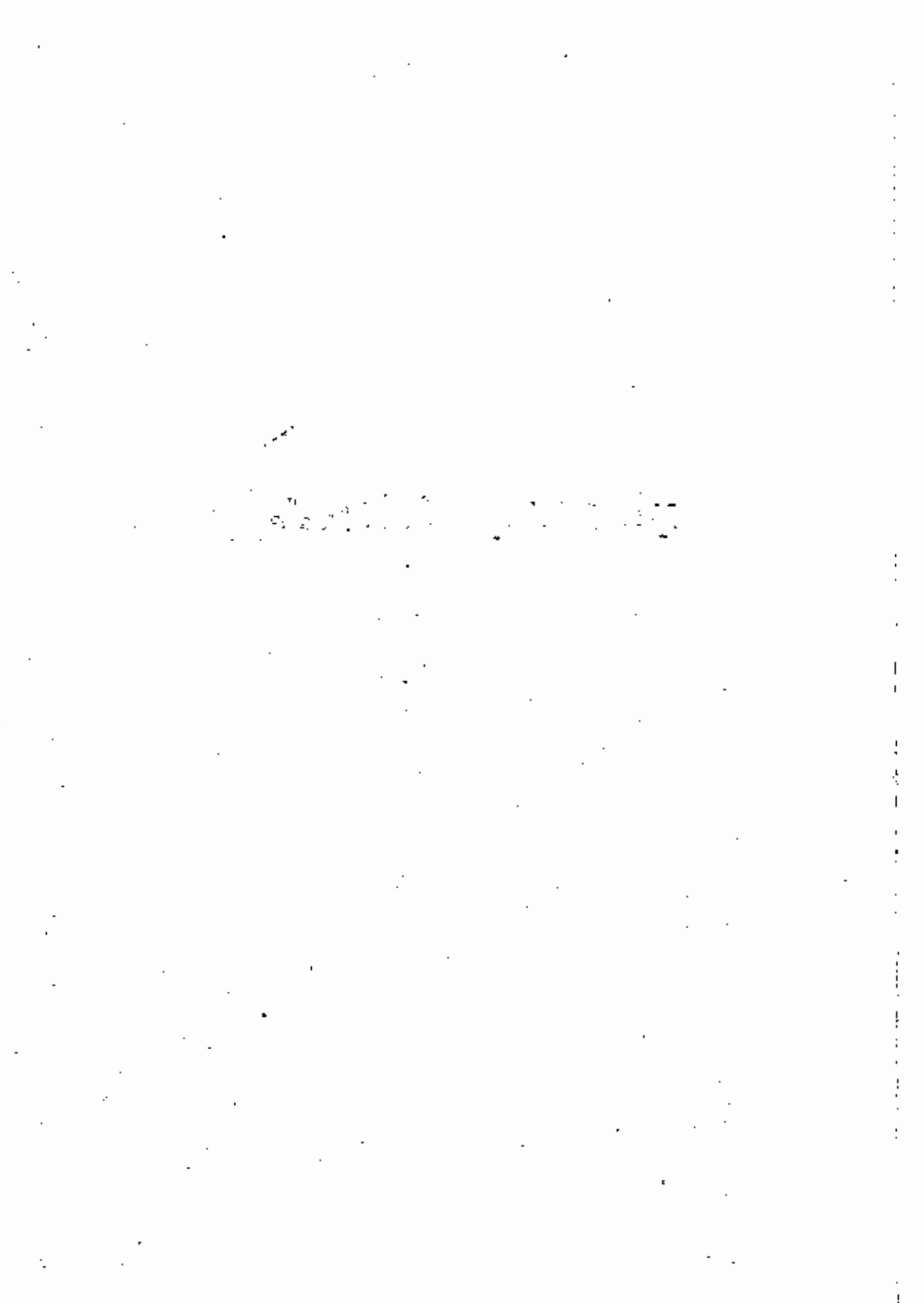

# مقدمة لتاريخ الحرب

## العالمية الثانية

### ١ — فترة التأمل والتفرس

يتصف ربع القرن المنقضي بين سنة ١٩١٤ و١٩٣٩ بصفة المأساة في أدب اليونان الاقدمين. فقد شُيِّد فوق أنقاض الحرب العالمية الماضية قصر تسمره آمال جديدة معقدها توطيد السلام الدائم وترسيخ الاصول الديمقراطية ونشر العدل الاجتماعي. وجاءت فترة من الزمان لاح فيها ان بعض الأمم سائر الى تحقيق هذه الآمال. ولكنها آمال انهارت معثرة بالتراب عند ما نشبت الحرب العالمية الثانية، وهي حرب لا يعلم احد مداها ولا عواقبها.

وعلى الرغم مما بدا في معاهدة فرساي من مواطن الضعف، فليس ثمة ريب في ان واضعيها حاولوا ان يجعلوها اساساً لنظام دولي جديد. وقد شهد العالم في السنين الخمس عشرة التي انقضت على وضعها مساعي صادقة بذلت لانشاء منشآت دولية تقرب التعارف وتمنع الحرب في المستقبل. فجامعة الأمم، ومكتب العمل الدولي ومحكمة العدل الدولية أنشئت جميعاً في هذه الفترة. وجاءت ايام عقدوفيها ممثلو العالم — اذا استثنينا الولايات المتحدة الاميركية وروسيا في العهد الاول — اجتماعات دورية في جنيف، وبدا لمتفائلي شؤون العالم، لمحة من الزمان، ان الجامعة قد أنشأت مجتمعاً دولياً حقاً، وفازت هيئة في منع العالم من الانقسام معسكرين متعاديين. ومع ان الولايات المتحدة الاميركية تنكرت للرئيس ولسن إلا انها حاولت ان تسدي ما تستطيعه من ناحيتها في مؤتمر وشنطن (١٩٢١) ثم في ميثاق باريس (١٩٢٨). وكان هناك فريق من الناس يرى انه من الخطر استئصال البغضاء القومية من النفوس والقضاء على الحرب، فاخطروا امام ما تم ان يخلوا الطريق للمتفائلين بان في الوسع تحريم الحرب. وليس هناك شك في ان العالم أخذ بفكرة مناوءة الحرب وتحريمها، إذ شعرت جميع الشعوب بسخطها ومقتها للمجازر المنظمة وأعمال التدمير الواسعة النطاق حتى في ايطاليا الفاشية والمانيا النازية، لم يصعد الحاكمون بامرهم على اكتاف الناس الى مقاعد الحكام الا لانهم احرزوا انتصارات قومية لم يريقوا فيها دماً ولم يزجُّوا في سبيلها بأممهم في نيران الحروب. ومن المحتمل ان العالم لم يشهد في فترة سابقة من تاريخه نزعة السلام وهي أنبى وأعزُّ مما كانت في خلال العشرين السنة الماضية. فالناس اقلُّ تحمساً للحرب العالمية الثانية منهم لأية حرب سابقة.

وقد صحب السعيَ الى منع الحرب وتحريمها ارتقاء عظيم شمل اوربا والولايات المتحدة الاميركية في نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فرمم الناس ما دمّر وخرّب في الحرب الماضية ووسعوا نطاق الانتاج ومدوا في اسباب المواصلات والمخاطبات بالاذاعة اللاسلكية والتلفون اللاسلكي البعيد المدى والطائرات حتى انكمشت اقطار الارض ومضوا في ترقية العلوم والفنون الصناعية وردّ حدود المجهول حتى غدا بعض الفلاسفة يتنبأون بأن الآلات سوف تقضي على الضجر الناشىء من العمل باليد

في خلال هذه الفترة زاد دخل العمال والطبقات المتوسطة في بعض البلدان. وأمست الجماهير تتمتع فعلاً بمستوى من المعيشة كان أمنية ترنو اليها انظار اجدادهم. وجنى العمال في المدن منعة خاصة من الصور المتحركة والاذاعة اللاسلكية والسيارة. ومع ان الفلاحين لم يشاركوا عمال المدن في كثير من هذه المتع الا ان حظهم تحسّن كثيراً بما اقرته الحكومات من برامج الاصلاح الزراعي وحماية الزراع. ولو تبع ان ما بدا من عناية بعض الحكومات بالفلاح — ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد الدولي — كان من الميزات التي اتصفت بها هذه الفترة من تاريخ العالم الحديث

وجاءت الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٢٩ وتلاها استفحال امر الحاكمين بأمرهم فصدّم المفاتلون بمستقبل البشر في السنوات التي تلت عقد الصلح اشد صدمة في آمالهم وأحلامهم. تخيم على العالم جو تملؤه المخاوف لاخفاق الدول الديمقراطية في حل مشكلة العطل عن العمل وحبوط مسعاها للاتفاق مع الدول الدكتاتورية. ومع ذلك ظل ملايين من الناس مقتنعين بأن هذه المشكلات لا يحتمل ان تفضي الى حرب تشمل اوربا بلادها وزرايها حتى كان اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ اذاعان المستر تشمبرلن «قيام حالة حرب». قال في مجلس النواب «كل ما عملت في سبيله وبنيت عليه رجائي وآمنت به في أثناء اشتغالي بالشؤون العامة قد انهار انقاضاً»

***

اما اليوم فاننا نرى الآمال التي كانت تعمر صدور الناس في خلال العقدين الماضيين مضطربة مشوشة. لم يبقَ من جامعة الامم الا قصرها الفخم على ساحل بحيرة ليمان وكأنه مقبرة آمال عظام. وميثاق تحريم الحرب الذي حرك أنبل الشعور في بعض الامم ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية وأثار فيها حماسة تكاد تكون دينية، لا يعدو كونه اضحوكة. اما السير في سبيل الارتقاء الاجتماعي فلا بد من الانحراف عنهُ في الدول المحاربة، واحد منهُ في الدول المحايدة. ومع ان دولاً كثيرة لا تزال متمسكة بحيادها فلا بدَّ من القول أن خطر انتشار الحرب في

جميع انحاء العالم ابداً جاثم على الصدور كالكابوس . ومعظم البراعة الفنية والصناعية في كثير من الامم متجهة الآن الى كشف اساليب جديدة للتدمير . وعلى كل دولة محاربة ان تتوقع خسائر كبيرة في الارواح وارهاباً لجمهور الشعب الآمن وانخفاضاً في مستوى المعيشة . وجاء روح من الزمن ذهب الظن فيه الى ان اتصال الشعوب بعضها ببعض قد ينشىء روحاً عالميًّا جديداً ولكن ذلك قد اخذ يخلي الطريق لاستحكام الحقد والبغضاء لمغذيها وثيرها الدعاية المغرضة

وقد يكون من التعميم الذي لا سوّغ له ان نقول ان الحرب العالمية الثانية ستدمر الحضارة . ولكن لا ريب في أن شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ كان مسهلٌ عهدٍ جديد في التاريخ، صفتهُ البارزة تفاقم البؤس الانساني ، واستفحال التحوّل الاجتماعي استفحالاً لا يعلم أحداً الى أين ينتهي

فكيف نفسّر هذا اللغز الغريب ؟ ان الانسان الذي كاد أن يحقق في ربع القرن الماضي أعلى آماله ارتجّ الآن في نضال مدمّر لا يقبل عليه افراد اي فرع من فروع مملكة الحيوان. وكيف نفهم سرّ هذا المخلوق الذي يرتفع في بعض أدوار التاريخ حتى يقف عند أقدام الآلهة ثم نراهُ وقد انساق الى كارثة يعرف لها أول ولا يعرف لها آخر ؟

## ٢ — ثورة العبيد

كان التقدم الذي تمّ في العقد الثالث من هذا القرن أقرب الى الوهم منهُ الى الحقيقة لانهُ كان محصوراً في طائفة يسيرة من الأمم. فالتضخم المالي الذي اكتسح في المانيا ودول اوربا الوسطى الناشىء عن الحرب الماضية وعواقبها، محا الطبقة المتوسطة من سفر الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وقامت في طائفة من البلدان مشكلة مزمنة أساسها التعطل عن العمل وانتشار الفاقة ، وكان الناس يصيحون طالبين الحرية ، فلما لم يجدوا فيها ما يشبع حاجاتهم المادية الملحة طلبوا السلامة وضمان الحياة . وليس ثمة ريب في أن احد البواعث الاساسية على ما في العالم من اضطراب انما هو سعي الجماهير الى ضمان حياتهم ورفعتهم في مستوى أعلى من العيش

وقد كانت الاول الديمقراطية في غرب أوربا والولايات المتحدة الاميركية قادرة على ملكهُ من موارد على مواجهة هذه المشكلة الاجتماعية من دون ان تقضي على نظام الملك الخاص ومبدإ الحرية . ولكن البلدان الأخرى التي لم تملك من الموارد ما يمكنها من تلبية طلب الجمهور للسلامة والحرية ، سرعان ما وجهت ضد نظام الحياة القائمة فاتجهت نحو الدكتاتورية . ففي روسيا السوفيتية والمانيا النازية وايطاليا الفاشية فاز الناس بأعم ما يزاولونها . قد يكونون واهمين في اعتقادهم أنهم أحرزوا السلامة التي يطلبونها، ولكن جذور النظم الاجتماعية القديمة كادت تقتلع من الأعوار في خلال هذا التحول الذي طرأ عليها هذا سخر الناس من مبادىء الحرية التي تسود غرب

اوربا ، فانقلب الفرد جزءاً من آلة ، فاذا لم يلائم بين نفسه وبين حالته الجديدة ، وظل مصراً على انهُ فرد له رأيٌ خاص نالهُ الارهاب ، فما ان يقبل الحالة الجديدة ، أما ان يزول

كانت الحكومات الدمقراطية والحكومات الدكتاتورية في الماضي تستطيع ان تعيش جنباً الى جنب ، ولكن الدول الدكتاتورية غدت دولاً تضرب بعمول الثورة صرح الحضارة القائمة وأساسها عداء مستحكم للدمقراطية والرأسمالية . فالحزب الشيوعي المعروف بالدولي الثالث اشجع الاحزاب الشيوعية في كل دولة ، واذا طبق هذا الحزب مبادئهُ فلا ريب في انهُ سيمحو الطبقتين العليا والمتوسطة في شرق بولندة ويقضي على الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية فيه . وتأثير الدكتاتوريتين النازية والفاشية ليس بأضيق مدى من تأثير الشيوعية ، فايطاليا والمانيا أمدتا الجنرال فرانكو بالعون ليقيم في اسبانيا نظاماً من الحكم والاجتماع على نمط نظامهما . والحزب النازي يطالب حكومتهُ بفرض نظام الحزب الواحد المعادي لليهود على بوهيميا وموراڤيا . وما كادت تشبُّ هذه الحرب حتى اغتال الحرس الحديدي المسيو كالينسكو رئيس وزارة رومانيا ( ٢١ سبتمبر ١٩٣٩ ) والحرس جمعية رومانية سرية تأخذ بمبادىء النازية ويقال أنها تتلقى المدد المالي من المانيا . فالدول الدكتاتورية لا تثير حرباً عدوانية فقط بل وتسعى الى اصدار مبادىء ثورة جديدة من بلادها الى بلدان أخرى

واذا كانت ايطاليا متأثرة بفكرة احياء المجد الروماني القديم ، فان روسيا والمانيا تسعيان الى الفوز بتأييد الجماهير المتبرمة الساخطة في جميع البلدان فتطلب اليهم ان يقدموا على مذبح العقيدة النازية او الشيوعية قربان ولائهم القديم

شهدت أوربا الغربية ثورتين عظيمتين في الماضي ، ثورة البيوريتان سنة ١٦٤٢ والثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، ليس من ريب في ان كرومويل في الاولى وروبسبير في الثانية تطرقا في بعض ما فعلا ، ان الثورتين اعقبتا آلاماً وبؤساً كثيراً . ولكن عند ما انهار النظام الذي اقامتهُ كلٌّ من الثورتين ترك وراءه أثراً من المبادىء التي تبنَّتها الثورتان في سبيلها . اما الآن فمن المتعذر على الباحث ان يقتنع بان النظم الدكتاتورية القائمة الآن ستترك وراءها أثراً نافعاً . وذلك لأنها لا تقوم على مبدأ أدبي ، وتضحي بالشخصية في سبيل الكتلة المشتركة . وهي تهدم الفوارق بين الطبقات لتقيم فوارق جديدة لا تجعل الطبقات الجديدة اقدر على حمل عبء الارتقاء الاجتماعي السليم المتزن من الطبقات القديمة . ثم انها تحكم بتحريك الشعور واثارة الغريزة لا بالاستناد الى القانون ولا القاضي . قد ينجح كل هذا ان تعلم الدول الدمقراطية الحق الصحيح للمشكلة الاجتماعية ، ولكن الثمن الذي تدفعهُ في سبيل العلم كبيرٌ وقد يكون مرهقاً

اما السبب الآخر من اسباب هذه الحرب ، فهو انبعاث الخصومات القومية القديمة . فقد

انقضت عصور كانت فيها السيطرة لبضع دول كبيرة ، لكل منها سيادة لا تكاد تحد ، وكل منها تسعى الى ضمان مصالحها وتوسيع نطاقها ولو كان ذلك على حساب الدول الاخرى. والباحث في تاريخ العصور الماضية يلحظ فيه دورة ، ينتقل فيها لواء السيطرة من دولة كبيرة الى اخرى. كانت اسبانيا وهولندة والسويد والنمسا وبولندة دول اوربا الكبرى قبل الثورة الفرنسية في ازمان متفاوتة. أما الدول الثلاث الاولى فقد ضعف شأنها الآن واما الدولتان الاخيرتان فقد زالتا الى حين . فما خبت نار الثورة الفرنسية حتى كانت السيطرة قد انتقلت الى بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وها هي ذي المانيا تنازعهما السيادة وتؤيدها في ذلك روسيا السوفياتية واليابان وايطاليا

ولا ريب في ان بريطانيا وفرنسا تضيان بمصالحهما ، ولكنهما كذلك بلدا الرأسمالية والديمقراطية والحرية. حالة ان المانيا النازية تمثل نزعة التوسع الدكتاتوري . وهناك فريق من الالمان يعتقدون ان يوم بريطانيا جاء عليه الدهر ، وان منشآتها عتيقة وجامدة لا تصلح لمواجهة الاحوال الجديدة وان نفوذها العالمي لا بد منتقل الى المانيا. فاذا صحت هذه الآراء (وقد سبقها نبوءات من قبيل في سنة ١٧٨٣ عندما خسرت بريطانيا مستعمراتها الاميركية وفي سنة ١٩١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الماضية ولكنها لم تصح ) فمبادىء الحكم الديمقراطي التي عززتها بريطانيا وفرنسا ونشرتها في القرن الماضي لا بد ان تنهار وتحل محلها مبادىء النازي وهي ما زالت قائمة على قاعدة الزعامة والخضوع لها. والمانيا النازية ماضية في سياسة منسمة بسمة النزعة القومية المتطرفة . وقد وصف هتلر المسألة التي يدور عليها النضال عندما قال للسفير البريطاني يوم ٢٤ اغسطس ان انكلترا تحارب في سبيل «العناصر الصغيرة» وأما هو فيحارب في سبيل المانيا

وما يضطرم في صدر المانيا النازية وروسيا السوفيتية من البغضاء لبريطانيا لا يرتد الى الحسد من امبراطوريتها المتسعة وثروتها العظيمة فقط بل والى نظامها الاجتماعي فانها هي الدولة الوحيدة في العالم التي تحكمها طبقة من المحافظين تستطيع ان تفوز بتأييد عامة الشعب . وقد تمكنت هذه الطبقة الحاكمة من الفوز بذلك بترسيخها في طبقات الشعب فكرة الوحدة القومية المقترنة بالديمقراطية الحربية . ومن المحتمل ان هذه الحرية كانت في بعض العهود وهما يتشاء الرياء ، مع ذلك كتب بجانة المانية يدعى الأستاذ دبيلوس [illegible] ما تقلد هتلر ازمة الحكم في المانيا ما يلي : «لقد كانت انكلترا هي البلد الوحيد في العالم الذي عجد من رعاية مصالحه من ناحية وقدرته على تنبيه شيء قليل للدول الاخرى . هي البلد الوحيد في العالم الذي لا تمثل فيه الوطنية تهديداً للسلم العالمي ولذلك تأخذ حولها جميع العناصر نزعة الى الكمال الرائعة

في التقدم في سائر لامم لتعاون معها » فنجاح انكلترا في الماضي يجعلها هدفاً للدول الدكتاتورية

فالحرب العالمية الثانية الماشية الآن ليست مجرد قضاء امبراطوري على المواد الخام . انما هي ثورة شبت لتراها دون « الجماهير » بغية توزيع الثروة توزيعاً جديداً . فهي في الداخل تقلب الأوضاع الاجتماعية ؛ وفي الخارج تسعى الى هدم منزلة الدول الغربية المتفوقة . فالمسألة التي يدور النزاع من حولها ليست مكانة الطبقات الحاكمة في بريطانيا ولكن النظم الاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة على مبدإ الحرية التي تؤيدها هذه الدول الغربية . وعلى ما بين الدول الدكتاتورية من فروق فهناك وجه شبه أساسي بينها جميعاً وهو الاعتبارات القومية التي تسترشد بها وليس هناك ريب في انهُ اذا فازت المانيا أو روسيا أو الاثنتان مشتركتين في هذا الحرب فان المبادىء التي تقوم عليها الحضارة الغربية ستتراجع ان لم تصب بالانهيار

## ٣ — النظام النازي وأساسه

فيقف النظام النازي في المانيا — وهو أعظم الأنظمة الدكتاتورية مكانة وسطوة — كما يظن من ساعدة فرساي والأزمة الاقتصادية العالمية . ان جذوره ممتدة الى الماضي البعيد . مستمدة غذاءها من النضال الاجتماعي في العصر الحديث . والمانيا تلي روسيا السوفياتية في أوربا من حيث عدد السكان . والشعب الالماني شعب موهوب ولكنهُ أصيب ، بالنظر الى وضعه الجغرافي وتطوره التاريخي ، بالقمع والكبت مرة بعد أخرى . ولو لم يشغل الالمان بتأييد الامبراطورية الرومانية المقدسة الناشئة من فكرة الوحدة المسيحية في القرون الوسطى لما بددت المانيا قواها في سعيها الحثيث الى اخضاع ايطاليا ثم ان الرابطة الامبراطورية كانت ضعيفة فيها ، فقامت فيها مئات من الامارات الكبيرة والصغيرة المستقلة . فلما جاء عهد الاصلاح الديني وبدت فيها وجوه الخلاف المذهبية عُمِّرَت هذه الفواصل بين اجزاء المانيا باقحام العنصر الديني في مشكلاتها ، فغدت المانيا ساحة معارك أوربا في خلال حرب « الثلاثين سنة » . والتفت فرنسا الى موقعها بين امبراطوريتي هبسبرج شرقها وجنوبها فاغتنمت كل فرصة لاضعاف المانيا ضعيفة مفككة الاوصال . فالوحدة الالمانية لم تتم الا في سنة ١٨٧١ اي بعد انقضاء ستة قرون على قيام الملكية القومية في كلٍّ من بريطانيا وفرنسا .

قد يسهل على الباحث أن يبالغ في وصف تأثير الوضع الجغرافي والوصف الطبوغرافي في سير التاريخ . ولكن لا ريب في أن حدود المانيا المفتوحة في الشرق كانت أهم باعث على التوسع في الشرق وفي انشاء صفات معينة في الخلق الالماني . وقد سعى الالمان قروناً الى بسط سيطرتهم على الصعيد الصقلية وفي الوقت نفسه تمكن المستعمرون الالمان — وهم يحاربون —

من الشاء مراكز للصناعة في مدن متفرقة في أوربا الوسطى على اساس امتيازات منحوها من امرائها . وعندما كانت أوربا ماضية في غزوتها العالم الجديد وتوسعها فيه كان التوسع الالماني محصوراً في أوربا الصقلية وهو التوسع الذي انتهى الى اقتسام بولندة ثلاث مرات في القرن الثامن عشر . وقد كانت سياسة المانيا في خلال هذه المدة من وضع الاسرتين الحاكمتين في المانيا والنمسا أي آل هوهنزولرن وآل هبسبرج تؤيدهما ارستقراطية اقطاعية بالجنود والحكام . فولّد هذا التضال في الطبقة الحاكمة الالمانية شعوراً بالتفوق على سائر الناس وهو شعور كانت تشاركها فيه الطبقة الحاكمة في انكلترا

ومع ذلك ظلّ فريق من كتّاب المانيا ومفكريها يذهب — قبل الثورة الفرنسية وبعدها — الى ان فكرة الوحدة المسيحية اساسية في اوربا فدعا جوته وشيلر وهردر ونوفاليس الى اخضاع الفروق القومية لفكرة الوحدة الاوربية

ولكن دعوة من هذا القبيل ، في عالم تتنازعهُ عوامل « سياسة القوة » كانت لا بدَّ ان تفضي الى اضعاف القومية الالمانية . فشرعت المانيا في اثناء غزوة نبوليون لها تقتبس من الغرب صور الحياة القومية الوطنية فكأنها اخذت سلاح العدو وأثقفت صنعهُ وصقلهُ لتغلبهُ به

وفي سنة ١٨٠٧ — ١٨٠٨ عند ما كانت جيوش نبوليون محتلّة برلين ، كان الفيلسوف فيخت يلقي محاضراته المشهورة التي جمعت في كتاب بعد نشر عنوانهُ « خطابات الى الامة الالمانية » قال ما مؤداه : ان الالمان مفردون في لغتهم وتقاليدهم وثقافتهم فيجب عليهم الاَّ يسمحوا بان يلوّثوا بغيرهم وليس بينهم وبين سائر الشعوب شيء مشترك واذن فيجب فرض الثقافة الالمانية على العالم . ثم جاء فاخبر ونبّشه فنزرا هذه النزعة عزَّزها الاول بوسيفاء والثاني بقوله ان الحضارة الغربية اخذت تنحطُّ وان الحضارة لا تسير في سبيل الارتقاء الاَّ اذا قامت ارستقراطية فاتحة من الرجال المتفوقين ( سوبرمان ) تسيطر على الشعوب المنحطة . هذه الافكار التي تغلغلت في نفس الشعب الالماني دفعت بهِ الى خوض غمار الحرب العالمية الماضية

وجاءت فترة بعد الحرب ، في اثناء عهد جمهورية فيمار ، بدا فيها المتتبعي الحياة الالمانية ان فكرة الوحدة الاوربية التي قال بها جوته وشيلر قد تبعث من الماضي البعيد وهي اعزُّ ما كانت . ولكن الهزيمة في الحرب الماضية ، والمصاعب الناشئة عن الحصر البحري في اثنائها بعدها ، وطبيعة معاهدة فرساي ، والتضخم النقدي في سنة ١٩٢٣ ، مضافاً الى ما عانتهُ الجمهورية من المشكلات الداخلية الاخرى — كلُّ ذلك بثَّ في نفوس الشعب الالماني شعوراً باليأس . القنوط حملهُ الى الالتفات الى زعمائه الحاليين . ولو لم يكن من خلق الالمان حب الانقياد لزعيم لاستطاعوا أن يتناولوا ما أغرمهم في برنامج الحزب النازي من دعوة الى العنف اكثر مما قاوموا .

ولكن كلّ دولة تسير على احتمالات النظام الفاشي في ثناياها . حتى اميركا قام فيها «هيوي لونغ». وكل دولة تبالغ في حياتها القومية حدود القنوط تستسلم للطاغية المشهوي الجماهير . إلا ان هذا لا يرفع عن كاهل الأمة الالمانية تبعة اعمالها في عهد النازي ولا يوجب على العالم الاستسلام لخطة العدوان . ولكنهُ يشعر بي بعدُ اذا كتب النصر لفرنسا وبريطانيا فعليهما ان يعززا في المانيا منزلة الجماعة التي ترتدُّ في فكرها الى جوته وشيلر دون فيخت ونيتشه وذلك بانشاء نظام عالمي جديد

ونحن اذا نظرنا الى مبادىء الوطنية الاشتراكية رأيناها تلك الوطنية الالمانية المتطرفة التي سبقت الحرب العالمية الماضية ولكن بعد ان مضت في التطرف والانحراف الى أبعد حدودها . فهتلر يشتدُّ في الدعوى الى الاعتبارات العنصرية اكثر مما اشتدَّ في الدعوة اليها أحد من أسلافه في حكم المانيا . ولكن الاعتبارات العنصرية ذاتها ليست الاَّ أسلوباً من الاساليب ليبلغ تفوُّق الشعب الالماني الذي رجحه فيخت نصب عينيه . وقد بدَّل هتلر بعض مناهج في «كفاحي» منذ تقلد زمام الحكم في سنة ١٩٣٣ ولكنهُ لم ينحرف مطلقاً عن اعتقاده في ان « الشعب الالماني » انما هو شعب خاصٌّ وان الفرد يجب ان يندمج في الشعب ويفنى فيه . فلما أذاعت الدول الديمقراطية في ما تصلبت فيه عند ما كان الحكم في المانيا جمهوريًّا ، اقنع هتلر بأن لنزعة الجرمانية رسالة تؤديها ، هي السيطرة على اوربا ان لم تكن السيطرة على العالم

والنظام النازي العام يؤمن بأن الدولة او الشعب ويصرُّ رجاله على ان الله — جلَّ جلاله — يتكلم بواسطة الدولة او « الشعب » . « الأخاء الجرماني » هو طريق الخلاص ، وما يشعرون به من الشعور الافتتان بأثر هذه العقيدة ليس روحيًّا وانما هو ذهول وافتتان جسمانيان منفذهما في العمل ، فليس فيها مكان للتعقل او للتسامح او للتواضع . الدولة تملي على كل فرد عمله والفورر لا يخطىء . وفي هذا وحده تسويغ لكل عمل . ومن اقوال الدكتور لاي رئيس جبهة العمل « يبقى في المانيا فرد واحد يجرؤ على ان يقول ان الفورر قد اخطأ » أما موقف النازي تجاه الشعوب الأخرى فيستدل عليه بما ظهر حديثاً في احدى المجلات الحربية [illegible] وصف فيها البولنديون بلفظي « بولاك » و«بجاين» مثل قبائل الزنوج !

بهذا التفكير المتحفظ والغرائز المنشور بأساليب جديدة فعالة منقّحة من الدعاية انبعثت الحركة النازية في نفس الشعب الالماني شعوراً جديداً . ففي هتلر وفي نجاح — تفنى في الداخل على تبذير في العمل في المانيا ثم احرز في الخارج انتصارات كبيرة

ان هتلر ليس موسوليني ثقافة ، ولكنه متصف بصفات غريزية يندر اجتماعها في رجال السياسة فاستطاع بها ان يخرج المانيا من عزلتها . فقد تحرر مثلاً على قلب سياسة المانيا تجاه بولندة رأساً على عقب في سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع بلسودسكي تعهد بمقتضاه بأن يتنح عن

خوض حرب مع بولندة مدى عشر سنوات . واغتبط البولنديون باهتمام هتلر بهم والاتفاق معهم فظنوا انهم استطاعوا أن يحولوا العدوان الهتلري عن شرق أوربا الى اقطار أوربية أخرى . ولكنهم في الواقع جزت عليهم مناورة هتلر لأنه بعمله هذا عزلهم عن حليفتهم فرنسا . فلما غزا موسوليني الحبشة اعتمد هتلر على غضب موسوليني من فرض العقوبات على ايطاليا فتكلف اوصاف «جبهة ستريزا» التي كانت قد انشئت لمقاومة عدوان المانيا الهادي اولاً في نقضها المعاهدات ثم توّج ذلك كلّهُ بانشاء الميثاق المقاوم للكومنترن فكان لذلك الميثاق تأثير عظيم في محافل بريطانيا وفرنسا السياسية لأنهُ بثّ فيها خشية بطش ايطاليا في البحر المتوسط واليابان في الشرق الاقصى اذا هما خاضت حرباً مع المانيا

وفي خلال هذه الفترة حاول هتلر أن يستغلّ شعور الاحرار في البلدان الديمقراطية باصراره على أن كل غرضه من سياسته انما هو اصلاح الخطإ وود الجور الواقع على المانيا من معاهدة فرساي . واستغلّ في الوقت نفسه شعور المحافظين بقوله أنهُ صدّ الشيوعية عن الانتشار في المانيا ومنها الى سائر أوربا . وكان آخر ظفر لهُ في سبتمبر سنة ١٩٣٨ عندما عقد اتفاق ميونخ

***

في مدينة جودسبرج حيث التقى تشمبرلين بهتلر ثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وعد هتلر بأن تكون ارض السوديت آخر مطلب جغرافي لهُ في اوربا . ومع ذلك اكتسح بوهيميا ومورافيا في مارس ١٩٣٩ وضمها الى الريخ . وفرض حمايتهُ على سلوفاكيا . وفي الشهر نفسه بعث بانذار الى بولندة مطالباً باعادة دانتزج الى الريخ وبحقوق معينة في ما يعرف باسم الممر البولندي

كانت بريطانيا وفرنسا في خلال هذه الفترة قد ادركتا انهما خدعتا . كان تشمبرلين قد سلّم بمطالب هتلر في ميونخ لاعتقاد فريق كبير من الانكليز ان مطالبتهُ بارض السوديت قائمة على مبادىء لا بأس بها ولأن بريطانيا لم تكن متأهبة للحرب . ولكن الشعب البريطاني بدأ يدرك حقيقة مصنع النظام النازي في اوربا بعد اكتساح تشيكوسلوفاكيا وتقسيمها . فلما أتت بولندة الانذار الالماني اتجهت السياسة البريطانية اتجاهاً جديداً ومضت حكومة تشمبرلين مؤيدة من الشعب البريطاني في اقرار نظام التعهد الاجباري والتنظيم عن معارضة لا تقل عن بريطانية في اوربا الوسطى والشرقية فعقدت تحالفاً عسكرياً مع بولندة وأعلنت فيما بعد نسالة رومانيا واليونان وتركيا

ولكن روسيا السوفيتية كانت في منزلة حجر الصدع في كتلة السلام التي اتجهت بريطانيا الى انشائها . وانقضت اشهر وحكومتا لندن وباريس تبذلان جهدهما لاشراك موسكو معهما في

محالفة كبيرة. وكانت سياسة روسيا السوفيتية بعد الحرب العالمية الاولى قد تقلّبت وفقاً لمصالحها فالتزمت العزلة الباهرة اولاً وهاجمت عصبة الأمم متهمة إياها بأنها «عش» الرأسمالية، فلما نهض الحزب النازي على أساس مقاومته للشيوعية الى مقاعد الحكم في ألمانيا خرجت روسيا من عزلتها وانتظمت في عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ وعقدت في السنة التالية محالفتين عسكريتين مع تشكوسلوفاكيا وفرنسا. ولكنها ومت في السنتين التاليتين بمساعي بريطانيا وفرنسا الفاترة لكبح جماح هتلر، فلما عقد اتفاق ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨ بغير ان يدعى ستالين او ممثلهُ الى حضوره بلغ رم روسيا حدود السخط على الدمقراطيين الغربيين. فلما بدأت المفاوضات في الصيف الماضي بين حكومتي لندن وباريس وحكومة موسكو اصطدمت بعقبات كثيرة لم يكن أقلها طلب روسيا الخاص بدول البلطيق مما أنتهُ الحكومتان الدمقراطيتان. ومنها امتناع بولندة عن التسليم باختراق الجيوش الروسية لأراضيها بغية مقاومة الاعتداء الالماني

وكان استدام مفاوضات موسكو بعقبات كبيرة فرصة سانحة لهر هتلر وفون ربنتروب فاغتنماها. وليس بخاف ان الرنخسفهر كان منذ بدء الحكم النازي غير راض عن سياسة هتلر العنيفة ضدّ روسيا. وكان أقطابهُ يميلون الى التفاهم مع روسيا لسببين احدهما إزالة خطر الحرب في ميدانين، وثانياً الاعتماد على موارد روسيا الطبيعية للفوز بما تحتاج اليهِ المانيا من المأمات الصناعية. فلما رأى هتلر — وهو السياسي الثرثار لا يقيد بخطة او حذر و مبدإ الأ مبدإ السلطان — ما تمانيه الدولتان الغربيتان في مفاوضات موسكو ورأى ان الفرصة سانحة لحزمها هزيمة سياسية، انقلب على سياسة مقاومة الشيوعية الى الاتفاق مع أقطابها. وكذلك عرف العالم صباح ٢١ اغسطس ان هتلر اقدم بعد ارهاب العالم ست سنوات متوالية بشبح الشيوعية، على ضمّ ستالين بذراعيهِ

ومع ان هذا الاتفاق كان باعثاً على سخط اليابان، ايطاليا واسبانيا، فان انصار هتلر في المانيا نفسها، إلا انهُ كان كبيراً وقيّماً لا يجب انكارهُ لانهُ فاز بمحياط الحياد الذي المدولة لانشاء «كتلة السلام» ومهّد لالمانيا نظرياً على الاقل الى الاعتماد على موارد روسيا الطبيعية. ومن المحتمل ان فون ربنتروب أقنع ستالين باصدار أمره الى وقف الدعاية الشيوعية الخفية في المانيا مقابل تأييد روسيا فاجتنبه من عقد هذا الميثاق لم يكن يسيراً لانهُ مكنها من الفوز بنصف بولندة واستئناف توسعها الشمالي. فاذا طالت الحرب في الغرب وانتهى ذلك إلى إنهاك المانيا وفرنسا تاح لستالين لتنظيم اوربا او جانب كبير منها على قواعد شيوعية

وقد جاء عقد هذا الميثاق نتيجة طبيعية للقواعد المتشابهة التي قامت عليها السوفيتية والنازية ورغبة الرنخسفهر وعداء النظامين معاً للدمقراطية. ولا ريب في ان مستقبل أوربا يتوقف الى حد

بعيد على مدى تاون موسكو وبرلين ، وتأثير هذا التاون ، او على احتمال اختلافهما في ما بعد على شرق أوربا

ان بريطانيا فأدركت حالاً ان الدفاع عن بولندة أشق من الدفاع عن الامبراطورية . ولكنها كانت قد قطعت عهداً لبولندة فليس في وسعها النكوص . ولذلك قبل اذا كان هتلر يطمع في دانزج فعليه ان يحارب في سبيلها . وبعد ما انتهت الحرب البولندية يخذلان بولندة في الميدان عاد هتلر الى خطبه المأثورة زاعماً انهُ لا يرى سبباً من أسباب الخصام بينهُ وبين دول غرب أوربا ، اذا شاءت ان تعقد معهُ صلحاً على أساس يقبله

ولكن الأسس التي تقوم عليها فلسفة التوسع الوطني الاشتراكي لا تدع مجالاً للثقة بصدق نية هتلر وصحبه . فروزنبرج يقول : ان السلام الجديد لا يستتب الا بسيف عنصر متفوق يعيد قوى العالم في سبيل حضارة أعلى من حضارته الحالية . وهتلر يقول ان الدولة التي تمنى وهي في دور الانحطاط بأجود عناصرها لا بدَّ ان تغدو يوماً ما سيدة الارض

شهد العالم قيام امبراطوريات عظيمة ولكنا لا نجد في جميع عصور التاريخ شعباً ينادي بتطبيق مبادىء أفضل في هدم الحضارة الغربية — اذا أتيح لها الغلب — من مبادىء النازية ، ولا قوة حربية معدة لفرض تلك المبادىء على الناس كقوة المانيا النازية . فمدار الحرب الدائرة الآن هو هذا — أتتفوق الفكرة الغربية في الحياة الدولية أم الفكرة النازية

## ٤ — مقدمات ونتائج

تسلم كثرة الشعب الالماني بالاشتراكية النازية لأنها لا ترى سبيلاً آخر تسلكه الآن ولكن الاقلية فقط تؤمن بمبادئها . فليس ثمة كاثوليكي صحيح العقيدة يستطيع ان يقبل فلسفتها . ومع ما اشتهر به الوثريون الالمانيون من الخضوع للدولة يكثر بينهم من يجاري الكاثوليك . فتعاليم النازي لا تفوز بتأييد جميع الالمانيين الذين يؤمنون بالحضارة الغربية . ومع ذلك يسعى أقطاب الحركة النازية جهدهم بوساطة جميع الوسائل التي اقرها علم النفس الحديث الى انتزاع الاحداث من البيت والكنيسة لتلقينهم إياها . وقد كان من نتائج الارهاب النازي ان فرَّ كثيرون من الزعماء الاحرار من المانيا ، فانتقل الآخرون ، وكذلك يلوح انهُ قد يتاح لهذه الطائفة من الحكام نحو العالم الرجعية المسيحية من المانيا بالارهاب والدعاية

ومهما يكن من أمر فالنازية قاومت على الغلب الايديولوجية النازية على المانيا الآن هو اخلاق الدول الغربية في شهوتها الى مستوى عقائد مثلها الدينية والاجتماعية . فالدول الدمقراطية الغربية اذا عنت عالمها للعدل الدولي والكنها عنيت اولاً بمصالحها القديمة . وما اصيب

به الاقتصادي العالمي القائم على التبادل الحر اللازم لرخاء الدول المحرومة . . . . . أما اصيب به على الغالب على يد الدمقراطيات وجماعة الاحرار الذي يشددون النكير الآن على ما تتصف به الدكتاتوريات من تعصب ، تعذّر عليهم على ما يلوح التضحية اللازمة في سبيل تعزيز المبادىء التي يؤمنون بها . واذا فازت الدول الغربية في هذه الحرب فانها لا تستطيع ان تحقق الهدف الاعلى الذي تتجه اليه الاّ اذا عدّلت موقفها وخطتها تعديلاً اساسيًّا . فالنظام النازي في المانيا هو نتيجة لاخطاء الغرب . وهو النهاية المنطرفة المنحرفة للتعاليم القومية التي تسود غرب اوروبا وعالم يثبت الغرب انبعاثاً جديداً فقد يثبت لمؤرخ المستقبل ان الحركة النازية لم تكن الاّ ناحية واحدة فقط في انحلال الحكم الدمقراطي في كل دولة

## معاهدة فرساي

وتمثل الهفوة الاولى التي ارتكبها الغرب بعد الهدنة كانت معاهدة فرساي . ولو كان غرض هذه المعاهدة تقليم اظافر الشعب الالماني لوجب ان تكون اشدّ مما كانت ولو اتيح لفرنسا تنفيذ خطتها بغير مقاومة بريطانيا والولايات المتحدة لكان المتعذر قيام الحركة النازية في المانيا . ولكن صلحاً شديداً من هذا القبيل حرّك باستنكار جماعة الاحرار في الغرب لأنها كانت تعتقد ان الشعب الالماني لا يكون اشد عدواناً من غيره من الشعوب اذا اتيحت لهُ فرصة النموّ في ظلال السلام . فجاءت معاهدة فرساي وسطاً بين الرأيين . فلا هي كانت شديدة فقدت المانيا بالقوة ولا خفيفة رضي منها غلاة الوطنيين من الالمان . وكان الرئيس ولسن يعلّق أمله على جامعة الأمم في ازالة ما تطرّق الى معاهدات الصلح من وجوه النقص والجور . فلما تنكرت الولايات المتحدة والرئيس ولسن لمصير دفن هذا الامل . وكذلك ظلت المادة ١٩ من ميثاق العصبة وهي المادة التي نصت على تنقيح المعاهدات حرفاً ميتاً لم تعمد الجامعة الى تطبيقها مرة واحدة في خلال العشرين سنة من حياتها

واذا نظرنا الى الناحية السياسية من نقد المانيا لمعاهدة فرساي وجدنا ما يسوغه وقد شادت معاهدة فرساي بالمبادىء الأدبية العالية في البلاغات الدولية ولكنها لم تتح الفرصة لتطبيق هذه المبادىء او تجربتها . فالاحكام الادبية الصادرة فيها على المانيا من حيث تبعة الحرب والمستعمرات والشدة التي عوملت بها مشكلة التعويضات اتاحت لهتلر موضوعاً لاشد طلباته وأبعدها عن المعقول

وفي سنة ١٩٢٥ حاولت بريطانيا وفرنسا تنقيح ناحية من معاهدة فرساي بعقد معاهدة لوكارنو مع المانيا وعلى اثر عقدها انتظمت المانيا في جامعة الامم وقد كانت تلك الفترة التي

احكمت فيها أواصر التعاون بين بريان وشتريزمان أزهى فترات السلام بعد الحرب الماضية . ومع ذلك ظل القسم الخامس من معاهدة فرساي قائماً وهو الجزء الذي يفرض على المانيا نزع سلاحها. ولا يستبعد ان الجمهورية الالمانية كانت تميل الى التسليم ببقاء هذه القيود لو أن فرنسا وحلفاءها نزعت سلاحها وفقاً لروح ميثاق الجامعة . فلما قدم «ضمان السلامة» على نزع السلاح شرعت المانيا تطالب « بالمساواة » عن طريق التسلح . ولو ان الحلفاء قبلوا مبدأ المساواة عن طريق التسلح قبل فوات الوقت لمهد الطريق الى تنقيح المعاهدات تنقيحاً سلمياً ولظلت الجمهورية الالمانية قائمة . ولكن عند ما ذهب المستشار بروننغ الى جنيف في سنة ١٩٣٢ وناشد أعضاء الجامعة التسليم لالمانيا باشياء من هذا القبيل لم يجب طلبه . ولم تفز المانيا بالمساواة الا بعد قيام هتلر الذي مزق القسم الخامس من معاهدة فرساي — وهي مساواة يرتد اليها الجانب الاكبر من بواعث الحرب الثانية الآن

ونحن لا نريد ان نقول ان الحلفاء وقفوا دائماً موقفاً جامداً مما طالبت به المانيا . اذ لا ريب في انهم سلموا لها في بعض ما تطلب ولكن تسليمهم كان يجيء على الغالب بعد فوات الوقت فلم يكن في هذا التسليم فائدة تذكر . فعصر الالمان تسليم الحلفاء بعد المداورة والامتناع بأنه ضعف يجب ان يستغل ففوتت فرص ثمينة كان يجب ان تستغل لتعزيز أواصر التعاون والتفاهم

وكيف قلبت النظر في معاهدة فرساي فانك واجد ان أكبر هفواتها هي تقصيرها عن انشاء كتلة من الدول تحل محل امبراطورية النمسا والمجر . وعلى الرغم من ان تلك الامبراطورية استبدت بشعوبها غير الجرمانية استبداداً منكراً فليس ينكر احد انها ربطت بينهم جميعاً برابطة التجارة الحرة. فلما تفككت اوصالها تفرقت الامبراطورية اجزاء مستقلة او ضمت اجزاء منها الى دول قائمة . ومع ذلك كان في وسع مؤتمر الصلح ان يعترف باستقلال كل منها على ان يقوم بينها نظام للتعاون الاقتصادي والسياسي . ولكن المؤتمر لم يفعل . وكذلك قامت على انقاض امبراطورية آل هبسبرج دول هنغاريا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا رضمت اجزاء اخرى الى يوجوسلافيا ورومانيا. وكانت دول الاتفاق الصغير ( تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا ) تعتمد على تحالفها مع فرنسا لمقاومة ما يحتمل ان يقوم بينها وبين هنغاريا والمانيا من خلاف . نعم أن معاهدة سان جرمان ( الحلفاء والنمسا ) أوصت بانشاء نظام تفضيلي للضرائب الجركية بين بعض دول الدانوب. ولكن اصرار الدول الكبرى — ومنها الولايات المتحدة الاميركية — على أن يشملها كل تخفيض يمنح لغيرها حال دون التقدم في هذه الناحية . وأذن يصح القول بأن الاخفاق في تنظيم هذه الرقعة من أوربا تنظيما اقتصادياً يقضي به العقل والمصلحة كان من أهم البواعث على انهيار النظام الدمقراطي فيها

فلما أقدم هتلر على احتلال منطقة الرين المجرَّدة من السلاح وتحصينها في مارس ١٩٣٦ قطع الصلة بين فرنسا وحلفائها في أوربا الوسطى . فقد كانت هذه الدول تعتمد على فرنسا في مساعدتها على المانيا اذا اقتضت الحال ذلك . وكانت فرنسا قادرة على ذلك عند ما كانت منطقة الرين مجرَّدة من السلاح وفقاً لمعاهدتي فرساي ولوكارنو ، لأنهُ كان في وسع جيشها ان يخترق المانيا ويشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني أيًّا كان وجيوش الاقاليم الصغيرة كانت كفيلة بمعالجة الباقي منهُ . فلما امر هتلر باحتلال هذه المنطقة وتحصينها اصبحت قدرة فرنسا على نجدة حلفائها امراً مشكوكاً فيه . فقدت أوربا الوسطى ترهب جانب جارتها الجرمانية الكبيرة ولا تعلم أين تلتفت. فايطاليا صديقة المانيا والعون الروسي يخشى بقدر ما يخشى العداء الالماني. وليس ثمة ريب في أن مؤتمر الصلح الذي يعقد بعد هذه الحرب يجب أن يعنى بانشاء نوع من الوحدة في بلدان الدانوب تمكنها من معالجة المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تواجهها وتجعلها تقلاً ذا شأن في ميزان أوربا الوسطى

## حبوط العقوبات

نصت المادة السادسة عشرة من ميثاق الجامعة على فرض العقوبات على كل دولة تقدم على العدوان . فلما أبت الولايات المتحدة الانتظام في الجامعة فقدت بريطانيا جانباً من حماستها لنظام لو طبق لوقع اكبر عبئه عليها . فخيط نظام العقوبات قبل تجربته . واذا كانت دول الحلفاء قد اخطأت في امتناعها عن ازالة بواعث شكوى المانيا في الوقت المناسب فانها اخطأت كذلك في احجامها عن معاقبة اعمال العدوان التي قامت بها الدول الدكتاتورية معاقبة حازمة

وقد جاء الاعتداء الاول على الحالة الراهنة التي اقرَّتها معاهدات الصلح والمعاهدات التي عقدت بعدها من جانب اليابان . وذلك بغزوها منشوريا في سنة ١٩٣١ ومع ان الولايات المتحدة الاميركية ليست عضواً في الجامعة الا انها تحركت للتعاون مع الجامعة في ردع اليابان متوسلة الى ذلك باشتراكها في معاهدة الدول التسع التي عقدت في وشنطن (١٩٢١ — ١٩٢٢) وضمنت وحدة الصين وسلامتها. ولكن وزارة الخارجية البريطانية لم تقدر على ما يلوح عزم الحكومة الاميركية وامتنعت عن الانسياق في سياسة لم تكن واثقة بان الولايات المتحدة الاميركية تثبت عليها ولا سيما ان انتخابات الرآسة كانت وشيكة ولا يعلم ما تكون سياسة الرئيس المنتخب . وقد كان القرار الذي اتخذتهُ الجامعة في يناير سنة ١٩٣٢ وسطاً فلم ترض به اليابان — والدليل على ذلك خروجها من الجامعة على أثر اعلان نتيجة الاقتراع — ولا أرضى لنظامين بتطبيق نظام العقوبات كاملاً . نعم ان الاعذار التي يعتذر بها كثيرة ، منها اشتداد الازمة الاقتصادية العالمية حينئذٍ مما يتعرض دون العقوبات الى نفاقها فيما إذا طبقت العقوبات الاقتصادية كاملة ، ومنها قوة اليابان

البحرية في الشرق الاقصى . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها ان دول الجامعة تفادت فرض العقوبات فكأنها سلّمت بالعدوان

ثم ان العقوبات جبست في سنة ١٩٣٥ عندما فرضت على ايطاليا في الحرب الحبشية ونجتزيء بالاشارة الى ذلك محيلين القارىء على مقال نشرناه في مقتطف فبراير ١٩٣٧ صفحة ٢٢٧–٢٣٢ عنوانهُ «حبوط العقوبات» . ومن ثمة توالت الحوادث . ففي شهر مارس سنة ١٩٣٦ احتلّ هتلر منطقة الرين المجرّدة من السلاح . وفي يوليو من السنة نفسها تدخل هتلر وموسوليني في الحرب الاهلية الاسبانية مؤيدين للجنرال فرانكو . وعنيت بريطانيا وفرنسا بانشاء لجنة عدم التدخل فتعهد ممثلو الحكومات الاوربية بالامتناع عن اصدار الاسلحة الى الفريقين المتحاربين ولكن المانيا وايطاليا مضتا في شحنها الى فرانكو وروسيا في اصدارها الى الجمهوريين . فلما زحف هتلر على النمسا في مارس ١٩٣٨ لم يرفع اصبع لوقفهِ وكذلك انتهت هذه السياسة الى اتفاق ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨ .

ولو ان رجال السياسة في لندن وباريس أيّدوا الجامعة تأييداً صحيحاً ولو ان بريطانيا على وجهٍ خاص قبلت قبل ثماني سنوات عند ما وقع الاعتداء الاول ( منشوريا ١٩٣١ ) الالتزامات التي قبلت ان تأخذها على عاتقها في مارس ١٩٣٩ ( محالفة بولندة وضمان رومانيا واليونان وتركيا ولو قرر ذلك بنظام فلانماش الاقتصادي العام[1] وتقبح ما يجب تنفيحهُ في المعاهدات القائمة ، فالغالب ان اوربا كانت نجت من الحرب الثانية الآن

وليس ثمة ريب ان احجام الدول الديمقراطية عن الاحتكام الى القوة كان سببهُ الأول ما يعرف بالنزعة السلمية في شعوبها . فويلات الحرب العالمية الاولى كانت قد تركت اثراً بليغاً في نفوس الناس فأقبل الرأي العام الديمقراطي على دعاية قوية واسعة النطاق لنزع السلاح وتحريم الحرب ، مع امتناع هذا الرأي العام نفسهِ عن الموافقة على الخطط السياسية التي تحقق النزع والتحريم بتخليف الحلفاء القائم بين الامم . فشعب الولايات المتحدة كان يرى انهُ ليس من مهمتهِ القيام بعمل حاسم عالمي وجاراهُ في ذلك الشعبان البريطاني والفرنسي . وهذه النزعة السلمية كانت مستند هتلر في جميع اعمالهِ الدولية فكان يقدم عليها مقتنعاً بان الشعوب لا توافق على الحرب ، ثم بعد الاقدام على كل منها كان يعرض مشروعاً للسلام ليتذي هذه النزعة في صدور الناس ويشغلهم بمشروعهِ عن السخط والتبرم بعملهِ

اما البواعث التي حملت الطبقات الحاكمة في بريطانيا وفرنسا على الوقوف هذا الموقف فكانت تختلف عن النزعة السلمية التي كانت تحرك الجماهير . فكان ظن الحكام ومنّ وراءهم ان انشاء

(١) بحث الحالة الاقتصادية العالمية من حيث علاقتها بالمشكلات الدولية بنظر خاص لم يتسع له هذا المقال

نظام دولي بالمعنى الصحيح يقتضي منهم ثمناً كبيراً ، وكان الرأي الغالب على دوائرهم انهُ قد يكون في وسعهم منع نشوب الحرب بالتسليم بأعمال محدودة تقوم بها المانيا وايطاليا واليابان ضد بعض الدول الصغيرة وبوجه خاص ضد روسيا . فاستغلال اليابان لموارد منشوريا يستغرق سنين وايطاليا مشغولة بالحبشة والمانيا بأوربة الوسطى وقد تشتبك في حرب مع روسيا . وهذه هي «سياسة القوة» سافرة الوجه ولكنها لم تنجح لأن الرأي العام في الدولتين الدمقراطيتين والولايات المتحد الاميركية استنكرها لبعدها عن كل مبدأ أدبي يحترمه ولان قابلية الدول الدكتاتورية اوهنت بالاكل فلم تقف عند حد معقول . ذلك ان هذه الدول لم تكن مهيأة باستغلال البلدان التي ضمتها وتنمية مواردها بل كان همها الاكبر الفوز بالسيطرة وانتزاع ما للدول الغربية من منزلة ونفوذ

## الروح الدمقراطي

واذا بحثنا عن الباعث على عجز الدول الدمقراطية عن مواجهة المشكلات الدولية بما يجب من الحزم وجدناه في القتال الداخلي القائم في بعضها بين طبقاتها وأحزابها المختلفة . وقد شهد كل بلد منها سعياً من احزاب العمال والهيئات المتصلة بها لاصلاح حال العمال والفلاحين وغيرهم . وهذا سعيٌ نبيل يجب ان يفوز بتأييدها طبقات الاحرار اذا كان هذا لا يضعف الاركان التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الذي يؤمن به الاحرار . ولكن الغلوَّ في ما طلبتهُ بعض الهيئات الاشتراكية النزعة وضعف الاساليب التي أقرَّتها بعض الحكومات لتحقيق هذه الطلبات أفضيا الى إضعاف النظام الدمقراطي

ولا تموزنا الأمثلة لنسوقها على ان فريقاً من اصحاب المال وزعماء العمال نظروا نظرة ضيقة الى مصلحة طبقتهم فرفعوها فوق المصلحة العامة . فاذا كانت حركة العمال منحرفة الى الشيوعية — ولو كان ذلك الانحراف نظريًّا — فليس ثمة ريب في ان وحدة الدولة تهدَّد بالتصدُّع

وقد جاءت فترة بعد الحرب العالمية الماضية فقد فيها العمال والمشتغلون بشؤون الفكر كلَّ ثقة بالنظام الرأسمالي فاتجهوا الى روسيا السوفياتية وفاز الحزب الشيوعي الروسي بولاء هاتيك الجماعات في شتى البلدان . يقابل هذا انَّ انحراف هذه الجماعات الى روسيا ، وتفاقم الخطر الشيوعي ، دفعا المحافظين والطبقات المتوسطة في ايطاليا والمانيا واسبانيا الى تأييد الانقلابات الفاشية . وفي بريطانيا وفرنسا الى ضعف الحزم في مقاومة العدوان الفاشي

اما الاحرار فاستهوتهم دعوة روسيا الى انشاء كتل شعبية غرضها مقاومة الفاشية . فأنشئت الجبهان الشعبيتان في فرنسا واسبانيا وبذلت مساعٍ لانشاء جبهة من قبيلها في بريطانيا واميركة . ونحن اذا نظرنا الى حركة « الجبهة الشعبية » من ناحية المبدإ رأيناها محمدة

من مدتها ، لان الشيوعية بعيدة بعد الفاشية عن الدمقراطية . واذا نظرنا اليها من ناحية النتيجة العملية رأيناها وقد دفعت بعناصر المحافظة الى معسكر الفاشيين

والواقع ان مبالغة المحافظين في خوفهم من الشيوعية وغلو الاحرار في حماستهم لها يدلان على ان الضعف الاساسي في النظام الدمقراطي هو فقد ثقة الدمقراطيين انفسهم به. وهذا يرتد الى ضعف المبادىء الفلسفية التي قامت عليها نظرية الحكم الدمقراطي

فالدمقراطية اصلاً وليدة الايمان بكرامة الانسان وقدرته على الاختيار بين عاملين على اساس ما فيهما من خير او شر . فرفعت الدمقراطية مبدأ الحرية ولكنها قيدته بمبدإ القصد . فالحرية في رأي الفلاسفة الدمقراطيين يجب أن تمارس بحيث تحقق للفرد اغراضاً أدبية اختارها اختياراً حراً لنفسه . وفي ذلك تعلم ان يحترم اختيار الغير وما يجب عليه نحوه وهذا أساسه التسامح واحترام الوعد

هذه المبادىء الخلقية الاجتماعية ثبت بما اضعف منزلتها في النفوس قبل ان يقتلها عاصف الانقلاب الدكتاتوري . ذلك بان الاحرار الذين يؤمنون بها استسلموا للنزعة الوطنية الضيقة وتأثروا بالمادية العلمية ومدارها أن الانسان ليس الا ورقة محمولة في إعصار التغير الكوني ، وبالمادية الاقتصادية التي ابتدعها ماركس وبالتعاليم النفسية الجبرية التي وضعها فرويد واتباعه وردوا بها اعمال الانسان الى نزعات في الشق الباطن فلما يستطيع الانسان ان يوجهها . وفي جميع هذه المذاهب شيء من الحقيقة ولكنها اذا قبلت على علاتها فيها ولا ريب تضعف من منزلة الصور الادبية القديمة التي قامت عليها الدمقراطية لانه اذا كان الانسان آلة تحركها قوى عمياء فلماذا يتعين عليه ان يناضل في سبيل حرية يتعذر عليها بحكم النواميس الكونية ان يحققها

ولكن الجنس البشري لا يسعه الاستسلام الى هذه النتيجة القاتمة . قد تمضي النزعة المادية في طريقها دهراً ولكنها تنتهي في آخر الامر الى رد فعل ، لانه اذا لم يبق من جماهير الناس الا آلات عمياء لا تتحمل تبعة ولا مسؤولية فالغالب انها تفرى بما في النظام الدكتاتوري من اوهام مدارها الفاء التبعة على كاهل زعيم فرد .. وتاريخ الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية شاهد على ان الجمعية البشرية لا تقوم على الفكر والمصلحة الاقتصادية وحدهما ، ولا بد لها اذا شاءت ان تتأهب لمقاومة الشدائد ، من مبدإ ادبي يوحد بينها ويستجيب الى ما في طبيعة الانسان من وحي الروح

ونحن نرجو أن يكون من نتيجة هذه الحرب وانتصار الحلفاء فيها ، بعث الحياة في الروح الدمقراطي واتاحة الفرصة ثانية في أقل من ربع قرن لانشاء نظام جديد تسوده المبادىء الادبية العليا . فاذا صح ذلك فالحرب العالمية الثانية مهما تكن رزاياها لا تكون عبثاً [1]

(١) الاعتماد في هذا الفصل النفيس على المؤرخ الاميركي بيرل Buell في مجلة فورتشون Fortune

# مكتبة المقتطف

## انساب الاشراف للبلاذري

القسم الثاني من الجزء الرابع — ١٧٢ ص للمتن و٤٢ ص للتعليق من القطع الكبير. نشره ماكس شلوسنجر Schlossinger بمدينة القدس ١٩٣٨ / وظهر ١٩٣٩) في مطبعة مدرسة الآثار الشرقية للجامعة العبرية

قد سبق لي هنا كلام على الجزء الخامس من « أنساب الاشراف » للبلاذري الذي نشره في القدس ايضاً الاستاذ جوتشين Goitein وكان ذلك الجزء فاتحة الاجزاء المعدّة للنشر. وهذا القسم الثاني من الجزء الرابع يتلوه. ومداره اخبار يزيد بن معاوية وآله، ثم فيه أخبار ولد زياد بن أبي سفيان (ابن أبيه) ولاسيما عبيد الله بن زياد، وأخبار محاربة الخوارج، وأخبار الحاص بن امية وآله ولاسيما عمرو بن سعيد الأشدق، وأخبار ابي العيص بن امية وولده، وينتهي الجزء بعثمان بن العاص بن أمية

وفي هذه الأخبار ما لم يذكره أحد من أصحاب التواريخ، من ذلك ما وقع ليزيد بن معاوية في خلافته وما نُسب اليه من الشعر، ومن ذلك ماكان من أمر الخوارج، ويقول الناشر هنا بأن البلاذري كأنهُ عوّل على مصدر لأحد من الخوارج لم يصل الينا

وقد جاء نشر هذا الجزء على أتم شكل من جهة الإخراج العلمي، فقد تحرى الناشر الدقة في تدوين المتن، ثم عمل له تعليقات جعلها في كتاب قائم برأسه. وقد أثبت في هذه التعليقات روايات المتن في الاصل إذا هو خالفها ثم أشار إلى المصادر العربية الاخرى التي جاءت فيها الاخبار الواردة في ذلك الجزء من أنساب الاشراف، رغبة في الفراغ وإتمام الفائدة. وهذه التعليقات حقيقة بأن نغتبط لها وبأن نقدر فضل صاحبها. ولو تمنّيتُ شيئاً بعد هذا قلت: ليت الناشر جعل روايات الاصل في هامش المتن لا في كتاب مستقل عنهُ فيراجع القارىء ويعارض لفوره بدلاً من أن يترك نصّاً بين يديه ثم ينطلق يفتش عن أصله في هامش كتاب آخر أو يبحث عن النص الذي بين يديه رواية في الأصل قد عدل عنها الناشر؟ وعسى أن يلتفت الناشر واصحابه الى هذا الامر بعد اليوم — وبعد، فقد وقفتني أشياء في المتن أحب أن أعرض بعضها عليك:

ص ٧ س ٢، ٢١:

فان مني ذمة من يزيدَ ... وإني اعوذ بسلاسكا
من أن أظلم اليوم أو أن تطيـــع بي الكاذب الآثم الآفكا

والوجه : من ان (بهزة وصل ، وهي من ضرائر الشعر) حتى يستقيم الوزن

ص ١٠ س ٩،٥ :

إذا ما قريش فاخرت بطاريفها فخرت بمجد يا يزيد تليد
بمجد امير المؤمنين ولم يزل أبوك امين الله جدّ رشيد
به عصم الله الأنام من الردى وأدرك ثلاً من مآثر صيد

ولعلّ الوجه : «مجد رشيد» (والمعنيُّ : معاوية)؛ وفي رواية الاغاني : غير بليد . ويقول هنا الناشر : ربما عنى الشاعر خالد بن يزيد ، وهذا من باب التأويل المرسل ارسالاً

ص ٥٠ س ٤: امراءة من الخوارج — والصواب : امرأة

ص ٦٢ س ١٤ : قال معاوية بن يزيد في الخلافة : والله ما تمنّي حيًّا أفأحملها ميّتاً — والصواب : ميْتاً. فالتعالمّ ان الميّت ( والماثت ) هو الذي لم يمت بعدُ ، وأما الميْت فهو الذي مات ( راجع القاموس مثلاً ) . وقد أراد معاوية المعنى الثاني ، ودليل ذلك ما رواه البلاذري (ص ٦٣ س ٢٠ وراجع ص ٦٥ س ٦) «لما حضرت الوفاة (معاوية بن يزيد) قيل له لو استخلفت فقال كفيتها حياتي ، واقضيتها بعد موتي ؟ فأبى »

ص ١٣٤ س ٨ و ٩ : ان سعيد بن العاص كان جالساً ومعه قوم وهو يحدثهم فسقط جدار على قوم فانفضوا الاّ فتى ثبت معه حتى اتمّ حديثه ... — والوجه : على القوم

ص ١٣٨ س ٧ : ولقد ضرّستني الامور وجرّستني الدهور — ولعل الوجه : ضرّستني بتشديد الراء للازدواج بشر فارس

## فلسفة الطب

أو غز الامراض الباطنة — تأليف الدكتور حسني متيع — أستاذ الامراض الباطنية وسريريها ورئيس المعهد الفني الطبي العربي — مطبعة الجامعة السورية بدمشق — صفحاتها ٤٧١ + ١٠ من القطع الكبير ٢٤ ليرة

هذا كتاب نفيس في ما يتيف على الف صفحة ما كان ليقدم عليه الاّ عالم متمكن وكاتب متمرس بصناعة القلم . ففي صفحاته المتوالية تنتظم النظريات والآراء العلمية التي من ورائها حقائق الطب الحديث واسانيده . هنا دراسة الوراثة ( وهي جزء من دراسة أسباب المرض الباطنية ) وهنا بحث المؤثرات الكيميائية من أغذية وسموم وغيرها ( وهو جانب من دراسة اسباب المرض الخارجية ) . وهنا ايضاً باب كبير في التغذية والشوائب الغذائية وآخر في الغدد الصمّ ومفرزاتها الباطنة . ولو حن شئنا ان ننقل سجلّ محتويات الكتاب فقط لما اتسعت لذلك اربع صفحات من هذا الباب . وانما يجد القارىء في ما تقدم مثلاً على فاتحة ما تنطوي عليه صفحاته

يقول المؤلف في توطئته « ويعتبر الطب من هذه الوجهة علماً وفنًّا وصناعة معاً . فهو علم يطراز دراسته والاحاطة به . وفن بطريقة ممارسته وما يتطور ذلك من دائم التغير والتبديل تبعاً لناموس الارتقاء . وهو صناعة لانهُ مورد رزق لمحترفه . والطب في عصرنا نتيجة جملة علوم وفنون ومحصلها ٤٠٠٠٠ » . وما عليك الاَّ مطالعة بضع صفحات متوالية من هذا السفر الجليل لتدرك ما عاناهُ المؤلف في تتبع بحوث الكيمياء والطبيعة والكيمياء الحيوية والفسيولوجيا وغيرها علاوة على علوم الطب المختصَّة لكي يخرج من مطالعته وبحثه بهذه الصفحات اليسيرة للمطالع المفيدة للطبيب

كنا نكتب الفصل الاول من مقتطف هذا الشهر عند ما تلقينا هذه الهدية النفيسة ، ففتحنا الكتاب على غير قصد فانفتح عند الصفحتين ٤٨٨ و ٤٨٩ فوقع نظرنا على لفظ acetylcholine واسم كانون Cannon فاذا البحث الذي تنقلهُ عن عدد حديث من مجلة اميركية يجعل اجمالاً عليًّا طيًّا في هذا الكتاب . واذا اعوزنا الدليل على ان المؤلف استقصى احدث ما خرج من مسائل البحث مما يمتُّ الى الطب بصلة فهذا وغيرهُ الدليل القائم

وفعلٌ معجم المصطلحات الطبي الفرنسي العربي الذي ذيَّل به الكتاب أنفس اجزائه وهو في ٤٣ صفحة كل صفحة منها تحتوي على نحو اربعين لفظاً عربيًّا مرتبة على حروف الهجاء ومقابلها الفرنسي . واذا كنا نقتصر الآن على هذه الكلمة الموجزة فلأن المجال ضيّق والرجاء معقود على العودة اليه في فرصة قريبة لايفائه حقه

## النقود العربية وعلم المسكوكات

الاب أنستاس ماري الكرملي . مكتبة لويس شركيس بالفجالة في القاهرة ١٩٤٥ : ٢ من من قطع المقتطف

هذا سفر جديد يضيفهُ العلامة الاب الكرملي إلى خزانة الكتب العربية ، وله عليها أيادٍ لا تكاد تحصيها إلاَّ بالمراجعة والتذكر . وهذا الكتاب يتناول فنًّا لم يطرقهُ الباحثون من وجهه دون غيره . وسبب ذلك ان التصانيف العربية التي تبحث في النقود لا تزيد على اربعة ، والباقي فرع منها ، كما يقول المؤلف : وهذه الاربعة هي رسالة في آخر « فتوح البلدان » للبلاذري ، واخرى في النقود الاسلامية للمقريزي ، واخرى نجدها في الجزء العشرين من « الخطط التوفيقية الجديدة الى بلاد مصر » لعلي باشا مبارك ، والرابعة في « تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال ، وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة ١٢٥٦ » تأليف مصطفى الذهبي الشافعي

والرسالة الاولى والثانية مطبوعتان ، والثالثة متداولة مع مجموعتها ، واما الرابعة فما لا يزال

مخطوطاً . وقد اهتدى اليها الاب العلامة فاقتناها . وها هو ذا ينشرها في هذا الكتاب . وقد رأى أن يسبقها بنشر الرسالتين الاولين فيزيد في تحريرهما من طريق التمحيص والمراجعة ، وفي تقريب فوائدهما باثبات المسارد ( الفهارس ) واستعمال الموازنة والمقابلة . وقد أضاف الى كل ذلك ما سطره ابن خلدون في مقدمته والقلقشندي في «صبح الاعشى» بشأن السكة والنقود . ومما اسف له وتأسف انهُ لم يدخل ذلك في صلب الكتاب بل جعله يتحى عنهُ .

والكتاب مخدوم ، زاخر بالتعليقات والفوائد والتنبيهات والشواهد على أسلوب عودنا الأب العلامة إياه : فن استقصاء واستطراد ، وتفص وتفحص . ومن الكتب التي رجع اليها المؤلف الناشر : الاحكام السلطانية والتعريفات والتهذيب والعقد الفريد وفتوح البلدان وقوانين الدواوين لابن مماتي ونخب الذخائر في احوال الجواهر لابن الاكفاني ( وقد نشره الأب العلامة لسنة مضت ) . ولعل المؤلف الناشر رأى أن يهمل فصلاً صغيراً للخوارزمي في «مفاتيح العلوم» عنوانه « في مواصفات كتاب ديوان الخزن » وباباً في المخصص

وللكتاب بعد هذا سبعة عشر مسرداً (فهرساً) . وهذه طريقة للاب العلامة تذكر له ويمدح بها . ففي المسارد تقريب الفوائد وبذل الدفائن . ولا ضير ان تكون كثيرة . ومن مسارد الكتاب مسرد للعيوب والانقاب والصفات المعظمة الواردة على النقود ، وآخر للموازين والمكاييل والمقاييس والآثار ، وآخر للاصلاحات والاضافات ، وهكذا ترى مبلغ فائدة هذه المسارد ، فمن الخطإ ان يقنع الناشر بالفهرس المشتمل على فصول الكتاب ومواده .

## المحكم في أصول الكلمات العامية

للدكتور احمد عيسى بك . مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ ٢٥٢ ص من قطع المقتطف

للدكتور أحمد بك عيسى مِنَّة على اللغة العربية هي المعجم الذي عمله في النبات ، وله بعد هذا « تاريخ البيمارستانات » ، هذان هما مؤلفاه المقدَّمان وبهما يحق له ان يفخر ويفاخر

وقد أخرج اليوم كتاباً جديداً يدخل في فن اللهجات وهو فن مستحدث من فنون علم اللغة ، قد علا شأنهُ في جامعات أوربة ، ولم يطرق بعدُ هنا إلاَّ عرضاً أو من طريق الاشارة

والكتاب يثبت طائفة كبيرة من الالفاظ العامية ، مرتبة على حروف المعجم ، مع ما يراد منها في الاصل العربي الفصيح ، وقد حُرِّفت عنهُ من طريق اللحن الجاري على ألسنة العامة . ومزية الكتاب أن مؤلفه يورد فوائد كثيرة عند الفحص عن الاصل الفصيح اذا كان للكلمة أصل في اللغة ثم يتتبع مصدرها إذا كان مرتجلاً أو منقولاً عن لغة أجنبية . وربما عمد المؤلف الى طريق الترجيح فحاب : مثال ذلك مقاله في « إتاتي ، أتره » و « إبادي » و « دوّار » وربما ذهب في التخمين فجاء كلامه موضع نظر : مثال ذلك ما قاله في « شمع » وهي كلمة ر

في تعبيرات الصوفية ، وفي « أبو القسمين » و « الابعد » ( وفي « الا بعد » كناية اذ يجري الحديث على غير السامع في موضع ذم فتبعده عن السامع دعاء ، وعلى ذلك قول العامة ايضاً ، «فلان — البعيد — لئيم »)

هذا وكان يحسن بالمؤلف أن يرسم نبرات الحروف على وجهها في اللغة العامية فيجعل علامة للامالة بدلاً من الكسر الصريح في الحروف المالة ، مثل لفظة « شيفتيـــي» . وذلك لان علم اللهجات الحديث يتطلب حكاية الاصوات والحركات والنبرات على ماتنطق به

ثم إنا كنا نود أن يذكر المؤلف بعض من سبقه في معالجة فن كتابه . فقول هذا وبين يدينا كتاب « تهذيب الالفاظ العامية » للشيخ محمد علي الدسوقي ، مصر ١٩٢٠ ، فقد وافق كتاب الدكتور عيسى في غير موضع

وبعد فان هذا الكتاب حقيق بأن يُعتدَّ به ويُنتفع فهو من المؤلفات التي تخدم اللغة العربية الخدمة الجليلة وتجري الى تهذيب المنطق وتحرير اللسان ب.

## في الادب المصري الاسلامي

### من الفتح الاسلامي الى دخول الفاطميين

صفحاته ٢٩٠ — مطبع مطبعة الاتحاد بمصر

عنوان هذا الكتاب كموضوعه يدل على اتجاه جديد في بحث الأدب العربي . فلقد كانت دراسة هذا العلم في مصر متجهة الى أدب بغداد أو أدب الشام أو أدب الجزيرة . لأن هذه البلاد الثلاثة تنقلت فيها الخلافة الأسلاميـــة العامة . ولقد أغفل الأدب المصري الأسلامي وضاعت دراسته حتى في داره . وأهملت مناهج الأدب العربي للمدارس الثانوية المصرية دراسته المطوَّلة . ولم يرد لمصر ذكر فيها الاَّ كلمة صغيرة سريعة اللمح عن الأدب أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والايوبيين . وهي كلمة لا تقاس بجانب الكلام الطويل المفصل عن الأدب الجاهلي أو الأدب في العصر العباسي بقسميه

ومجب جدًّا أن « المصرية » ذابت في الأدب كما ذابت في التاريخ العام . فقليل جدًّا هم الذين يعرفون أدب مصر الأسلامية من المصريين . وذلك راجع الى عوامل سياسية تقلبت على مصر حتى كتب الله لها أخيراً ان تنهض على قدميها مبتهجة تقول للعالم في كبرياء: هذا تاريخي ، وهذا أدبي !

وكان من أثر اهتمام جامعة فؤاد الأول بهذا الموضوع أن أنشىء فيها كرسي الأدب المصري الاسلامي . فاهتم الشباب المثقف المعتز بأدب بلاده . وظهر كتاب اليوم نتيجة لهذا الاهتمام . ومؤلف هذا الكتاب يشكر كل الشكر لأنه كان رائداً من رواد النهضة المصرية ممثلة في الأدب . ولقد كلفته تلك الريادة سعياً طويلاً وجهداً متلاحقاً . الاَّ أنهـــا كلفته في

الوقت نفسه أسرافاً في التقدير . وله في ذلك بعض العذر . فهو محب لمصر ، والمحب دائماً مسرف والاَّ فكيف جاز لهُ ان يستدل بهذا البيت

وما كم أمير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب

أو بأشباهه على ان هذا المعنى من آثار مصر في أبي نواس لأن مصر بلد عصا موسى وحيَّات السحرة ( ص ١٨٢ ) . وما رأي المؤلف في المثل العربي القديم « ان العصا من العصية ولا تلد الحية الاَّ الحية » أفأخذ من هذا ان القائل الاول للمثل لا بد ان يكون مصريًّا أو عاش في مصر . قرأت هذا الكلام فابتسمت الابتسامة التي أضعها حينما أقرأ في بعض كتب الأدب المدرسية الحديثة — عن اثر البيئة في الشعر فأجد فيها الاستدلال على بيت — ليكون — جاهليًّا — بذكر الظلل او الأبل او الحنين . وهو استدلال خاطىء لأن قائل هذا البيت قد يكون متأخراً جدًّا ولكنهُ تعمد في تقليد القديم

هذا الكتاب الجليل الشأن في تاريخ الادب المصري مقسم ابواباً متفرقة . تكلم فيها المؤلف الفاضل عن موضوعات جديرة بالقراءة جديرة بالتفكير ، فقد استهله بالحديث عن الادب قبل الفتح الاسلامي . وخلص من ذلك الى الفتح والحياة العقلية وفن الكتابة والشعر . ومن الحظ الحسن ان يكون للشعر نصيب عظيم في هذا الكتاب . فقد استغرق مائة وخمسين صفحة — اي اكثر من بقية الموضوعات مجتمعة — وتلك يد للمؤلف يذكرها لهُ الشعراء الاوفياء. ولا يعيب جمال تلك اليد ان المؤلف اخطأ كثيراً في نقل الابيات خطأ لا يستقيم معه وزن ولا يقولن حضرته انهُ خطأ مطبعي فلم يرد له تصويب في جدول التصويب بآخر الكتاب ولعله يعتذر من ناحية اخرى بأنه لا يلم بعلم العروض ، ولكنه قد كان له عن ذلك كله مندوحة بعرض اصول الكتاب على من لهُ بالشعر بصر ....

ونسوق هنا بعض الادلة على ما نقول ففي صفحة ٢٠٢ ورد هذا البيت

فجزى الله حاجيا فظا كل خير عنا اذا يجزيه

والشطر الاول مكسور فبحره الخفيف وليس الوزن مستقيماً ولعل حاجيا حاجبا وفي صفحة ٢٠٩ البيت التالي

بدت ذوي الالباب ان بناءه وبانيه لا بالضين ولا الغمر

والشطر الثاني منه مكسور . في صفحة ٢٢٠ البيت الخامس

لقد طهرت الارض من سوء فعله ومن وجهه ذاك الكريه المورم

والشطر الاول منه مكسور لان ثالث مفاعيلن محذوف وهو لا يحذف وغير هذا كثير وعبارة المؤلف العربية تحتاج الى شيء من التصحيح ثم ينقصها شيء من الضبط فهو يقول في

ص ٢٣٦ (وقت شعورهم) والشعور مذكر لا مؤنث ومفرد لا جمع . ويقول في صفحة ١٩١ عن ابي تمام (لم يصلنا عنه شيئاً كثيراً) والصواب شيء كثير وغير هذا كثير

وبالرغم من ذلك كله فالكتاب بمجهود طيب لمؤلف نرجو ان نرى في تآليفه المقبلة اثراً لمكوثه على كشف القناع عن أدبنا المطوي في تضاعيف السنين محمد عبد الغني حسن

## ثورة الاسلام وبطل الانبياء

ابو القاسم محمد بن عبد الله

بقلم محمد لطفي جمعة — مطبعة عيسى البابي الحلبي — ٥١٢ ص — من القطع الصغير

هذه فاتحة مباحث المؤلف الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي « سلسلة الثقافة الاسلامية وحضارة العرب » . وهذا الكتاب يتناول ظهور الاسلام وعلو شأنه على يد الرسول في زمن الجاهلية والوثنية العربية . وفيه اساطير جاهلية كثيرة لطيفة من فلسفة الى لغة الى عقيدة الى تاريخ . وقد عول المؤلف على طائفة من امهات الكتب العربية القديمة كالحماسة والكامل والسيرة فضلا عن القرآن وكتب الحديث . ولا بد من ان نقول ان المؤلف يجري في كتابه هذا الى تعظيم انبثاق النور الاسلامي . ولكن أيحتاج في ذلك الى تنقص عهد الجاهلية وذم أهله اقبح ذم؟ فقد قال مثلاً (ص ٢٦٨) « كان الغدر من ابرز رذائل الجاهلية فلم يعرفوا الوفاء والمروءة ومكارم الاخلاق إلا بعد الاسلام » . وهناك غيرهذا من ألوان لا تحد الاخلاقية على عرب ذلك الزمان . والمؤلف في هذا يجري على منوال فريق من المؤلفين المحدثين من عرب ومستشرقين وما أبعد القوم عن الصواب ! فمن الشعر الجاهلي وأخبار الجاهلية يتبين لنا أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا « متوحشين » كما جاء في (ص ١٠٩) وفي كتاب « العرض عند عرب الجاهلية » للدكتور بشر فارس تفصيل ذلك ، وفي فصله « مكارم الاخلاق » من كتابه « مباحث عربية » إشارات الى مواضع كثيرة فيها مثل ابن قتيبة عن فضائل عرب ذلك العهد

هذا وان كتاب يُقرأ بسهولة كالقصة وفيه فوائد مجموعة ، وتصويره تبعة دينية حسنة

## الربيع الآتم — مجموعة قصص مصرية

للاستاذ محمود كامل المحامي — ٢٠٠ صفحة من قطع الجيب — دار الجامعة للطبع والنشر

الاستاذ محمود كامل المحامي من الادباء الذين برزوا في كتابة الأقصوصة . وقد نالت أقاصيصه من الذيوع والانتشار ما لم تنله أقاصيص اي أديب آخر من أدباء العربية المعاصرين في مصر . ويرجع ذلك — في نظري — الى انه فنان يعالج في أقاصيصه حياة الطبقة الوسطى المصرية » وهي طبقة عليها كل الاعتماد اليوم في ذيوع الكتب وانتشارها ، لان منها تجيء الطبقة المثقفة في مصر . ولا شك في ان معالجة حياة هذه الطبقة وتصويرها الشيء الكثير من التقرب اليها . على اننا بعد ذلك نجد هذه الأقاصيص ليست من الناحية الفنية جديرة بالنظر . وهذا كان موضع من مواضع

مؤاخذتا على بروكلمان اغفاله الكلام عن أقاصيص محمود كامل في « تكملة تاريخ الآداب العربية » وذلك في الوقت الذي أشار فيه الى أقاصيص كتاب آخرين قد لا يجارونه في الروح الفنية والانتاج (انظر لنا مجلة المعهد الروسي للدراسات الاسلامية — عدد اكتوبر — نوفمبر ١٩٣٩)

ومن المهم ان نقول في هذا الصدد ان الاستاذ محمود كامل رأس مدرسة قصصية في الأدب العربي المعاصر، معظم أفرادها من أدباء الشباب انتظمت جهودهم على صفحات مجلة « الجامعة » و« العشرين قصة » ومن أبرز هؤلاء الادباء : ابرهيم حسين العقاد وعادل الجمال. والحق ان محمود كامل لم ينل زعامة مدرسة قصصية في الادب المصري اعتباطاً ، فانتاجه الكبير وما يتسم به هذا الانتاج من السمات الفنية هما اللذان مهدا له سبيل هذه الزعامة. وآخر آثاره مجموعته القصصية « الربيع الآثم » وهي تجمع خمس عشرة أقصوصة بين دفتيها ، والسمة الغالبة على هذه الاقاصيص : ان الواقعية تمسك عليها مداخلها والرومانسية تأخذ عليها مخارجها ، فهي من هنا مزيجة من الفن الواقعي والفن الرومانسي. ذلك أنهُ ينقل وقائع أقاصيصه من المجتمع المصري، ويتخذ موضوعاتها من حياة الطبقة الوسطى في مصر ، ومن هنا يجيء الاصل الواقعي في فنه . غير أن هذا النقل وذلك التصوير يغلبهما جانب تغليب الاحساسات والمشاعر . ومن هنا يجيء جو أقاصيصه صاخباً بصور عاطفية ، فيسبغ ذلك على مخارج أقاصيصه لوناً وجدانيًّا ( رومانسيًّا ) وهذا يظهر بوضوح في أقصوصتي « صراع » و « عندما يكره الرجل » على أنك بعد ذلك تصيب غلبة اللون الباطني في بعض الاقاصيص كما هو الحال في أقصوصة « كانت أمينة » ففيها تظهر بعض معالم التفكير الفرويدي Freudism (ص ٩٤) وأقصوصة « الربيع الآثم » التي يبدو فيها التأثر بأفكار ريبو Ribot (ص ٤٣) . هذا فضلاً عما تصيبه من الاجواء الخيالية Romantique — في بعض الاقاصيص كأقصوصة « أضواء » (ص ٧٩) وعناصر المأساة (الفاجعة) Tragique في أقصوصة « الشكوى » . هي قطعة من الادب الانساني العالي . وأظن ان الوقت قد حان للانتباه لما في أقاصيص محمود كامل المجموعي من العناصر الفنية التي تجعلها حية بالشعور زاخرة بالاحساسات فتسبغ عليها قيمة أدبية خاصة

الاسكندرية اسماعيل أحمد أدهم

---

نشب نزاع

قدر يلهو

قصة تأليف الدكتور شكيب الجابري

لي وجه رفيقه صبوحاً تشرق النضرة من محيّاها فدعاها الى منزله القريب يصيبان فيه بعض شراب ساخن أو طعام ، وتمكنان قرب المدفأة ريثما يبدأ وابل المطر

كانت الفتاة متأهبة لسماع مثل هذا الاقتراح الجريء ، ويقول المؤلف « فنظرت الى صبي بعد ان ألقيا على الطعام كله فذا القلق على عينيه ، وكانت كأنها المتحير مكروهاً لا بد من وقوعه .... ويقول « أعددت لها ما يلزم للطعام ، ثم غادرت الغرفة ورجعت بعد دقائق فاذا الفتاة مدثرة لم يظهر منها سوى خصلات شعرها المشمشة الذهبية »

هذه الفتاة الهائمة على وجهها قصة موجعة تماثل وجائع أخواتنا اللواتي يلقين المنت الجائر والتسلف المنس من زوجات والدهن فيقترن هاربات منهن ، ومن اكتشار وجه الحياة في عيونهن ، ومن والدين وقد اغفلوا فيهن روح النور بصدودهم عنهن وارتمائهم في احضان زوجاتهم ، وقد قصها لصديقها هذا الذي اواها بعد تشرد ، واشبعها بعد جوع ، أخذت الفتاة تقول

« في ليلة أغرمت فيها زوجة أبي بي اهانتي ، وقتلي والدي في الاغضاء عنها ، في تلك الليلة نبا عني الكرى ، وضاقت في عيني آفاق الحياة ، وأخيراً مضى في ذهني خاطر دفع بي الى جمع ثيابي ، والتسلل محطة بتود والدي ، والذهاب الى المحطة تركبت القطار الى برلين

في برلين انكشفت لي المدينة الكبرى عن حقيقة ما انطوت عليه من فقر ودقة ، لم أدع باباً من ابواب الرزق الا طرقته ، نضبت دراهمي ، أخذ الجوع بداهمني ، طردت من شرفق ، لجأت الى الحدائق العامة ، شاهدت في زواياها المظلمة شماسة قوس الرجال ، تضاءل الحياء والخوف والرهبة في دماغي ، وحين ذاك كان المعول متجمداً في رأسي والحمى تنضح لي أذني ، وكان قد مات في قلبي جميع ما غرس فيه من حذر وحياء ، وعفاف ، فما عرضت علي أن اصحبك حتى فعلت وصوت الجوع يهمس في أذني ، فمت ذلك الرجل اجتمع الشيق فأسات بك الظن « أما الآن فيخيل لي أن أذكر اني لقيت رجلاً قبل ذلك ان تنظر في سيرة حتى على هذا الاساس من الثقة والجنان ، والاكبار والاحترام ، والتجاوب الروحي ، وعلى بعدهم الآلام والفهم لظواهر الاشياء وخباياها تأسست وتركزت اصداقة بيننا

طرأ على حياة الرفيقين ، جعل وجه الفتاة يطوه الوجوم وانشجن الامر الذي أقحط الغيث وجرد الشجر فأسف وهو المطور على التخلف عن الايدي العاملة والاستعانة بالبيوت الوضاءة يستهدف كل يوم هدفاً جديداً وينفذ من معين جديد ، غافلاً عن استطلاع كنه شجن رفيقه وسبب وجومها ، وأخذت هي تجد في النظر الى مستقبل حياتها ، وتسل بلباقة المرأة ودهائها على الا تدع رجلها يملك منها

لم تكن تتارم تيار الرجل اتئاداً على جاها وثقتها بل كانت تجاريه بسليقة الفضيلة والبساطة والطهارة الصافية

حين وقت عودة الشاب الى وطنه وقد أتم دروسه ، وتحمد وعد السفر ، فلم تطق الفكرة الذهاب الى لحظة خوفاً من افتضاح حبها الصامت ووجلاً من أن يخونها جلدها ، بل حملت احد المودعين كتاباً قالت فيه « .... أما اليوم فني أبدي لك شيء غير خائفة منك سداً ولا هزؤاً .... كتبت اليك لا لادخل الحزن فؤادك أي أتكد سفرك بلعنة قاتلة حقاء ، بل لاعد ذهنك لامر جلل .... وان تنظر في دني الذي جئته عمداً عليك وعلى بريء نالت هو ثمرة حبي القارئ ووليد اثانية عمياء دفعني اليها حب الحياة دفعاً .... لقد عرفتك بأعلاء الدين كريماً شريفاً ابوياً وسيكون ابنك أنموذجاً كريماً .... اعتقد ان المرأة المولودة غريبة من بؤرة الرذيلة عالماً في دليلة تحب بنفسها لنفسها ، اما المرأة التي وهبت حياتها على انسان تحب وتحترمه فلا خوف عليها من الرذيلة ولو مرتها انياب الفاقة .... رجائي الاخير ان تذكرني باعلاء من آن الى آن ، بينك وبين نفسك ، فان ضلت سعدت وسعد ابنك »

* * *

فهم حب علاء الدين لصديقه ايلزا كما تفهم الحياة في الفجرة ، ولم يلبث ان ماتت ذكريات درست الاحزان اطلالها ورسومها وعفت شعوبها ، والشباب بطوحه من تلافيف في غيابات لا يحصى من رسوم وصور وحوادث وذكريات لا يعود اليها الا في ساعات الاسى الموجعة ، او الكآبة واليأس من ابتداع صور وذكريات جديدة ، او مفاجأة عارضة مذهلة ، وقد تكون تجمعت هذه العناصر دفعة واحدة لتقذف بعلاء الدين الى احضان الملاهي ليرى الراقصة المكاني اصرت لب صديقه الموظف في الحكومة الذي كان يتخطى الحصول على المال يغدره على مائدة الشراب وهو الذي عانا معاً مخاصمة ثراء الحكومة والسجايا

النبيلة لهذه الراقصة المجبرة من طينة تختلف عن النساء اللائي عرفن

عرفت ايسكا علاء الدين ولكنه لم يعرفها أبدا قط ، لقد عرف أيام قبل اثني عشر عاماً فتاة ، تتدفق الحيوية من عينيها ، والفتنة من تضارة شبابها ، والبساطة في هندامها المتواضع ، أما الليلة فهي سيدة أنيقة مرحة لعوب ، عملت أيدي التزيين والتنميق في شعرها وعينيها ووجهها وبدنها وملابسها الطبيعة الجائرة اخاقرتها في رقتها وهو اذ ينظر الى عينيها « هذا بما تسطان بريق غير طبيعي يرتسم الوهن والضعف في تعب الهالة البنفسجية المحيطة بمحجريها » لقد عرفها حقاً وتجلت صورتها في ذهنه ساعة رآها مسجاة في سريرها مدثرة لا يظهر منها سوى خصلات شعرها الذهبية ، وسمع منها وهي تلهث وتسعل قصة جديدة ، قصة والدها الذي ربته وعملت لان يكون صنو أبيه ، وكيف جاهدت وغالبت الحياة لتكسب ما يوفر الهناءة والسعادة لذلك الوالد الذي سكبت فيه روحها وحبها ولكن الاقدار رزأتها فيه ....

لقد اضاعت المسكينة كل شيء وأصبح ما حولها فراغاً ، فأخذت تطوي احزانها بالخمر ، وتدغم بكاءها بالضحك ، وتبرقع سهومها بجنون الرقص وهي الآن تدعو علاء الدين الى الاقتراب لتودع بين يديه نفسها الاخيرة كما حيته من قبل النسمة المقدسة من حبنا المقدس

***

هذا ملخص مقتضب لهذه القصة الخالدة بنضائر من الفن لا تجد لها مثيلا الا في خزائن ابطال القصة من الغربيين ، وكان بودي لو يتسع المجال للتبسط في عرض خلاصات وافية لبعض فصول هذه القصة الرائعة الرائعة في خصائصها الفنية ، في كيفية العرض وطريقة الاسلوب ، في طبيعتها الموضوعية والذاتية وما يعتمد فيها على قوة الملاحظة ، وبراعة الاستقراء في رسم الاحساسات والميول الخاصة والعامة وتزجيتها لتصبح كائنا الروح الشائع في الجسد ، في بصيرة كاتبها النافذة التي ترى حقائق البواطن والظواهر ، ودوافع الجسم والارواح ، وتدرك طبائع الاشياء والاشخاص من خلال الظلمات والانوار ومن شتى الحالات النفس

الرائعة حقاً في اظهار مؤلفها البارع ببراعة طبائع الشهوات ونزوات الغرائز ، في مقدرته على اشعار القارىء بفقد من فيه الحقائق وصور الخيال التي هداه اليها في جعل التصورات المبتدعة من صميم الخيال تتمشى مع طبيعة الحياة المحسوسة ، في اتصالها عن ظواهر الحياة المشاهدة ، في الايحاء الكنيس الى استخلاص القصة التي يرسم في مجرة الحوادث وفي رسم ملامحهم وحركاتهم وما يطرأ عليها خلال اصطدامها بوقائع الحياة ، في انصباب الشغاف الذي يرتمي به وجه الحياة احساس المتقلب والقارىء فيما حسب الاستطلاع وغريزة الفضول

والرائعة حقا وحقاً في التحليل يقضي على العواطف بتأملها من وهاد النفس ليطرحها في النور ، في تغلب العقل على ملكات الاستشعار والاستبداد ، في المزج بين خصائص العقل الذي الى المنطق والنظام والتدريب والبناء وبين خصائص الخيال الفياض المبدع

لقد استجليت هذه المزايا الفنية في قصة « تحت الهدم » واني اذ أحتفي كل الحفاوة بالدكتور شكيب الجابري وأدعو القارىء الى الاشتراك معي في الترحيب به واجلاله اثناء الاولى ، لعبقريته في جمع هذه الخصائص واشاعتها في جوانب هذه القصة التي تعبر فيها الروح وترتمي لحياة واخيال والحب

ولو حاولت الانتقال من التعميم الى التخصيص لذكرت الحوار البارع ، والسخرية الدامية ، والنكتة اللماحة ، والنصح السديد ، والعبرة الحاذرة الى اغراض تبدو وتختفي وفق الملابسات ، والى وثبات ومضات تلك بين راحتي الدهشة والاعجاب

لا أحسب اجمال بسحر ، وتلك بجملتي التعذر عن ليس بفائق وساحر ، غير اعتقد في هذه القصة تمثل المؤلف اتجاه كان ، سيرا في الطريق الذي يريده من الاسلوب التعبيري الخاص مثل ذلك « قلبه » الق الحين في فؤاده « واد ... الذي يزيد بلا نهر ، و « ... » صمت الصباح و « ... » صحك ل فتور « وحرارة » وهي ... للتعبير و « القلق » ان كلوب في لسان كل والعقاد ، وعشرات من كلمات ليس في الامكان ... يقل الموهبة على المقولات من نوع ... وكان في اوسع ... الزكاة باثبات كلمة نقد المعنى ... بل تحصر القارىء ... الى الموضوع ... الموضوع ... ينطق ... لا شك ... روح الصدق ... موهوب

القاهرة حبيب الزحلاوي

# باب الأخبار العلمية

## قلوب من الفولاذ

### لاجل البشر

ما فتىء ما ينتاب القلب من آلام ونوبات ، وروقوف عن أداء وظيفته ، مصدراً لمذاهب شتى تفضي الى خلط تلك الاوصاب بعضها ببعض ، حتى أجمع العلماء على ان جراحة القلب وتريبةٌ من اشق العمليات وأدقها

ومع ذلك فقد تجدد الآن الأمل في نجاح تلك العملية الشاقة وذلك بالنتيجة الحسنة التي نتجت من تجربة حديثة عملت في القلب أو اختراع خاص به ، كما ينبغي أن نسميهُ ، يرجى منهُ فتح ميدان جديد في جراحة القلب ، ونعني به صون الحياة باستمرار خفقان القلب حين يكون قد وقف . وكان المألوف الى عهد قريب جداً ألاَّ يتعدى مشرط الجراح الذي يعهد اليه في عمليات القلب ، المقطع الخارجي لذلك العضو النابض الذي هو مصدر الحياة ، مثل خياطة اقلب جرحه لجروح طعن يصيبهُ واتساعها من الاصابات أو اجراء العمليات في اللاءة القلب بقلب وهو تاموره او شغافه أو جرابهُ ذجيج من حين الى آخر في استخراج الحصوات المرة منهُ

نرجو الآن ان يصبح ترميم أضمة القلب التي يمنيها المرض فيتلفها ، في داخل القلب مأمون العاقبة بل أمراً واقعيًّا وذلك باستعمال قلب صناعي فولاذي بديلاً للقلب الطبيعي ، ورثة صناعية فولاذية

وبينا يبدو لنا ان القلب والرئة الفولاذيين شيء مخالف لمبتدعات الفنون المصرية ، ترى هذا الجهاز الحديث قد نجح وبلغ شأواً عظيماً في جامعة بنسلفانيا حيث استباع القلب الفولاذي تلقي دماء الدورات الدموية التي كانت تدور في اجسام ١٣ من الحيوانات المريضة وجميعها من السناجير ، وأغلبها ما يزال حيًّا حتى الآن ، مع انقضاء حوالي ستة على تلك العملية . وقد وضعت قطة منها بضع قنيطات بعد مضي ستة اسابيع على امدادها بذلك الجهاز الجديد

وهذا المخترع « بفتح الراء » العجيب ، ثمرة من ثمار المباحث الدقيقة التي يباشرها الدكتور [illegible] الجراح في جامعة بنسلفانيا وهو حفيد جيبون الصغير ، وهو طبيب في قسم هارفيون الخاص بمباحث الجراحة في جامعة بنسلفانيا ، وقد أعلن هذا المخترع ( بكسر الراء ) في جمع مؤلف من مجمع فيلادلفيا للجراحة جمعية بوستن لجراحة أيضاً ، رأيهُ في جهازه قبل ان يدنو القلب والرئة الفولاذيين المصنوعين بمعدن الكروم نقد يتعلمان يوماً ما القيام بجزء من الاقل من عمل القلب في الدورة الدموية نشرية وزناً بختلف من شخص

دقيقة الى ساعة . وبهذه الوسيلة يتاح القيام بالعملية في القلب ، وهو الأمر الذي كان مستحيلا أداؤه لعجز المريض عن الحياة بغير دوران الدم في جسمه

وتتبين ضرورة تركيب ذينك القلب والرئة الفولاذيين ، للمرضى المصابين بداء انسداد الشرايين الرئوية وهو من المضاعفات الخطرة جداً التي قد تعقب عمل العمليات في الاعضاء الاخرى من الجسد حين يتجمد الدم بغير سابق دليل فيسد فجأة الشريان الذي ينقل الدم من القلب الى الرئتين ، ومن ثمة تحدث الوفاة عاجلا . وقد تقع في الحال غالباً ، وذلك في أقل من ربع ساعة . ويأمل الدكتور جيون أن يتاح للقلب الفولاذي توصيله سريعاً الى المريض قبل مضي ١٥ دقيقة أي قبل أن تدركه المنية ؛ فيتسنى لمجراح النجاح في ازالة التجمد الدموي

والجهاز المشار اليه لم يجرب حتى الآن في غير القطط ، وهو مؤلف من اسطوانة معدنية تدور ٣٠٠ دورة في الدقيقة ويطلق فيها الدم من أنبوب يسلط على العرق المعروف باسم جلد الوريد في عنق الحيوان . وحينما تدور الاسطوانة ، تقذف الدم على بطانها وذلك على شكل غشاء رقيق يستطيع بسهولة امتصاص الاوكسجين الداخل في الرئة الصناعية من رأسها . وهذه العملية شبيهة بعملية صبق الاصل اذ يحدث في بطانة الخلايا الحوائية الدقيقة في الرئة الطبيعية . يجري الدم المشبع بالاوكسجين

الجديد في القلب الفولاذي ، وهذا يقذف به مرة أخرى في الشريان الساتي (وهو أحد الشريانين الرئيسيين في العنق) الذي في عنق القط ، كما هو في عنق الانسان ثم يقذف الدم الى الخلف في القلب الحي ومنهُ الى سائر أعضاء الجسم . ويبلغ مقدار الدم الذي يطلق في ذلك الجهاز الصناعي في التجارب نحو مائة درهم في الدقيقة

وأراد الدكتور جيون اثبات النفع الفعلي للقلب الصناعي في أثناء التجارب التي جربها فأحدث في القطط سدوداً شريانية لكي يشاهد ماذا يستطيع القلب الصناعي من العمل والحالة هذه فتبين أولا على الشريان الرئوي بملقط فاغلقه بينما كان القط مستمراً في التنفس . ومع ذلك لم يجد التنفس نفعاً بوقف جريان الدم في الرئتين واستطاع الدكتور جيون أن يشبك قلباً صناعيًا في عشر دقائق بشرايين العنق . أما في الاجسام البشرية فيمكن استعمال المعصم أو الذراع بدلا من شرايين العنق وتقوم البطارية الكهربائية بتنظيم الضغط والنبض في القلب الميكانيكي . وليس الدكتور جيون السبب الوحيد الذي جرب تلك التجربة ، في وظيفة القلب بل جاراه في ذلك الدكتور راسخو ستارSterling Hall أستاذ الجراحة العلاجية في جامعة بنسلفانيا اذ تبين مبلغ ما يخلفه القلب الطبيعي من الدم في كل ضربة من ضرباته وذلك باختراعه جهازاً اسمهُ [illegible] كارديو بليثوجراف أو المسجل القلبي الدموي وهو

سرير يعلق بالسقف الداخلي للحجرة بحيث يهتز مع كل خفقة يخفقها القلب فيبين بالرسم التخطيطي على صفيحة خاصة معدة لذلك مقدار مايطلقه قلب المريض في كل ضربة. وقد أثارت بعض التجارب العلمية التي جربت في القلب هم العلماء ولفتت أنظارهم أشد من غيرها وكان أعظمها تجربة كاريل ولندبرج بالقلب الزجاجي الذي يقوم مقام مضخة تطلق محلولاً مغذياً الى قطعة من النسيج البدني لتجعلها تواصل الحياة. ويستعمل القلب الزجاجي لاحياء العدد خارج الجسد

ويسر كاتب هذه السطور مجاراة لقولهم « الشيء بالشيء يذكر » أن يثبت في هذا المقام ما كتبه في صباه على اكتشاف كاريل العظيم حين اذاعته الدوائر العلمية منذ ٢٧ سنة وذلك في مجلة المحيط (لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض افندي واصف) التي كان مشتركاً في تحريرها في ذلك العهد في مقال نشر في شهر مارس سنة ١٩١٣ بعنوان « سر اطالة الحياة »

## طائرات تحمل اجهزة التلفزيون لتصور

## تستطلع خطوط الاعداء وتتجسس احوالهم

قالت مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي :

ستحلق عما قريب في الجو، مدوية بعيدة عن مرمى مدافع الاعداء المقاومة لها، طائرات من سلاح الطيران الملكي الانكليزي، تقوم بالتقاط صور مواقع الاعداء، ونقلها الى مقر رآسة الجيش في الميدان الغربي وغيره وذلك بفضل اختراع بريطاني، نالت امتيازه شركة الاذاعة المصورة الكبرى البريطانية، قبل نشوب الحرب الحالية. وهو جهاز يكشف بالتلفزة، عما تحويه بلاد العدو التي تطير فوقها الطائرة المجهزة به من الاستحكامات الحربية وغيرها بسرعة اذا توتيكية قصد في الحصول على المعلومات الخاصة بحركات جيوش الاعداء

ويركب هذا الجهاز على مائدة في قعر جسم الطائرة وهو في منزلة مصورة جوية للتلفزة ذات عدسات مقربة تعمل دائماً في اثناء طيران الطائرة. فاذا تحلقت مثلا فوق خنادق الاعداء ومصاطب مدافعهم وطرقهم الحربية ومستودعات ذخائرهم، التقطت تلك العين المتلفزة، ما تصادفه من الاضواء والظلال وحولتها الى نبضة خفيفة من النبضات الكهربائية. ثم يقوم جهاز محكم قوي من اجهزة الراديو باطلاق تلك النبضات في الجو، فيما يجلس قائد الجيش في مقر القيادة، أمام شاشة تلفازه المستقبل، مترقباً نشر مكنونات صور ذلك المنظر الشامل الذي تحملها الطائرة، ليستجليها. وكلما تبين ظل أو نور، صورة مهمة من تلك الصور عرضها ثبوتاً في الخريطة الحربية المبسوطة أمامه. ذلك في الموضع الذي يجب تنبيه المدفعية الى تسديد نيرانها اليه أو في المكان

الواجب توجيه الطائرات النافذة القنابل صوبه. وعدا الاستطلاع الذي يتم عادة بالتصوير الجوي فان للتلفاز الجديد فوائد جليلة في تنظيم القوات الحربية وكيفية استخدامها ، بحيث انه حالما تؤوب الطائرة الحاملة اياه الى قاعدتها ، او حينما تجلى الشرط الفوتوغرافية التي تأتي بها يقوم المختصون حالا باحداث التغييرات الحطيرة الواجبة في ميدان الوغى على ضوء مايستطلعونه من أحوال العدو التي تجيئهم الطائرة بصورها

ثم ان التغييرات التي تحدث في تنظيم الفرق الحربية المتنقلة بالسيارات او غير ذلك من الحوادث التي تقع سريعاً في الحرب الحديثة يحاط علمها اتمام في حال حدوثها وذلك باستخدام الجهاز المشار اليه وهـــذا عدا كون عين التلفزة تكشف عن الحيل التي يلجأ اليها الاعداء اخفاء لمدافعهم وسفنهم وسائر اهدافهم الحربية مما لا تظهره الصور العادية التي تصور من الجو ، فالجنود الذين يستترون بأغصان الاشجار واوراق النباتات التي يلقونها بأغطية رؤوسهم ، عند زحفهم ، تفهقرهم ، يتعذر تمييزهم في الصور الساكنة من الاوساط التي تحدق بهم . أما ستارة التلفاز المستقبلة التامة ، فتبين جليًّا اي شيء متحرك فتجعل تخفي الاعداء من اشق الامور عليهم . وبهذه الوسيلة يتاح تصوير كل منظر من المناظر المفيدة المتازة تصويراً فوتوغرافيًّا على ستار الجهاز المستقبل السالف الذكر . قلت ولعل هذا النبأ العظيم يفسر لنا مغزى الغارات التي تشنها الطائرات الانكليزية ، على مدن المانيا ، متظاهرة بأن مهمتها مقتصرة على القاء المنشورات على الشعب الالماني لتوقفه على الحقائق السياسية التي تخفيها عنه حكومته

## عجم الخوخ

### يقاوم الغازات السامة

اهتم الناس في انكلترا وغيرها من البلدان اهتماماً عظيماً بزيادة المقادير التي تصدرت من الخوخ الى المانيا في خلال الاثني عشر شهراً الماضية . وقد تبين الآن جليًّا ان الذي حدا المانيا على الاكثار من استيراد الخوخ عجمه لا لبه. اذ تقرر الخبراء الالمان ان عجم الخوخ اذا أحرق واستحال فحماً كان من افضل المواد الواقية من أضرار أي غاز من الغازات السامة التي تستعمل في الحرب ، اذ يوضع فحمه في الاقنعة ، بآلة خاصة تقوم بتنظيم المقادير اللازمة منه لكل قناع ، بحيث تصبح شحنة واحدة من ذلك الفحم الخوخي كافية لصون حياة الجندي اسبوعاً كاملاً ، حينما يستهدف لخطر الغازات السامة عند استخدامه في تعبئتها من مخازنها في القنابر المزمع تجهيز الطائرات بها ابتغاء الاغارة على خطوط الاعداء وتنتج كل مائة عجمة من عجم الخوخ مقداراً من الفحم يكفي لقناع واحد من الاقنعة الواقية من الغازات المهلكة

عرض جندي

# فهرست الجزء الاول

## من المجلد السادس والثلثين


١ تأثير الحب والبغض والغضب وغيرها من الانفعالات في الصحة والمرض

١١ رجل المجهول : لاسماعيل مظهر

١٤ تأسيس القاهرة : لحضرة صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا

٢٠ تأسيس الجديدة (قصيدة) : للشاعر علي محمود طه

٢١ ايليق ان نشيخ : مباحث حديثة في موضوع خطير

٢٨ حجر الفلاسفة يتحقق في القرن العشرين : للدكتور امين يراده

٣١ خليل مطران — عبقرية الابداعي : للدكتور اسماعيل احمد ادهم

٤١ البرون ومستقبله : لامين ابراهيم كحيل

٤٦ حياة مدينة سودانية : لليوزباشي عبد الرحمن زكي

٥٧ هنري دافيد ثورو : لمحمد عبد الغني حسن

٦١ الحمض والماء في الصحة والمرض : للدكتور عبده رزق

٦٥ سير الزمان * مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية . — فترة التفاؤل والتقدم . ٢ — ثورة الاحباط . ٣ — النظام النازي وأساسه . ٤ — مقدمات ونتائج . (أ) معاهدة فرساي (ب) خيوط المؤامرات (ج) الروح الدمقراطي

٧٢ مكتبة المقتطف * [illegible] الاشراف الملائم : للدكتور بشر فارس . فلسفة الحب . النقود العربية بقلم الجبرتي . المحكم في أصول الكلمات العامية . للدكتور بشر فارس . في الادب المصري الحديث . الاسلامي من الفتح الاسلامي الى دخول العثمانيين : لحسن ابراهيم حسن . ثورة الاسلام وبطل الاقبال . [illegible] : للدكتور اسماعيل احمد أدهم . [illegible] : لخليل الجارم . الحلاوي باب الاخبار العلمية والأدبية من القول . مخترعات تجعل اجهزة الراديو المصورة . عجم اخوخ فاكهة الفاكهة . [illegible] من جنوب

٩٧ لحق بالمقتطف * اوقات الفراغ وكيف نستثمرها

٩٩ (١) — للدكتور محمد حسين هيكل باشا

١٠١ (٢) — للدكتور منصور فهمي بك

١٠٨ (٣) — للدكتور علي عبد الواحد وافي

١١٤ (٤) — للاستاذ امين ابرهيم كحيل

١١٧ (٥) — للاستاذ احمد شفيق زاهر بك

١٢٠ (٦) — للاستاذ زكي بدوي

# أوقات الفراغ

## وكيف نستثمرها

في النواحي الفكرية والفنية والرياضية
والاجتماعية والخلقية

---


الدكتور محمد حسين هيكل باشا

—

الدكتور منصور فهمي بك

—

الدكتور علي عبد الواحد وافي

—

الاستاذ امين ابراهيم كحيل

—

الاستاذ احمد شفيق زاهر بك

—

الاستاذ زكي بدوي



لجنة بمقتطف يناير ١٩٤٠

« إن أريد الا الاصلاح ما استطعت »

# تقدمة :

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا

الوزير السابق لوزارة المعارف العمومية

ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي

هذه مجموعة من المحاضرات ألقاها بعض حضرات أعضاء ( رابطة الاصلاح الاجتماعي ) في اجتماع المؤتمر الذي اقامته الرابطة بتاريخ ٦/١١/١٩٣٩ للتحدث عن اوقات الفراغ . والمحاضرون جميعاً رجال عرفت الأمة المصرية ، بل عرفت الأمة العربية كلها مكانتهم ، وتفضلهم بما عرضوا له في هذه المحاضرات من شئون . وحسبي هذه الكلمة لأدل القراء على ما لقيت هذه المحاضرات من نجاح ، وما يجدونه في تلاوتها من متعة وفائدة

والموضوع الذي تعرض له مؤتمر الرابطة : « أوقات الفراغ والاستفادة منها » : من أجل الموضوعات وأدعاها الى التفكير . إنا جميعاً نزاول في كل يوم أعمالاً في الحياة بطالما الحرص على الحياة بمزاولتها . هذه الاعمال هي التي نكسب منها رزقنا ورزق من نعول ، وهي التي تستفد من نشاطنا أعظم جانب . فاذا أتممناها بقي لنا من وقتنا فراغ لا بد لنا من أن نملأه . وهذا الفراغ يطول أو يقصر ، بمقدار ما يطول العمل للحياة أو يقصر ، على نسبة عكسية بطبيعة الحال ؛ في أي شيء ترانا نقضي وقت الفراغ هذا ؟ يختلف الناس في الأمر رأياً ؛ والاختلاف هو الذي جعل حضرات المحاضرين بالرابطة يعرض كلٌ واحد منهم على الناس رأيه

لكن اختلافهم هذا لا يرجع الى أن احداً منهم يدعو الى ترك أوقات الفراغ فارغة . وانما يريد كل واحد منهم أن يوجه الشباب وغير الشباب الى ناحية بذاتها يشغل بها وقت فراغه . يريد بعضهم أن يكون وقت الفراغ للرياضة البدنية ؛ ويريد البعض أن يكون للمتاع بالفنون الجميلة ؛

ويريد آخرون أن يكون بتثقيف الذهن بالمطالعة أو بغير المطالعة . وذلك كلهُ حسن ، وكلهُ حق ، على رغم ما يبدو من اختلافه

فأوقات الفراغ إنما جعلت بطبعها لرياضة النفس . والناس يختلفون في ميولهم نحو هذه الرياضة . ويرجع اختلافهم الى طبيعة العمل الذي يزاولونه في الحياة حيناً ، والى اختلاف أمزجتهم حيناً آخر ، والى اعتبارات ذاتية قائمة بنفوسهم حيناً ثالثاً . لهذا يسعد الذين يشغلون أنفسهم في الحياة بالعمل الذهني ، إذ يتسلون بالرياضة البدنية في أوقات فراغهم . وقد يكون من هؤلاء مع ذلك من يؤثر التسلي في وقت فراغه بالفن الجميل او بمطالعة كتب الادب وما اليها. فأما الذين تقتضيهم حياتهم العمل الجسماني لكسب رزقهم فيودون أن يفيدوا من وقت فراغهم لتثقيف أذهانهم ، وزيادة معلوماتهم ، وقد يؤثر بعضهم ان يتعمد الحياة بأساليب مختلفة . وأنت ترى من هذا ان وقت الفراغ هو الفرصة التي يرجع الانسان في خلالها الى نفسه ، والتي يشعر فيها شعوراً حقيقياً بما في الحياة من نعمة او متاع . وهو لذلك يسارع الى هذا المتاع ينعم به كما وجد اليه السبيل

ما دامت الاعتبارات الذاتية هي التي تصوّر لنا خير ما نتجه اليه في أوقات فراغنا ، ففيم المحاضرات إذاً والبحث؟ ان هذا السؤال لا يرد على النفس وكلنا نعلم ان أوقات الفراغ يحسن أن تقضى في الجماعات لا في العزلة . وكل عمل يتصل بالجماعات يجب أن يكون موضوع بحث ومحاضرة . هذا الى أن من الميول الذاتية ما يتجه الى الضار الوخيم العاقبة ، فلا بد من نصيحة الناصح ، ومن رأي المحاضر لاتقاء هذه العواقب . وهذا هو السبب في ان « رابطة الاصلاح الاجتماعي » قد حرصت على ان تجعل من وقت الفراغ موضوعاً لابحاثها ومحاضراتها حتى ترد الضرر عمن قد تنزع بهم ميولهم اليه ، وحتى يقول كل محاضر من المحاضرين المتازين لأبناء وطنه وأبناء لغته ما يرى فيه الخير لهم ولأمتهم

واني لواثق بان يقدر قراء هذه المجموعة من المحاضرات ما تحتوي عليه من آراء قيمة ، كما اني ارجو ان يتاح لرابطة الاصلاح الاجتماعي ان تعود في مؤتمراتها التي تعقدها بين حين وحين الى ( اوقات الفراغ ) تجعلها موضوعاً لابحاث ومحاضرات جديدة . فهو موضوع تتجدد الآراء فيه كما ازداد الافراد تقديراً لما لأنفسهم عليهم من حق ، ولما للرياضة النفسية من اثر صالح في المتاع بالحياة

# أوقات الفراغ

## وكيف نستثمرها

للأستاذ الدكتور منصور فهمي بك

المدير العام لدار الكتب المصرية

---

### قيمة البحث

للحديث عن أوقات الفراغ قيمته عند من يقدرون ان الوقت من ذهب ، وإن التحدث في استغلال الوقت لهو من احب الاحاديث عند من يقدرون نفاسة الزمن . ولعلَّ قائلاً يقول ان الرشيد من الناس هو أعلم بما يرضاه لنفسه في أوقات فراغه فليس في حاجة الى من يذكره بأمر هو أولى بالعلم به من سواه . وفي قول هذا القائل بعض الصدق اذا جاز ان جميع الناس هم على علم بأحوالهم ودوافعهم حين يقدمون على امر وحين يتأخرون وحين يستخدمون اوقات فراغهم على نحو أو على نحو آخر وحين يكون قضاء ما تتوق اليه نفوسهم سهلاً ميسوراً . لكن لو دققنا النظر لوجدنا ان بعضاً من الناس لا يعلمون كيف تقضى اوقاتهم على خير وجه وان بعضاً آخر قد يعلمون ولا يجدون الوسيلة، وذلك لان الفرد منا يعيش مع جماعات تيسر له الوسائل لما يريد . وقد تعسرها عليه . هب ان فرداً من الناس يود ان يقضي بعض يومه في متحف أو في بستان لكنهُ لا يجدها في ظل الجماعة التي يعيش فيها ولا في القرية التي هو أحد افرادها ، أفلا يقال حينئذٍ ان الفرد يريد شيئاً لا يقدر على الحصول عليه بنفسه وان الجماعة التي قد تقدر لا تهيء له ما يريد ؟ . وهب عكس ذلك ان مدينة انشأت متحفاً لينشاه من يريد من الافراد وان فرداً من الناس يجهل فائدة التردد عليه ، أفلا يقال ان الجماعة هيأت خيراً للفرد وقد منعهُ جهله من الحصول عليه ؟ . ولعل اشد ما يوجه النظر الى التفكير في اوقات الفراغ أن المدنية الحاضرة قد اتاحت فيه وتتيح بمبادئه أمامهم بحكم توالي الاختراعات الآلية التي تخفف جهد الانسان وتقلل الحاجة الى الايدي العاملة وكذلك بحكم الشرائع والقوانين التي تسن لحماية الافراد من عنت الكد والارهاق . ولقد توقع بعض الاجتماعيين ان ساعات العمل في اليوم قد تصير بعد نصف قرن حول الخمس وان عمل الانسان في العام كله لا يزيد على ثلثمائة من الايام، وسواء اصح هذا التكهن في تفاصيله أم لم يصح فان الواقع يؤيد مجمل معناه فأوقات الفراغ تزداد اتساعاً وتختلف عن اتساعها ضرورة البحث في وسائل شغلها

ومسائل وقت الفراغ وشغله تهمُّ من يرأون بالايام التي قدرت لهم في الدنيا عن ان تكون ثقيلة على نفوسهم فمن المسلم به أن الوقت الذي يمر على المرء دون ان يشغل بما ترضاه النفس قد يصبح ثقيلاً مؤلماً يسأم ويمل بخلاف ما اذا تقضى في مشاغل ترضاها النفوس فانه يصبح مؤنساً ومسعداً . كذلك تهم مسألة الفراغ الجماعات التي يعنيها ما يبسط للناس في سعادتهم وما يمد في اتاحهم واستغلالهم للزمن . وما دام وقت الفراغ له قيمته عند الجماعات باتصاله بالانتاج . وله قيمته عند الافراد . فلا عجب إذن أن تشترك الجماعات والافراد في تقدير شأنه ، ولا عجب ان تنعقد المؤتمرات وتساهم الحكومات في تمحيص هذا الموضوع

ولو كانت الطبيعة هيأت للناس جميعاً ان يقضوا يومهم فيما يشغله ويملؤه ، حتى اذا أنهكم مجهود العمل عمدوا الى قسطهم الطبيعي من هنيء النوم وراحة الناس لما كان لنتحدث ان يتحدث في وقت الفراغ . ولو ان نظم الحياة الاجتماعية هيأت للناس جميعاً ان يصرفوا ما يتفق وقواهم وكفاياتهم ورغباتهم واستعدادهم ورضيهم الانسانية وان يشغلوا بذلك في كل ما يتاح لهم من الزمن ، لما كان ثمة حاجة لذكر مسألة الفراغ . لكن الطبيعة تفسح للفراغ مجالاً ، والحياة الاجتماعية تغري باستغلال هذا المجال لمصلحة الجماعة ولمصلحة الفرد . على انهُ اذا وجدت الاسباب التي تهيأ منها ان يستغل زمن الفراغ استغلالاً حسناً ، فان الانسانية تجني من وراء ذلك ثمرتين من أطيب الثمار ! فأما أولى الثمرتين فتطهر الانسان بما يخفف وطأة القلق عن النفوس حين يعتريها الملل من أثر الخلو من المشاغل المحمودة ، وتلك نتيجة جديرة بالسعي الى بلوغها لأنها تعين الانسان على ما ينشده من الطمأنينة النفسية . وأما الثمرة الثانية فهي تحويل أوقات الفراغ الى فرص تستغل لرفع الانسان الى مستوى أرقى مما هو عليه ، وذلك بتعزيز العواطف النبيلة وتقوية الفضائل في نفسه وتوجيهه الى المثل العليا التي تنشدها الانسانية . وانهُ بمثل ذلك الاستغلال تضعف عوامل الخصومة بين الناس ويقوى حسن التفاهم ويقرب عهد السلام

## صور مختلفة لأوقات الفراغ

ويحسن ان نستعرض صوراً مختلفة لأوقات الفراغ لنواجه كل صورة بما يوافقها من طرق الاستغلال وأدواتها . في هذه الدنيا وفي مختلف أجناسها وأممها زراع وصناع يغلب في أعمالهم جهد الجسوم وفيها عقليون وفنيون يغلب فيها يحترفونهُ جهد العقول ، وفيها من استنفدوا الكثير من قوى الابدان والعقول ، ومن استغالوا من تكاليف الحياة وعنائها كالمرضى والشيوخ . وفي الحياة أنواع من الناس لا تتحدد عندهم قيمة الوقت ولا يتحدد عندهم تقديره ولا ضيقه ولا سعته كالاطفال الذين يبسم لهم ثغر الزمن . وفي الحياة من مالوا عن جادة المألوف فلا

يشعرون بوطأة الايام والزمن على نحو ما يشعر الانسان الرشيد ، ويصبح الفراغ لهم أداة من أدوات العبث ، كالمخدرين والأشقياء . ومن أجل التنوع إذن في أعمال الناس ومهنهم وطبقاتهم وثقافتهم وأحوالهم النفسية ، تتعدد صور الفراغ ولذلك يجب على الباحثين ان يجدوا لكل صورة منها ولكل طائفة من طوائف الناس ما يناسب من طرائق استغلال أوقات الفراغ . لكن برغم هذا الاختلاف والتنوع فبين الناس جامع مشترك يوحد بينهم في بعض الوسائل التي تتخذ لشغل اوقات الفراغ ذلك ان جميع الناس مهما تعددت اجناسهم أو طبقاتهم أو اختلفت اعمارهم أو تنوعت مهنهم . فانهم يشتركون في التمتع بحسن الصوت وجمال النغم ، ويتجذبون لمظاهر الفن الجميل وأساليب الجمال ، وانهم يخضعون كذلك بدافع من جسومهم وغرائزهم لطلق الهواء ومنتشر الضياء . لذلك ينبغي ان يكون الحظ الاكبر في شغل وقت الفراغ للموسيقى والفن الجميل ورياضة البدن

## أهم الأغراض من وقت الفراغ

وفيما نحن بصدده ليست تطلب العناية بالموسيقى والفن الجميل الى الافراد فحسب انما اكثر الرجاء في تعميم تعلمها ونشرها يكون من جانب الحكومات والجمعيات ، لأن الحكومات الساهرة على مصالح الشعوب ترى لزاماً عليها مدّ الاسباب التي تمكن الناس من التسامي وتجنب الوساوس السيئة وليس أشد أثراً من الموسيقى للوغ ذلك فيصح ان يقام في كل مدينة وفي كل قرية منتدى رائض فيه العمال في أثناء فراغهم من العمل على الانشاد والاغاني والمعازف والى مثل معاهد الموسيقى ومنتدياتها يهرع الناس عن طيب خاطر لأنها تتفق مع هواهم وميولهم ولا يسأمون الوقت الذي ينفق في سبيلها . ربما تكون بعض أنواع الموسيقى أرقى من ثقافات أصناف من الناس وأعلى من مستوى أفهامهم وأبعد من مألوف أذواقهم ، ولا شك أن هذا الصنف من الموسيقى لا يكون عوناً صالحاً للناس في استغلال فراغهم الا اذا فهم ومرنت الاذواق عليه والاسف ألا يستعان به على وقت الفراغ الا عند مهرة وتذوقه . وانه لأولى بمعاهد هذا الفن الجميل ان ترعى من الاغاني والاناشيد ما هو ادنى الى الذوق العام وأقرب الى نفسيات الجماهير ولعل ذلك يكون برعاية الانغام والاناشيد الدينية والشعبية ، ذلك لان تعميم الموسيقى مهمة شاقة تتكاتف عليه عشاوة العيش والحياة قائمة بمثل هذه الخلائق بسبب ، ومهما تزاحم على اسلوب الحياة الآلية والمادية فانها تحن الى الجماعة والشعوب بسبب

وعلى نحو ما ذكرت من فضل الموسيقى في استخدام وقت الفراغ أذكر ما للمصارعة من اثر صالح حسن ، وأرجو ان ينشر في انحاء البلاد وأقاليها ، بل ارجو ان يبث في البيوت وحيها

على انهُ ينبغي ان تكون محتويات المتاحف الاقليمية ذات معنى لا يتعذر ادراكه ولا يتعسر تذوق دقائقه لمن ليسوا من خاصة الناس وليس المقصود من صورة تعلق أو تمثال يقام او تحفة تقر في مكان ، ان يقع البصر عليها دون ان يحرك في نفس الرائي معنى من المعاني السامية أو عبرة من العبر البالغة انما المقصود من غشيان المتاحف الشعبية أن تلهم محتوياتها النفوس بما ترتقي به وأن تغذي مناظرها القلوب بما يصرها بفضائل وأن تنال منها العقول غذاءه من المعاني السامية

***

وهناك جهة أخرى يحسن ان يشترك اكثر الناس ايضاً في استخدامها لاوقات فراغهم ، تلك هي ناحية الرياضة البدنية ، وهي لا تقل خطراً عن ناحية الموسيقى والفن الجميل فكما أن الناس يجمعهم الاعجاب الى الفن وجماله ، فهم كذلك يشتركون في حاجتهم الى الهواء النقي والى اشعة الشمس المنشطة والى مرانة عضلاتهم وأعضائهم وقد تطلب مثل هذه الرياضة البدنية والعناية بها الى الافراد قبل ان تطلب الى الحكومات لان فضاء الله ممدود للرياضة وان هواءه الطيبة مبذول ونورها غير ممنوع ، ولان اكثر عناصرها الاخرى التي تصلح للرياضة ترحب بمن يصطفي استخدامها ممن يقدرون الرياضة ولكن مع ذلك فان الحكومات تطالب بكثير من العمل لتيسير أمر الرياضة على الناس وتحبيبها اليهم فعليها ان تنشىء المنشآت لذلك كالحدائق الجميلة الواسعة والطرق الممدودة والمراكز والمحطات التي يسكن الناس اليها ويرتاحون الى وجودها اذا ما ارتاضوا وعنوا بجسومهم وعافيتهم مما يتعذر على الافراد ان يقوموا وحدهم بأعبائه

هذه هي بعض النواحي العامة الجامعة التي تصلح لكثرة من الناس في استخدام فراغهم وليس من حرج أن اربط دور الصور المتحركة بناحية الفن الجميل . وقد تقرر لأول نظرة في دور السينما أن هذا النوع من أنواع الملاهي الذي يبلغ من العمر نحو الأربعين عاماً هو من اشدها جذباً للجماهير ومن أكثرها قبولاً عند تلاميذ المدارس والعمال وأحداث السن ، ومن أقواها أثراً في نفوس الناشئين . ولما كانت دور السينما مؤكدة السر أن يزمر من روادها رجالاً ونساء ، فقد رأت الحكومات الرشيدة استخدام هذه الدور لتعليم الجمهور وتثقيفه . كما أنها فطنت كذلك لخطرها إذا ساء استعمالها ، فعمدت لمكافحة الشرائط التي تؤذي الذوق وتضر الناس في آدابهم وأفهامهم ، ومثل ذلك تأسس في النمسا في ظل الحكومة معهد خاص في سنة ١٩٣٤ ليعمل شتى الوسائل المشروعة ليؤدي دور السينما الى مدارس مهذبة ومنتديات مروضة . ومن وسائله لذلك ارشاد الناس الى الشرائط المفيدة والدعوة لها عن سبيل النشرات أو المحاضرات ، وعن سبيل الترغيب فيها برفع بعض مستواهم ورقي أذواقهم . ومن أعمال هذا المعهد أيضاً انهُ يرشد المشتغلين بين الشرائط و صحاب الدور ويعين هؤلاء وهؤلاء ليحصلوا على الشرائط المفيدة

## نواح خاصة لاستثمار الفراغ

ألمعت سريعاً فيما تقدم الى أبرز الوسائل وأعم الأدوات الصالحة لشغل فراغ عدد من الناس واسع كبير . لكن في الناس طوائف معينة محدودة ، يناسبها لأوقات فراغها وسائل أخرى عدا التي أسلفنا ذكرها . فبعض الناس من طبقات الخواص أو من أهل الحرفة الواحدة قد يروقهم أن يبيثوا لأوقات فراغهم منتديات تجمع فيما بينهم ، وربما يكون السبب في ذلك تشابهاً بين روادها في الطبقة الاجتماعية أو في تقارب الثقافة أو في نظرات السياسة والاجتماع أو في روابط الأعمال أو غير ذلك مما يقرب بين بعض الناس . واقامة هذه المنتديات أمر مألوف لا يخلو منه بلد متمدين وهي لاشك تصلح لأستثمار وقت الفراغ الذي يكون لرواد هذه المنتديات والذي يختلف طولاً وقصراً باختلاف طوائف الرواد

ومهما يكن من صلاحيتها فان خيرها لا يتأكد وان شرها لا يؤمن الا اذا أحاطتها رعاية خاصة ورقابة موفقة لكي لا تتسرب اليها عناصر الفساد كالميسر والخمر ، لأن الفراغ مزرعة للمفاسد لا تقي الا اذا حسن استخدامه لترقية النفوس وتقوية نزعاتها النبيلة

وهناك طوائف أخرى محدودة العدد معينة الشخصية لهم أوقات خاصة من الفراغ ، ويشغلونها بما يناسبهم ويناسبها ، كالاساتذة والعاملين ، فانهم عندما يظفرون بغير الوجيز من أوقات فراغهم يستخدمونه في التزاور والترابط الفكري والمؤتمرات العلمية الدولية والحج الى المكاتب البعيدة والمعامل المعروفة والمتاحف العامرة والسياحات والرحلات المفيدة والقيام بواجب البعثات وغير ذلك مما يناسب عمل العلماء من خدمة التعاون الفكري وبث الروح العلمية العامة

ومن الطوائف المعينة التي يناسبها استخدام خاص لوقت الفراغ طوائف طلاب الجامعات والدراسة العالية حين يظفر المجتهدون منهم بمدة أشهر في العام تتعطل فيها مدارسهم ، فبعد أن ينال هؤلاء لانفسهم قسطاً من الراحة ، مستحقاً ومطلوباً ، قد يتجه البعض منهم الى شغل وقت الفراغ بقراءة كتب ميسرة تغاير صنف الكتب التي ألفوا قراءتها واستذكارها في أثناء الدراسة وهؤلاء لاشك موفقون حين يقدمون على ذلك لانماء معلوماتهم وتوسيع دوائرها . وقد يتوجه بعض آخر منهم ليطوفوا بالقرى لالقاء المحاضرات والموعظة الحسنة وهؤلاء يستفيدون من أوقات عطلتهم لرياضة أبدانهم وتمرين فكرهم لاستخلاص أصفى الخلاصات التي كسبوها من العلم وإعدادها إعداداً حسناً مقبولاً فائدة مواطنيهم ممن لم يقدر الله لهم التقدم في سبيل العلم والمعرفة . هؤلاء هم من عباد الله الصالحين الذين يستفيدون ويفيدون وتقوى بفضل جهودهم حركات الاصلاح الاجتماعي في الامم

تلك هي بعض النواحي الخاصة لقضاء وقت للفراغ قضاءً مثمراً ، على أن هناك ناحية خاصة

أخرى هي من أهم الوسائل واقواها. تلك هي ناحية المكاتب العامة . ولقد قدر الانكليز رسالتها وعززوها قوانينهم منذ سنة ١٨٥٠ ، لكنهُ يرجع للبلجيكيين فضل كبير في إعلاء شأن الرسالة الاجتماعية التي تقوم بها المكاتب العامة وتقدير المكانة السامية التي ينبغي ان تكون لها حيث ضمّنوا تشريعهم في سنة ١٩١٨ ما يدسر بلوغ شأو المكاتب وقدرها الرفيع . ولايمان البلجيكيين بسلو رسالة المكاتب العامة فرضت أتاوة تقدر على الاقل بربع الفرنك على كل فرد من سكان المدائن والقرى وينفق المتحصل منها في شؤون هذه المكاتب، ولو أنا تأثرنا خطوات البلجيكيين في ذلك لزادت ميزانية مكاتب الاقاليم اضعاف ما هي عليه الآن ومما يدل على مكانة المكاتب العامة الاقليمية في هذا البلد أن احداها لا تطلق الا بعد مداولة قوية في مجلس القرية واستصدار قرار بذلك من الملك نفسه ! والى جانب هذه المكاتب الاقليمية العامة يوجد نوع من المكاتب المتنقلة المترحلة تنشأ لتزويد مختلف المصالح بمختلف الكتب ولامداد المدرسين في الأقاليم بما هم في حاجة اليه منها . ولكي أظهر صورة واضحة لحيوية المكاتب المتنقلة وحدها حسبي أن أضرب المثل بمدينة « ليج » اذ اودع في دائرتها سنة ١٩٣٤ نحو العشرين ألف كتاب ، فأعيرت لنحو مائة الف واربعة آلاف من المستعيرين . أليس في ذلك المثل شاهد ناطق على سرعة سريان الكتاب وطلاقة مجراه في تلك البلاد ، وعلى أن شطراً من وقت فراغ الناس هناك لا ينقضي سدى بل تتخذ له اداة الكتاب لترفيه الذهن وترفيع النفس

## ضريبة الكتاب

ولو اننا فرضنا في مصر كما فرض غيرنا ضريبة قرش واحد في العام على كل مصري وجعلناها ضريبة الكتاب ، لجمع لنا في كل عام من هذه الضريبة اليسيرة وحدها نحو ال ١٥٠٠٠٠ من الجنيهات ولو اننا وزعناها على مراكز القطر لنال كل مركز اكثر من ١٠٠٠ جنيه في كل عام وما أشد هذا المبلغ نفعاً لو انشئت به مكاتب واستخدمت من أجلها جهود شباب عاطل مثقف يعوّد الناس القراءة ويرسل فيهم ملومات صالحة ويسوق الى أذهانهم كنوز المعارف العامة ويبعث الى ديارهم رسلاً من الكتب تؤنس وتفيد . قد يقول معترض وهل تزعم ان الناس عندنا يحرصون على القراءة واكثرهم لما يخرج عن حظيرة الأمية . وأجيب مثل هذا المعترض بأن أشد الناس شوقاً الى القراءة هم الأميون وأشباه الأميين من الذين يكدحون بأجسامهم ، والسبب في ذلك أن الطبيعة ترعى أمر التوازن بين حاجات العقل وحاجات الجسم فتدفع الجاهدين بأجسامهم الى الميل للعمل العقلي والمجهد العقوي إذا ما اتضح لهم المجال في ذلك وجعلت فيهم الوسيلة ، ولطالما رأيت جموعاً من الفلاحين والعمال يلتفون حول من يقرأ قصة أو صحيفة ملائمة مبسطة اندفاعاً وراء حاجة النفس الى نسمات الجو المعنوي

ومن فضل الله على الناس أن الأمية آخذة في الانكماش والتلاشي بسبب تعميم التعليم الأولي، ولم يكن يوماً تخليص الشعوب من الأمية مقصوداً لذاته ، إنما قصد لكي يتذرع أفراد الشعب بالأداة التي تهيء لهم قراءة الكتاب القيم ليحدثهم بما ينطوي في صفحاته من المعلومات التي تتطاول اليها العقول . فلا قيمة إذن لدفع الأمية من ديارنا ما لم نعوّد الناس القراءة واستقبال الكتاب الميسر المفيد . ومن أجل ذلك ندعو لإنشاء المكاتب في الأقاليم وتعميمها واحسان عدتها . ولو أنشئت المكاتب الجديرة لأتيحت الفرص للقراءات النافعة التي تتعطش لها النفوس ولحوربت القراءات السخيفة التي تضل العقول . وان الشعوب لترتفع عن سبيل المكاتب ارتفاعاً لا تيسره المدارس لأن أهم ما يؤديه الكتاب القيم لقرائه انما هو حلو النتائج وناضج الثمرات

وإنا اذا راعينا حالة بلادنا الزراعية الخصبة وتقدم الفن الزراعي وقدرنا على نحو ما كان يقدر ابن العاص أن الزراع يرمون الحب ، وينتظرون الحصاد من الرب ، فإن أوقات فراغ الفلاحين ستكون مقسمة محددة ، ومن الخير أن تمهد منذ الآن لوقت فراغهم وسيلة الكتاب المفيد الجذاب الذي تهوى اليه أفئدتهم وتصير منهُ وعوسهم . واني أدعو كذلك منذ الآن الى تخير عدد من أذكياء الشباب وأقربهم نسباً للحياة العقلية الراقية وأشدهم تقديراً لها ، وأقواهم ميولاً لخدمات العامة، ليؤهلوا تأهيلاً علميًّا فنيًّا لادارة المكاتب الاقليمية والدعاية للكتاب بالتحدث عنه والتعريف به ، وليجعلوا من المكاتب نواة صالحة لجامعات شعبية ومنتديات فكرية طلقة لتهذيب النفوس وشحذ العقول

واذا كان من حق الجماعات أن تخرج من أصلابها صفوة كريمة من خيار أبنائها لكي يكونوا لهذه الجماعات عدة في حاضرها ومستقبلها ، فان هذه الصفوة تبدو في الشباب العاكف على الحياة الفكرية ممن يلوذون بالمكاتب ويألفون القراءة والتفكير . ومن حقهم على كل حكومة رشيدة أن تمهد لهم وسائل حياتهم المادية والفكرية ، لأنهم أمارات ظاهرة دالة على استعداد الامم لتقدير الحياة الفكرية والعظمة العقلية

## خلاصة

ما من شيء أشق الامم وأضناها ومال بها الى الانحطاط اكثر من وقت الفراغ اذا هو ترك لاستنبات الشر والسوء والشهوات الوضيعة

وما من صورة أبشع من صورة الوقت يقضي على المرء دون أن ينفذ فيه ارادة الله في جعل الوقت أداة للكمال البشري ورفيع النفس الى عوالم الخير والقداسة

وما من واجب أشد أخذاً بمخنق الحاكمين من محاربة البطالة والعطلة وغرباتها السيئة بشتى الطرق ، وأخذ الناس أخذ المقتدر ليستغلوا أوقات فراغهم بالحسنى وفي سبيل الحسنى

# ميادين الخدمة الاجتماعية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

---

لا يتسع مجال الخدمة الاجتماعية في بلد ما مقدار اتساعه في مصر . فلدينا من المشكلات القومية ، وأمراض المجتمع ، ووجوه النقص في مختلف فروع الحياة ، ما لم يكد يتوافر مثله في بلد متمدين من بلاد العالم . والحكومة بما لديها من موارد محدودة في المال والرجال ، ومع الواجبات الباهظة التكاليف التي ألقتها حديثاً على عاتقها مقومات الاستقلال ونصوص المعاهدة وشؤون الدفاع عن البلاد ، والتي زاد من ثقلها نشوب هذه الحرب وما جرته في ذيولها من مشكلات وما ألقته على كاهل الدولة من تبعات في مختلف الشئون ، أقول إن الحكومة بما لديها من موارد محدودة في المال والرجال ، ومع هذه الواجبات الباهظة التكاليف ، لا تستطيع أن تقوم بعشر معشار ما ينبغي القيام به بصدد الاصلاح الاجتماعي . فما بقي في هذا السبيل يقع على كاهل القادرين من الشعب : يقع على كاهل الشبيبة المتعلمة ، ويقع على كاهل الجمعيات والهيئات ، ويقع على كاهل الأغنياء من الأفراد : أي يدخل في نطاق ما جرت العادة بتسميته «شئون الخدمة الاجتماعية »

لدينا في مصر خمس مشكلات رئيسية تحول دون تقدمنا ، وتمنعنا عن اللحاق بالأمم المتمدينة إذا نجحنا في حلها واقتلع آثارها استقامت لنا الامور ، وسرنا بخطى حثيثة نحو الحضارة والكمال . وهذه المشكلات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، ومتأثر بعضها ببعض ، ومترتب بعضها على بعض : إحداها مشكلة الجهل وثانيتها مشكلة الفقر وثالثتها مشكلة المرض ورابعتها مشكلة الترف وخامستها مشكلة الاختلال الديني والخلقي . ومن هذه المشاكل وما نجم عنها من آفات يتألف منهج واسع للإصلاح الاجتماعي . وفي سبيل حلها ينبغي أن يتجه نشاط الخدمة الاجتماعية ، وتجند جميع قوى الشعب ولا سيما قوى الشبيبة المتعلمة والجمعيات والهيئات والاغنياء من الناس

## مشكلة الجهل

أما مشكلة الجهل فتتمثل في مظهرين : الأمية من جهة ، ونقص الثقافة من جهة أخرى . والأمية لا تزال مضروبة أطنابها على نسمة أعشار النساء وثلاثة أرباع الذكور من الشعب .

والجهل بالقراءة والكتابة يعوق الفرد عن الإحاطة بشئون الحياة ومعرفة واجباته نحو نفسه ونحو اسرته ونحو المجتمع ، ويقصر به عن إدراك حقوقه السياسية وعن الإلمام بشرائع بلاده وما تسنه الحكومة من قوانين ويمهد السبيل لاضطراب الحياة وفساد الأمن والوقوع في الجريمة

والحكومة ، مع ما بذلك من جهد ، لم تستطع في حدود ماليتها وما يحيط بها من أحوال أن تمحو الأمية إلا عن جزء يسير من أفراد الشعب . والخطة التي رسمتها بهذا الصدد لا تحقق محو الأمية محواً تاماً الا بعد زمن طويل . على أن التعليم الالزامي لا يطبق الا على الصغار في سن معينة . فيترك وراءه طوائف الزراع والصناع والعمال والباعة والخدم الذين لم يتح لهم في صغرهم تعلم القراءة والكتابة . ومن هذه الطوائف يتكون الآن القسم الاكبر من افراد الشعب

فمن أهم شئون الخدمة الاجتماعية العمل على محو الامية عن هذه الطوائف وعن الصغار الذين لا تتسع لهم الآن مدارس التعليم الإلزامي . ويقع هذا كما قلنا على عاتق الشبية المتعلمة وعلى عاتق الجمعيات والهيئات وعلى عاتق الأغنياء من الناس . وبلوغ هذه الغاية يتحقق عن طريق التعليم الجمعي ، وذلك بانشاء المدارس الشعبية الليلية في المدن والقرى وترغيب الأميين بمختلف الوسائل في الالتحاق بها . ويتحقق كذلك عن طريق التعليم الفردي ، فيتصل الطالب المتطوع في شئون الخدمة الاجتماعية ببعض الأميين ، ويعطي كلاً منهم على حدة مايشبه الدرس الخاص ، فاذا ما نجح في محو الأمية عنهم استبدل بهم آخرين .. وهكذا

وغني عن البيان أن قيام الشبان والفتيات من الطلبة والطالبات وغيرهم بهذا الواجب لا يكلفهم أكثر من تضحية بجزء يسير من أوقات فراغهم ، في مقابل ما يكتسبونه من رضا الله ورضا الشعب وإرضاء ضمائرهم وأدائهم لبعض ما يجب عليهم نحو مجتمعهم . هذا إلى أن مزاولتهم للتعليم ، واتصالهم بطبقات الشعب الدنيا ، وعلاجهم لعقليات تختلف عن عقلياتهم ... كل ذلك وما إليه يزيد من إحاطتهم بشئون الحياة ، ويوسع نطاق معلوماتهم عن المجتمع ويولدهم الرفق والعطف والمثابرة ، ويدربهم على الامور العملية ، ويعدهم اعداداً صحيحاً لحياة المستقبل

هذا هو المظهر الاول من مظاهر الجهل . اما المظهر الثاني فيتمثل في ضعف التفكير ونقص الثقافة ، وهذا المظهر منتشر في معظم افراد الطبقة الدنيا من الشعب ، سواء في ذلك الاميون منهم والملمون بمبادىء القراءة والكتابة . فطوائف الزراع والصناع والباعة والخدم ... كل أولئك ينقصهم حسن التفكير ، وتنقصهم أنواع كثيرة من الثقافة ، تنمو بهم الثقافة الاقتصادية والالمام بخير الوسائل لتنمية موارده وتنظيم استهلاكهم وتدبير امور معاشهم ... وما الى ذلك . وتنمو بهم الثقافة الصحية والاحاطة بطرق الوقاية من الامراض وعلاجها ، ووسائل الاسعافات الضرورية ، وما ينبغي ان يسيروا عليه في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم . وتنمو بهم الثقافة العائلية

والوقوف على خير الطرق لحياة الأسرة ، وتنظيم العلاقات بين أفرادها ، وتوزيع الأعمال عليهم ، ومراعاة حقوق كل منهم وواجباته ، وتربية الأطفال وما الى ذلك . وتموزهم الثقافة السياسية والاحاطة بالنظم التي تسير عليها الدولة بهذا الصدد ومعرفة العلاقات التي تربطها بما عداها من الدول ، والالمام بحقوقهم وواجباتهم حيال السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وتموزهم الثقافة الدينية الصحيحة والوقوف على ما يوجبه الدين على الفرد حيال ربه وحيال نفسه وحيال أفراد أسرته وحيال مجتمعه وحيال جميع أفراد النوع الانساني . وتموزهم الثقافة التاريخية والاحاطة بشيء من ماضي بلادهم ومجدها التليد ، حتى يتكوّن لديهم الكبرياء الوطني والاعتزاز بقوميتهم وما الى ذلك من الصفات التي لا تستقيم بدونها حياة الشعوب . وتموزهم أنواع أخرى كثيرة من الثقافة

وعلاج هذا المظهر من الجهل أهم كثيراً في نظري من علاج الأمية . فالالمام بمبادىء القراءة والكتابة لا يفيد الفرد كثيراً في حياته ما دام ناقص الثقافة ضعيف التفكير . على حين أن تثقيفه من النواحي السابق ذكرها يرفع من شأنه ويزيد من صفات الانسانية لديه ، ويكسبه الحرص على أداء واجباته والاحتفاظ بحقوقه ، ويزوده بالقدرة على التغلب على صعوبات الحياة ، ويهذب طباعه وسلوكه ، ويولد الانسجام بين حياته الفردية وما يتطلبه المجتمع ، ويحقق له السعادة في مختلف فروع حياته . . . يكسبه جميع هذه المزايا حتى ولو كان جاهلاً بالقراءة والكتابة

وغني عن البيان أن الحكومة التي لم تستطع في حدود مالیتها وفي الظروف المحيطة بها ، أن تمحو الأمية الا عن جزء يسير من أفراد الشعب ، لا تستطيع من باب أولى أن تقوم وحدها بجميع ما يجب القيام به حيال تثقيفه

فمن أهم شئون الخدمة الاجتماعية العمل على نشر الثقافة بمختلف انواعها بين افراد الطبقات الدنيا من الشعب . وبهم هذا كما قلنا على عاتق الشبيبة المتعلمة وعلى عاتق الجمعيات والهيئات وعلى عاتق الاغنياء من الناس . وبلوغ هذه الغاية يتحقق عن طريق السينما التعليمية والارشادات الصحية وتنظيم محادثات ومحاضرات شعبية في المدن والقرى وانشاء المدارس الليلية في الحواضر والارياف . . . وعلم جرًا

وقيام الشباب والفتيات من الطلبة والطالبات وغيرهم بهذا الواجب لا يكلفهم أكثر من تضحية جزء من اوقات فراغهم . والتعبير بالتضحية امير غير دقيق . فالواقع انهم بذلك يستغلون اوقات فراغهم خير استغلال اذ يؤدون أهم ما يجب عليهم نحو مجتمعهم ، ويجنون من وراء ذلك فوائد كبيرة . فزاولتهم لشئون التثقيف واحتكاكهم بالطبقات الدنيا من الشعب ، وعلاجهم للفتيات تختلف عن غيابهم . . . كل ذلك وما اليه يزيد من بصرهم بشئون الحياة ، ويوسع دائرة

ادراكهم ، وتخلق في نفوسهم عاطفة الرفق والعطف ، وتكسبهم قوة الصبر ، والمثابرة وتجعلهم حريصين على الخير ميالين الى التكافل ، وتعدهم إعداداً صحيحاً لحياتهم المستقبلة ، إذ يصبحون آباء وأمهات ورعاة مسؤولين عن رعاياهم

هذه هي المشكلة الاولى من مشكلاتنا الاجتماعية ، والعمل على تخفيف ويلاتها عن طريق الخدمة الاجتماعية أنشئت جماعات الرواد ، وقامت في هذا السبيل بمجهود جليل مشكورة ، وقطعت فيه مرحلة طيبة . فاذا كثرت هذه الجماعات وتعددت محلاتها في المدن والقرى ، وانضم اليها اكبر عدد ممكن من الشبيبة المتعلمة ، كبر الامل في التغلب على الجهل بمظهريه : مظهر الأمية ومظهر نقص الثقافة

## مشكلة الفقر

أما المشكلة الثانية من مشكلاتنا الاجتماعية فهي مشكلة الفقر . والفقر منتشر في كل بلاد العالم والفقراء في كل أمة أكبر عدداً من الاغنياء . غير ان هذه المشكلة قد ظهرت بمصر في صورة فاجعة لم تكد تظهر مثلها في أي بلد متمدن من بلاد العالم ، في صورة تنذر بعواقب وخيمة وشرور مستطيرة ان لم يتداركها المصلحون بتخفيف ويلاتها . فمعظم العائلات المصرية لا يزيد متوسط دخل العائلة فيها على جنيه واحد في الشهر . وهذا هو أقصى ما يمكن ان تصل اليه الثقافة في بلد متمدن . والفقر اذا وصل الى هذا الحد ، وانتشر بين هذا العدد الكبير من أفراد الشعب ، عاق الامة عن التقدم ، وساعد على انتشار الجهل والمرض ، ومهد السبيل لاضطراب الحياة ونزاع الطبقات وفساد الأمن وكثرة الجرائم والاعتداء على الحقوق والاخلال الديني والخلقي . وعلاج هذه المشكلة يقع معظمه على كاهل الحكومة لان أهم أسبابها يرجع الى فساد في نظم توزيع الثروة او فرض الضرائب على الاغنياء او صرف الاموال في وجوهها الصحيحة او إلى تسلط الزعامة الأرستقراطية واهمال الطبقات الدنيا وجميع هذه الاسباب وما اليها لا يمكن لغير الحكومة العمل على إزالتها

وعلى الرغم من ذلك لا يزال المجال متسعاً في هذا السبيل أمام الخدمة الاجتماعية . فالجمعيات الخيرية والهيئات المختلفة وطبقات الاغنياء من الشعب يمكنها ان تقوم بشيء كثير في سبيل تخفيف ويلات الفقر وتحسين حال الفقراء ، والشبان المتعلمون والفتيات المتعلمات يستطيعون ان يضطلعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب وخاصة عن طريق جمع الاحسان للنظم وإقامة الحفلات والاسواق الخيرية . وما يستطيع ان تقوم به الفتيات في هذه الناحية يفوق كثيراً ما يستطيع ان يقوم به الفتيان . فهن أقدر على جمع الاحسان وإثارة عواطف الرفق عند الاغنياء والقادرين

وهنّ أقدر على تنظيم الحفلات والاسواق الخيرية وعرض ما ينبغي عرضه فيها من أشغال يدوية وما اليها

## مشكلة المرض

وثالثة المشكلات هي مشكلة المرض، وهي نتيجة لازمة للمشكلتين السابقتين : للجهل والفقر، ولأمر ثالث وهو عجز الحكومة او تقصيرها وتقصير الهيئات والجماعات والقادرين من الناس في القيام بما يجب عمله في هذا السبيل

وتبدو مشكلة المرض في مصر بشكل فاجع مروع، وفي صورة تنذر بعواقب وخيمة وشرور مستطيرة . فالبلهارسيا والانكلستوما وغيرهما من الامراض المتوطنة تفتك بالفلاحين فتكاً ذريعاً . وأمراض الاطفال لا تبقي الاّ على نسبة ضئيلة من المواليد ، حتى أصبح الاصل في الطفل القروي ان يموت ، والاستثناء ان يفلت من براثن الهلاك ، وهو لا يفلت منهُ الاّ بأعجوبة ويعيش في الغالب هزيل الجسم ، ضاوي القوى ، ضعيف الحركة ، كسولاً خاملاً ، لا يكاد يصلح لأداء واجب ، ولا تكاد تنتفع منه البلاد في شئون الدفاع وما اليها

وعلاج هذه المشكلة يقع بعضه على كاهل الحكومة . فمن أهم واجبها تعميم المستشفيات والمصحات الثابتة والمتنقلة ، ومن واجبها تذليل سبل العلاج لجميع أفراد الشعب وخاصة الفقراء منهم ، ومن واجبها العمل على القضاء على الامراض المتوطنة ، ومن واجبها سن القوانين الصحية بصدد الزواج والحمل والولادة وما الى ذلك . وقد قامت حكومتنا بقسط غير يسير من واجبها بهذا الصدد . وهي لا تستطيع في حدود مالِيتها وما يحيط بها من ظروف في الوقت الحاضر ان تقوم بكل شيء في هذا السبيل . فما بقي يقع على كاهل القادرين من الشعب : يقع على كاهل الجمعيات والهيئات ، والاغنياء من الافراد ، والشبيبة المتعلمة ، أي يدخل في نطاق ما جرت العادة بتسميته « شئون الخدمة الاجتماعية »

وقد قام بعض الجمعيات وبعض الهيئات وطائفة من الاغنياء بشيء من واجبها بهذا الصدد ولكن لا يزال في هذا الميدان متسع كبير لاضعاف ما بذل فيه من جهود . والشبان المتعلمون والفتيات المتعلمات ، ولا سيما المشتغلون بالطب منهم ، يستطيعون ان يضطلعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب ، وخاصة عن طريق الدعاية الصحية وارشاد العامة الى طرق الوقاية والعلاج ومساعدتهم على الاتصال بالاطباء ، وعن طريق الالحاق بالمستشفيات والمصحات ، وعن طريق جمع الاحسان المنظم ، واقامة الحفلات والاسواق الخيرية وتنظيم الاسابيع الصحية كأسبوع الطفل وما الى ذلك

## مشكلة الترف

وأما مشكلة الترف فتتمثل فيما يسود طبقات الاغنياء بمصر من الميل الى السرف والتبذير، وانفاق الاموال في غير وجهها الصحيح والانغماس في الملاذ والشهوات المشروع منها وغير المشروع، والمبالغة في تقليد الاوربيين وخاصة في القبيح من عاداتهم، واحتقار الوقت، وعدم تقدير قيمته، وقتله في باطل الامور وسفاسفها، وضعف الشعور بالواجب الوطني والاجتماعي وازدراء الطبقات الفقيرة وما الى ذلك

وهذه المشكلة لا تقل خطورة عن المشكلات السابقة ان لم تزد عنها. وعلاجها يتطلب كثيراً من الحزم والخلق والروية. ويقع بعضه على كاهل الحكومة نفسها، وبعضه على كاهل الجمعيات والهيئات، وبعضه على كاهل الشبيبة المتعلمة. ففي استطاعة الشبان المتعلمين والفتيات المتعلمات أن يستطيعوا بقسط غير يسير من هذا الواجب، وخاصة عن طريق ترغيب الاغنياء من اعيان البلاد وغيرهم في الانضمام الى جمعياتهم أو رآستها أو الاشراف عليها، وحملهم بطريق عملي على أعمال البر والعناية بالفقراء والاهتمام بشئون الطبقات الدنيا، وشغل اوقات فراغهم بشئون الخدمة الاجتماعية، وبث الدعاية النظيفة في نفوسهم عن طريق ممارسة أعمال الخير والاحسان، مستخدمين في ذلك وسائل الاغراء التي تستخدم أغنياءنا ومترفينا كالاشادة باعمالهم ونشر اسمائهم في الصحف والثناء على جهودهم ... وهلم جرًّا

## الانحلال الخلقي والديني

والمشكلة الأخيرة هي مشكلة الانحلال الخلقي والديني. وهذه المشكلة ماشئة عن المشكلات السابقة. فهي في بعض مظاهرها نتيجة للجهل او الفقر او المرض، وفي مظاهرها الاخرى نتيجة للترف. فغير علاج لها هو علاج المشكلات الاربع السابقة. وهذا العلاج — وان كان غير مباشر — أجدى كثيراً في نظري من علاجها بشكل مباشر عن طريق الوعظ والارشاد. فقلما أثر النصح في محو رذيلة أو غرس فضيلة

ولا يفوتني قبل ان اختم كلمتي ان أنوه بالجهود المشكورة الصامتة التي أخذت وزارة الشئون الاجتماعية تبذلها في هذا السبيل. فقد ألفت لجنة لبحث وجوه الخدمة الاجتماعية وتوجيه الشبان إلى الصالح منها، وستظهر نتائج عملها قريباً ان شاء الله

# أوقات الفراغ

## والناحية الرياضية

للاستاذ امين ابراهيم كمال

كبير مفتشي الكيمياء بوزارة المعارف

تمضية وقت الفراغ فيما يفيد وينفع فن كباقي الفنون يكتسب بالدراسة والممارسة الا ان للعامل الشخصي والميول الذاتية اكبر الاثر في توجيهه الى ناحية معينة وهو كباقي الفنون يجب ان يربّى في المرء من الصغر في دور العلم وفي المنزل . وليس ما نراه الآن من جهل اكثر الناس بالانتفاع باوقات الفراغ الا نتيجة حتمية لاهمال شأن هذه الناحية من نواحي التربية في المدارس. الا ان الحال قد تبدّل نوعاً الآن واصبح لما يسمى عرفاً بالنشاط المدرسي بعض الشأن في معاهد العلم وفي انظار الذين يتولّون امر التربية والتعليم في وزارة المعارف . أقول بعض الشأن لان الواجب يقضي ان تكون النظرة اليه جدية كالتي تنظر بها الى سائر مواد الثقافة لا ان تؤجل الى نهاية اليوم المدرسي عند ما تتجاذب التلميذ جملة عوامل ويغريه الشارع ويشجعه اعتبار نواحي النشاط في المرتبة الثانية من المقام فيغادر اكثرهم المدرسة ولا يتفعون بما يكون قد اعد لهم

وعمل التربية البدنية في مدارسنا مكاناً يقع بين بين فلا هي ثانوية تماماً كنواحي النشاط المدرسي الاخرى ، ولا هي في المرتبة اللائقة بها من خطر الشأن بين باقي مواد الثقافة المدرسية . اذ ان لها مكاناً مقرراً في جدول الدروس وهذا ما لا يمكن انكاره ولكن هل تصيب من عدد الحصص ومن اهتمام اهل الامر في المدرسة وغير المدرسة ما هي جديرة به ؟ سأحاول الاجابة عن هذا السؤال حالاً

لقد فاضت الاحاديث بفائدة الرياضة البدنية الصحية وبانها ضرورية لسلامة الابدان توطئة لسلامة الاذهان وانها تبعث على النشاط والقوة ومثيرة لجميع عوامل الفتوة

ولن أتوسع في هذا الذي نسلم به جميعاً ولكني أبدو فاذكر ان لها مراميَ أوسع واغراضاً أجل من كل هذا

يتحدث المفكرون والمصلحون والمربون عن الامية رغم ضرورة مكافحتها والقضاء عليها مدافعين بذلك التعليم ويتصب كلام الجميع على ذلك النوع من الامية التي معناها الجهل بمبادىء القراءة والكتابة والحساب الخ . ونحن لا ننكر هذا أيها السادة فالأمية الذهنية كانت ولا تزال رمز الجهل . التأخر ولكن هناك أمية اخرى هي أمكى وأشد فتكاً والجهل الذي ينشأ عن تفشيها أكثر شيوعاً وأعظم أثراً حتى في مجموعة العلماء والمثقفين . هذه الامية التي اشير اليها هي الامية

الجسمانية ولذلك فهي في حاجة الى مكافحة أقسى وأشد من مكافحة الامية الذهنية

نشأ الاهتمام بامر الامية الذهنية عن عقيدة قديمة في ان العقل الانساني يسكن الرأس دون باقي اعضاء الجسم ولكنهُ قد آن الاوان لتغيير تلك العقيدة فالعقل البشري موزع على جميع اعضاء الجسم الباطنة والظاهرة فيجب اذن ان يبدأ اهتمام المربين بهذه الاعضاء جميعاً لا بالذهن دون الايدي والارجل والجذع وغيرها

وبعد . أليست فضيلة ضبط النفس والتحكم فيها هي ام الفضائل جميعاً ، وأليس ضبط النفس معناه التحكم في الافكار والشهوات كما انهُ يقتضي التحكم في الحركات ايضاً ، وكيف يتسنى ذلك لشخص لم تدرَّب اعضاء جسمه التدريب الحقيقي الفني حتى تكون منطلقة مهذبة كألفاظ الفم التي يوحي بها الذهن المرتب المصقول

ايها السادة — الا ان العالم الجديد بروحه الجديد يتطلب ان تنشئ تربية الذهن وتهذيبه جنباً الى جنب مع تقوية الروح وصقل حركات الجسم اي ان مكافحة الاميه الذهنية والتغلب عليها يجب ان تسير تماماً التغلب على الامية الجسمانية . والشخص الكامل الثقافة ثمرة التربية هو الذي تربى جسمه وروحه وذهنه معاً

ايها السادة — ارجو ان اكون قد وفقت الى الاجابة عن السؤال الذي سألته في بدء حديثي ولا يحتاج الامر الى اثبات ان نصيب التربية البدنية في مدارسنا ضئيل هزيل واننا نحاول التغلب على الامية الذهنية بمجهود الجبارة ونهمل امر الامية الجسمانية التي تشمل بنا اطفالاً وشباباً وشيوخاً رجالاً ونساء

ايها السادة — اذا اريد بهذه الامة خيراً فالواجب الاول على المهتمين على امر التربية والتعليم فيها ان يكون مقدار اهتمامهم بذهن الطفل لا يزيد على مقدار اهتمامهم بجسمه وان تصقل حركاته كما تهذب كلماته وان يبدأ هذا فوراً مع مراحل التعليم الأولى ألا وهي المكاتب الالزامية ، وان يزداد نصيب التربية البدنية في مراحل التعليم الاخرى بما يتفق وقيمتها وان يقضي على تلك الروح العنيفة التي تعتبر التربية البدنية والرياضة ضروباً من اللهو وتضييع الوقت وانها انما تشجع الصغير على العبث والكبير على الفساد

نريد ان ينشأ في مصر جيل سليم تام الثقافة ولا يتأتى هذا الا ان تتناولهم اليد المصلحة الرشيدة من سن الالزام الى سن الرجولة فنصبح ولدينا آباء وأمهات ربوا في عهد العصر الحديث فيكونون اكبر عون بعد ذلك لمن يتولون امر تربية ابنائهم

ثم نريد ان نفكر جديًّا ايضاً في امر من سنوكل اليهم تثقيف أجسام البنين والبنات وان يدرب هؤلاء تدريباً فنيًّا صحيحاً اساسه الحب الخالص للعلم والعقيدة السليمة في ما اختاروه

من المهن وان يشعروا بكافة الطرق والوسائل ان عملهم لا يقل في قيمته وفائدته عن عمل أي معلم آخر . كما نريد ان توسع السلطات في تخريج العدد الوافر من هؤلاء في أقصر وقت حتى نطمئن الى ان النوس قد اعتنيت بأمرها

هذا من ناحية التعليم والاعداد . اما الشباب الذي تربى ذهنهُ وأهمل جسمه والذي رغم ما ناله من شهادات وما اقتناه من ثقافات فلا يزال اسيرَ الحركات جاهلاً بجسمه وبمضلاته

وكذلك من ناحية شباب الشعب الذي ترك فريسة الامية بنوعيها ذهن خامل وجسم متكاسل . نريد ان يقدم هؤلاء وهؤلاء على الأندية الرياضية والملاعب التي يجب ان تتعدد ويتوفر وجودها في كل حي . ولا أقصد بها تلك الاندية المترفة التي تطلب اشتراكاً فخماً لا يستطيع أداءه الا الذين أوتوا بسطة في الرزق او تفوقوا في ناحية رياضية ممن تسعى اليهم الأندية وتنصب شباكها حولهم مستخدمة كافة أنواع الاغراء لحاجتها اليهم لدرجة جعلتهم أشباه محترفين لا أعضاء عاملين

وانما أريد ان تزداد ميزانية نشر الالعاب الرياضية لدرجة تجعل من المستطاع إيجاد متنديات وميادين يؤمها الشباب للرياضة فقط وان يكون ارتيادها سهلاً ميسوراً حتى الشباب في كل حي او قرية . يترك أمر الاشراف عليها للرياضيين الفنيين الذين يفيدون ويستفيدون ولدينا عدد لا بأس به من هؤلاء الذين توافروا على دراسة التربية البدنية وأتقنوها فنا كاملاً فهم أجدر الناس بهذا العمل

ثم نريد ان تحل المهرجانات والحفلات الرياضية تدريجاً محل الموالد وما شابهها من الاجتماعات الشعبية وان تجعل ميادين يتبارى فيها الشباب في اظهار قوته وفتوته ونبوغه وتفوقه واني اغتنم هذه الفرصة لأحيي ذلك الرياضي العظيم الذي كان أول من فكر وقدر موضوع نشر الرياضة في القرى والارياف ومما يهنيه وأتمنى له ولهم من كل قلبي أعظم توفيق ونجاح ان شاء الله

أيها السادة — نخرج من كل هذا بما يلخص في :—

١ — ان تربية الجسم رياضياً لها نفس الشأن الذي لتربية الذهن والحياة لا ينجح فيها الا الرجل السليم الجسم تهذبه الفضلات فتصقل الذهن فيجب ان تساير مكافحة الامية الذهنية الأمية الجسمية وان يكون المجهود الذي يصرف في ناحية يكافأ مع مثله في الناحية الأخرى

٢ — نطلب الى فضيلة معالي وزير المعارف العمومية ان يضع نظاماً لاعداد الرياضيين الفنيين من الجنسين فهؤلاء عدة الوطن ورسل الثقافة الكاملة والنور الذي تتبدد بانتشاره ظلمات الأمية الجسمانية

٣ — نطلب الى فضيلة معالي وزير المالية ان تتسع ميزانية الدولة لما يكفل نشر الاندية والميادين الرياضية في أنحاء متعددة بحيث تسهل على الشباب من كل طبقة ارتيادها

# أوقات الفراغ

## والناحية الفنية

للاستاذ احمد شفيق ناظر

---

تعلمون حضراتكم ان ساعات العمل لا بد ان يتخللها فترات للراحة والترفيه . والناس جميعاً في هذا سواء فليس منهم من يستطيع ان يواصل العمل بدون انقطاع . ومن هنا نشأت مشكلة أوقات الفراغ وهي مشكلة تتطلب حلا سريعاً نا لها من المنزلة في حياة الشان بنوع خاص والمجتمع بنوع عام

ويختلف الناس في ميولهم الى طبيعة الاشياء التي يمارسونها طلباً للراحة والترفيه عن انفسهم من عناء العمل . فمنهم من يكون النشاط الحركي هوايته . ومنهم من يميل الى انواع التسلية الهادئة . ومنهم من يميل الى شيء وسط بين هذين . ويدخل في النوع الاول الألعاب الرياضية العنيفة كالكرة والسباحة والتجديف وما اليها . ويدخل في النوع الثاني بعض انواع الفنون الجميلة كالموسيقى والغناء والتصوير والاشتغال بالادب والشعر وغير ذلك . اما النوع الثالث فيشمل بعض انواع اخرى من الفنون كالاعمال اليدوية والتجارة وفلاحة البساتين وبعض الالعاب التي لا تتطلب مجهوداً كبيراً

والذين يمارسون هذه الانواع المختلفة يجدون فيها هواية لذيذة يستمتعون بها ويتمون بنائجها والهوايات المختلفة مهمتها التنفيس بوسائل متنوعة عن الغرائز الانسانية . وبغير هذا التنفيس المنتظم يستهدف المرء لنوع آخر من التنفيس العابث المملوء بالشرور المحفوف بالاخطار . وأن من أهم الاغراض التي نرمي اليها من تنظيم أوقات الفراغ إعلاء الغرائز الانسانية أو تحويلها كي لا تتخذ على الرغم منا مخرجاً للتنفيس غير مشروع

وإعلاء الغرائز معناه تهذيبها وتحويل تيارها الى جهة اخرى من الجهات المحمودة التي يمكن ان تبرز فيها المواهب الدفينة لكل فرد . وقد تكون هذه المواهب فنية أو أدبية أو رياضية

ويتبادر هذه الفكرة إن الوقت الذي يميل فيه الفرد الى اشباع غريزته الجنسية مثلاً هو نفس الوقت الذي يسهل فيه تحويل تلك الرغبة الى نظم الشعر إن كان شاعراً أو عمل صورة إن كان

مصوراً أو غير ذلك . فكما أن هذه الغريزة تثير في نفس الشاب العواطف والميول والرغبات كذلك الفنون الجميلة لها ارتباط بعالم الوجدان فهي والحالة هذه قريبة منها يستطيع الشاب ان يتصرف اليها ارضاء لغريزته دون أن يعد خارجاً على التقاليد الاجتماعية

والفنون الجميلة ميدان فسيح محبوب من جميع الناس . ولو ان منهم من يعتقد خطأً انه عاجز عن النزول اليه . ويود مخلصاً لو استطاع ان يفعل فيجني من ثماره مثل ما يجني الآخرون . مع ان الثابت الذي لاشك فيه ان الانسان في كل زمان ومكان ومهما تختلف حضارته كان يمارس الفنون الجميلة من نقش وحفر وتصوير

أنا لا أريد ان اقول ان كل انسان يمكنه ان يكون مصوراً بارعاً او نحاتاً عظيماً . ولكني أريد ان أذكر ان الشخص العادي يستطيع ان يمارس فنا من الفنون وان يصل فيه الى مستوى مقبول . والمهم في هذا كله اختيار نوع الفن الذي يتفق مع جسمه واستعداده . فالنقش يتطلب درجة من المهارة اليدوية والمرونة العضلية وحدة البصر اكثر مما تتطلبه أعمال التجارة البسيطة . كما ان النحت اكثر ملاءمة لنشاط سنه للصبيان وهكذا

وكم يكون جميلاً ان يزين الشاب جدران منزله بصور من عمله يصورها بالالوان المائية او الزيتية او ألوان الباستل عن الطبيعة ما بين الريف والشروق والغروب وغير ذلك

ولا ينبغي أن يفوتنا ان الفنون لا تقتصر على التصوير والنقش والنحت بصورها المعروفة بل هي تشمل فوق ذلك شتى الفنون التطبيقية . فاعمال الجلد والتطريز وطبع المنسوجات واعمال التجارة البسيطة كلها تدخل في نطاق الفنون

فالفتاة التي تقوم بتطريز ما في البيت من ستائر ومفارش وأغطية وعمل مظلات المصابيح وزخرفتها وصنع مختلف الحقائب الصغيرة وسائر المصنوعات الجلدية تقضي فراغها في عمل فني مفيد . وانه لجميل جداً ان يحتوي البيت على قطع من السجاد ومناضد صغيرة ورفوف جميلة من صنع أهل البيت

بهذا يكتسب كل منزل طابعاً خاصاً هو صورة لذوق ساكنيه . وليس يكفي أن يكون لكل بيت طابع خاص . بل المهم ان يكون هذا الطابع متفقاً مع الذوق السليم . وممارسة مختلف الفنون المذكورة بعد التدرب عليها تحت إشراف اناس قادرين على حسن التوجيه والارشاد من شأنه ان يؤدي الى النتيجة التي نرمي اليها

وطبيعي جداً أن من بين شبابنا من أتيحت له فرصة التدرب على هذه الامور في المدارس وهؤلاء ينبغي لهم ان يواصلوا جهودهم في هذه الناحية واستمرارهم هذا كفيل بالوصول بهم الى نتائج طيبة . وفي اعتقادي أن المدرسة التي لا تعمل على توجيه تلاميذها منذ الصغر الى

ما يلائمهم من الهوايات الفنية المختلفة يكون التعليم فيها ناقصاً لا يؤدي رسالته على اكمل الوجوه ذلك لأن للعادات التي يعتادها الصغار اثراً كبيراً في حياتهم المستقبلة

أما الذين لم تساعدهم ظروفهم على التدرب على الاعمال الفنية من الصغر فيستطيعون دائماً ان يبدأوا محاولاتهم الاولى تحت ارشاد من سبقت لهم الخبرة في هذا السبيل . هذا بطبيعة الحال اذا لم يكن من الميسور ان يلتحق الشاب بأحد معاهد الفنون الليلية وهو ما تلجأ اليه الحكومات في الخارج لبث الروح الفنية بين أفراد الشعب . هناك ترى معاهد الفنون وقد خصت أقسامها الليلية بالطلاب والطالبات من شتى الطبقات ممن لا تسمح لهم ظروفهم بالدراسة النهارية المنتظمة ، وهم يدرسون في الاقسام المختلفة كل على حسب استعداده وميوله وكثير من هؤلاء يصلون الى درجة من المهارة تساعدهم على الكسب بما يخرجونه في اوقات الفراغ

أما الذين لا يصلون الا الى مرتبة الهواة العاديين فيكفيهم ما يجنون من تسلية بريئة وترفيه عن النفس من عناء اعمالهم في النهار

وهذا الحال لو أتيحت معارض دورية يقصر الاشتراك فيها على الهواة في مختلف الفنون يعرضون فيها ما ينتجونه في أوقات فراغهم على ان تمنح الجوائز للمتفوقين منهم

والفنون الجميلة لها فوق المزايا الخاصة التي سبق الكلام فيها ميزة عامة هي أثرها في حياة الفرد ونظام معيشته واسلوب تفكيره بوجه عام . وليس من شك في ان الشعب الذي يعد أفراده هذا الاعداد يكون شعباً أهنأ بالحياة وأسعد بها من شعب يضيع افراده أوقات الفراغ جلوساً على المقاهي يتحدثون فيما لا خير فيه او يلعب بهم الشيطان فيصرفون فراغهم في اللهو والعبث والمجون

# منشآت اوقات الفراغ

## القائم منها والمراد انشاؤه

للاستاذ زكي بدوي

سكرتير مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية

---

تختلف ميول الافراد واغراضهم باختلاف طبائعهم فما يصلح لفريق لا يصلح لآخر. لذلك نجد مثلاً انواعاً مختلفة من النشاط الاقتصادي والزراعي والصناعي والتجاري تقابلها اشكال عديدة من التعليم ويسير بجانب هذه وتلك صور متباينة من المنشآت الخاصة باقراغ

وقد تكون هذه المنشآت قائمة جميعها او بعضها بمصر ولكن الشائع منها انواع محدودة. ومن ثم كان من الخير للفرد ان يعرف انواع هذه المنشآت على حقيقتها ويقف على الفروق التي بينها، كما انهُ من الواجب على الجماعات ان تعمل على تنويع المنشآت القائمة بانشاء انواع جديدة تسد حاجات جديدة. والآن لعرض بايجاز لاهم هذه المنشآت:

(الكشف) هو نوع من التربية يعمل على صقل النفس وتدريبها على التواضع وحب الخير وانكار الذات في سبيل المجموع، وتمويد الشباب التخشن والاعتماد امام صدمات الحياة

وقد كان بادن باول أول من وضع نظام الكشافة سنة ١٩٠٠ بانكلترا ومن ثمَّ انتشر في جميع بلاد العالم. حتى اذا كانت سنة ١٩١٨ دخلت الحركة الكشفية مصر وكان فوز الحركة الاكبر يوم نصب الملك فاروق الاول شبلاً اعظم بمصر سنة ١٩٢٨ وكشافاً اعظم سنة ١٩٣٣ ثم إنشاء جمعية الكشافة الاهلية إنشاء رسمياً معترفاً به

وقد قامت نظرية بادن باول على فكرتين: الاولى أهمية حياة الكشف في تكوين الفرد والثانية هي ان يكون الطفل مسئولاً عن نفسه. وذلك لانهُ لاحظ ان المتوحشين احسن من المتمدنين بدنياً واخلاقياً فيجب ان ينتفع المتمدنون بالحياة الطبيعية وتعليم الاطفال تعليماً اخلاقياً يرمي الى (١) تحسين الذكاء (٢) تنمية الاخلاق (٣) الخدمة الاجتماعية (٤) عواطف البطولة

وحيث انهُ لا يمكن وضع الاطفال المتمدنين في بيئة المتوحشين لذا يجب تمويدهم حياة المتوحشين والعمل على تقليدهم من حيث الملابس وضروب العمل وغيرها فيبدي الطفل مواجهة صعوبات نظرية تساعده على مقابلة الصعوبات الحقيقية في المستقبل

تنقسم الكشافة الى ثلاثة أقسام : —

١ — صغار الكشافة ( البرزة ) : وهذه الفرقة يبتدىء عمر أفرادها من ثماني سنوات الى اثنتي عشرة سنة والغرض من تدريبهم تقوية أجسامهم وتثقيف عقولهم

٢ — الكشافة : يبتدىء عمر افرادها من إحدى عشرة سنة الى ثماني عشرة سنة والغرض من تدريبهم تقوية اخلاقهم وتعويدهم القيام بالواجب عليهم

٣ — الجوالة : وهذه الفرقة قوامها الذين عمرهم اكثر من ثماني عشرة سنة والغرض من تكوينها الاحتفاظ بفضائل الكشافة في معاملاتهم الاجتماعية والحياة القومية

ميثاق الكشاف : أعد بشرفي أني سأسعى جهدي لان أقوم بما يجب عليَّ لله وللملكي ولأمتي وان أساعد غيري في جميع الظروف وان أعمل بقانون الكشافة

قانون الكشافة : (١) شرف الكشاف إيمان وثيق (٢) الكشاف مخلص لملكه ولوطنه ووالديه ورؤسائه ومرؤوسيه (٣) واجب الكشاف ان يكون نافعاً ، ان يعين غيره (٤) الكشاف صديق الجميع وأخ لكل كشاف كائناً من كان (٥) الكشاف حميد السجايا (٦) الكشاف رفيق بالحيوان (٧) يطيع الكشاف أوامر والديه ورئيس قسمه ويعلم فرقته طاعة عمياء (٨) يبتسم الكشاف للشدائد ويصفر لها (٩) الكشاف مدخر (١٠) الكشاف نقي السريرة طيب الاقوال كريم الخصال

( فنادق الشباب Auberges de la Jeunesse ) نوع من الفنادق تسمح للشبان بالنوم والاقامة فيها بأجر رخيص ، للتشجيع على السياحة ، والتعلم من الطبيعة ، ومعرفة الوطن والبلاد الاخرى ، ولاكتساب الصحة ، والاعتماد على النفس ، وتحمل المشاق ، والسير على الاقدام ، وتعلم الابتكار ، والتمتع بالهواء الطلق ، والتدرُّب على البساطة في الحياة ، وتعزيز الروح الرياضية

أول ما نشأت هذه الحركة في المانيا قبل الحرب وأول فندق أنشيء سنة ١٩٠٧ وقد كان مؤسس هذه الحركة الاستاذ ريشار شيان Richard Schirrmann وكان يقوم برحلات أيام الخميس والاحد بصحبة تلاميذه ومن هنا نشأت الفكرة وانتشرت فلم تعد مقصورة على المدارس بل انتفع بها غير الطلبة متى كانت الفنادق خالية ، أي السياح

وفي سنة ١٩٣٣ (حديثك يا ٢٠٠ «أبو رج» في سنة ١٩٣٨ ٢٠١٨ انتشرت الفكرة في النمسا والسكندنافيا والنمسا وبلجيكا والدانمرك وهولندا وانقوسلوفاكيا وبولونيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا الواحدة تلو الاخرى ما بين سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٠ وانتشرت في السنوات الاخيرة انتشاراً عظيماً بفضل تدخل السلطات العامة ومساعدتها في تلك البلاد

الحركة الدولية لفنادق الشباب : اجتمعت عدة جمعيات لانشاء هيئة دولية لفنادق

الشباب فنات عدة دون وألقيت محاضرات متعددة وعقد الاجتماع الاول في هولندا باستردام وحضره ممثلو ١٥ دولة سنة ١٩٣٢ وفي المانيا سنة ١٩٣٣ وفي انكلترا سنة ١٩٣٤ وبولونيا سنة ١٩٣٥ وسويسرا سنة ١٩٣٩ والدانمرك سنة ١٩٣٦ وباريس سنة ١٩٣٧ وايرلندا سنة ١٩٣٨ وغرض هذه المؤتمرات الدولية هو :

١ — انشاء الصلة بين البلاد المختلفة ٢ — قبول الاقتراحات عن الدعاية والانظمة الخاصة بهذه الفنادق ٣ — الحكم في حالة الخلافات بين عدة أنظمة في البلد الواحد (مثلاً في بلجيكا توجد فنادق كاثوليك وبروتستانت) ٤ — اعطاء بطاقة عضوية للشبان الذين يرغبون في الرحلات والانتفاع بهذه المنشآت عندما لا يوجد في بلاد العضو فنادق من هذا النوع (اذ أن المفروض ان لا تعطى تذاكر الاشتراك الا اذا كان بلد العضو المشترك فنادق للشباب فاذا لم يكن ببلاده فنادق من هذا النوع منتمية الى الحركة الدولية فانهُ لا بد له من الالتجاء الى المركز للحصول على هذه البطاقة) . ومن أهم أغراض هذا المركز ابعاد الحركة عن كل فكرة سياسية او دينية . ولذلك لا يسمح للشبان بخوض الموضوعات في الفنادق

وتشد هذه الحركة بحسب البلاد المختلفة على جهة معينة فمثلاً في بولونيا تولي وزارة المعارف العمومية هذه الحركة عنايتها تعتمد في الترويج على نادي السياحة واحياناً تكون مستقلة

أنظمة هذه الفنادق في البلاد المختلفة تختلف بحسب ذوق كل بلد وميله وروحه . وكذلك من حيث الوجاهة . فمن فندق أشبه بالفنادق العادية من حيث كثرة عدد حجر النوم وغرف الاستحمام والمكتبة وأنهاء الاستراحة والطعام . الى مجرد حجر بسيطة بأرضها عدة مراتب من القش . ومن هذه الفنادق ما يبدأ في الحقول في بيوت الفلاحين . ومنها ما الحق بفندق او بقهوة او بمصر قديم او مدرسة الخ

(الهيآت الرياضية) هناك كثير من الهيآت تقتصر جهودها على نوع من الرياضة او على عدة انواع . وهذه الجهود في مرتبة توازي الجهود الرياضية المدرسية ، لكنها اعظم جاذبية وأكثر قرباً من الناحية العملية . ومهتم اعطاء احسن النتائج . واذا تعمقنا في البحث وراعينا التشريح وظائف الاعضاء وعلم النفس فان التربية البدنية في الوقت الحاضر تمثل مجموع الوسائل التي تشجع وتنشط نمو جميع الوظائف الفسيولوجية ، وتحسين الجهاز البشري بحيث يمكن الحصول من كل عضو على اكبر نتائج ممكنة . اما بخصوص الرياضة فهي ليست الا جانباً من التربية البدنية كتمرين لها او كدليل على قدرة تمارسها على الحياة الكاملة

لكن هذه التربية البدنية يجب ان تكون جزءاً من التربية العامة ، وهي تمارس حالياً على حدة بين الاتحاد على طريقة معينة غالباً ، وبلا تنسيق مع باقي منظمي فروع اوقات الفراغ وهي بذلك

غير كافية ، ومن ثمّ يجب على كل هيئة من هيآت تنظيم فراغ الشبان ان تخصص لاعضائها على الاقل ساعتين اسبوعيًّا للتربية البدنية . وبذلك لا يمكن فقط تكوين العضلات او تربية الملاحظة بل وتعزيز النشاط ايضاً والقدرة على العمل الشاق ، وكلها تصلح لجميع انواع الاعمال وتسمو عن طريق النضوج الاخلاقي الذي يدفع الفرد الى خدمة المجموعة . ويستلزم ذلك استخدام طرق التربية البدنية الصالحة كطريقة هربرت التي يجب أن تكون صادقة وعملية وجذابة اذ يمكنها ان توفّر العناصر اللازمة لتحسين صحة الشبان

لقد ازداد الاندفاع نحو الرياضة زيادة كبيرة في هذه الايام . والرياضة التي ليست منظمة تنظيماً كافياً تؤدي الى مبالغات مؤلمة ، فمارسوها الذين تساء قيادتهم غالباً يضعفون ابدانهم بالمباريات التي تجري قبل أوانها . اما المعجبون بهم فهم مجرد متحمسين عاجزين عن العمل ، والرياضة بين الهواية الكاذبة وهؤلاء المعجبين الخاملين ليست الاّ وهماً كبيراً ان لم تكن مهزلة كبرى

من الواجب توثيق صلة التعاون بين جميع الهيئات وتعزيز المبادىء وانطرق المتفقة مع الحياة الطبيعية . كما يجب ان تصرف المتفرجين عن الملاعب الكبيرة المخصصة لمشاهدة الاستعراضات وان تنشىء بدلاً منها ملاعب صغيرة أكثر صلاحية منها حيث لايخشى فيها جمهور اللاعبين عرض مواطن ضعفهم او مواضع نقصهم ومن واجب الدولة تشجيع هذه الوسائل الرياضية في البلاد

﴿ الاندية الاجتماعية ﴾ تعتبر الاندية من اهم الخدمات الاجتماعية الانشائية والوقائية ومن أنفع المنشآت التي تعمل على تنظيم اوقات الفراغ وتحصر اغراض منظمها في توثيق عرى الروابط الاجتماعية بين اعضائها وفي العمل على توفير وسائل التسلية ، الاّ ان ندية الشباب يجب ان تعنى بالنواحي الجسمية والفكرية والاخلاقية والاجتماعية بما يلائم الشباب ويشبع رغباته ويتسجم مع البيئة . فالعناية بالجسم تكون عن طريق التربية البدنية والرياضة والعاب القوى ، وترمي التربية البدنية هنا الى تنمية القوة الحيوية وتعليم العادات الصحية وتكوين الخلق القويم . اما الرياضة والعاب القوى فتكملة للتربية البدنية اذ تنمي الارادة والمواهب الخاصة بالفرد . وتقوم العناية بالناحية الفكرية على استخدام جميع الوسائل الممكنة لتوسيع أفق الفكر ، وتدريب الذهن لمواجهة مشكلات الحياة واصدار الحكم الصائب عليها ، بدون فرض اي مذهب خاص بالنظام الاقتصادي او الاجتماعي . وهذه الوسائل هي انشاء مكتبة مزودة بأحسن الكتب الملائمة والمجلات الجرائد والمجلات ، وتنظيم دروس مسائية في بعض المواد العملية كالكهربائية والتصوير وغيرها . وكذلك القاء محاضرات بين حين وآخر في الموضوعات العصرية التي تخدم الشباب وتنظيم رحلات اسبوعية وفي اوقات الاعياد الى الضواحي والقيام بزيارات تاريخية والآثار تحت اشراف اخصائيين

على الرغم من ان العناية بالجسم والفكر تؤدي بطبيعتها الى تهذيب الاخلاق الا انهُ من المستحسن دائماً العناية بالناحية الخلقية عناية مباشرة

ويكون ذلك بمحاربة الآفات الاجتماعية عن طريق المحاضرات ونشرات الدعاية وتكوين الاخلاق الطيبة بث روح المحبة بين الاعضاء واحترام العمل والحياة العائلية

تعمل الاندية ايضاً على تعزيز الروح الاجتماعية وايجاد مثل اعلى مشترك وبث روح الطموح والتقدم بين الاعضاء، وتعويدهم خدمة الغير كالنزول الى الطبقات الفقيرة والاحتكاك بافرادها ومساعدتهم على تحسين حالتهم الصحية والفكرية والاجتماعية . وتشجع كذلك الاعضاء على تعليم الاميين وبعث بهم الى القرى في ايام العطلة لالقاء التعليمات والارشادات على الفلاحين فيبينون لهم طرق المعيشة الصحية ويقومون بتوزيع المنشورات عليهم . او وضع الاعلانات الجذابة والرسوم والصور الرمزية التي تخدم هذه الغاية

﴿ دور الكتب ﴾ الاطلاع والقراءة اثر عظيم في الثقافة وشغل اوقات الفراغ على أحسن وجه ، لذلك انشئت دور الكتب لتيسير هذا المطلب وقد انتشرت المكتبات المختلفة انتشاراً عظيماً ، واصبحت لها مكانة عالية ، ولا غرابة اذا وقفت عليها الاموال الطائلة ووضعت لها الميزانيات الكبيرة في كثير من البلاد الاوربية والاميركية

وليس الغرض من إنشاء مكتبة الاحتفاظ بالكتب لحين الحاجة اليها بل تشويق الافراد وترغيبهم في القراءة والمطالعة وتوصلاً لهذا الغرض تهتم كل مكتبة بتعيين أمين كفء لها . وهو غالباً من البلدات يشترط فيه ان يكون خريج احدى المدارس التي تنحصر مهمتها في اعداد طلابها للتوظف بالمكاتب العامة وهذه المدارس حديثة العهد فقد كان يخول لكل رجل او امرأة تقريباً ان يشتغلا في هذه المكاتب لان عملها كان محصوراً في اعارة الكتب واستعادتها ووضعها في اماكنها . اما اليوم فقد اصبح العمل في المكاتب عملاً فنيًّا

فتنسيق الكتب وتوزيعها كل الى الجهة التي تناسبها في المكتبة ، ووضع الفهارس على احدث الطرق وتنظيم سجلات المؤلفات الحديثة وتقييد الصادر والوارد الى المكتبة منها في سجلات منظمة بكل ذلك من عمل امناء المكاتب . ولأمين المكتبة فوق ذلك عمل آخر ، وهو لفت انظار القراء الى ما في المكتب من الكتب والمجلدات النفيسة والمقالات الشائقة التي تنشر في الصحف والمجلات الدورية

ومن مسائل العناية في تزيين جدران قاعات المطالعة بالصور والرسوم المستخرجة من الكتب والمجلات بتنسيقها في اوضاع خلابة . والغرض من وضعها تشويق القراء لمطالعة المجلات التي أخذت منها وعجائب الكتب يوجد عدد كبير من قصاصات الجرائد والمجلات التي لا توجد بالمكتبة وخوفاً

من فوات الفرصة على القراء تعلق هذه القصاصات على لوحات الاعلانات للاطلاع عليها

وكثيراً ما يضعون كتاباً مفتوحاً موضوعاً في اطار مغطى بالزجاج ترغيباً للقراء في قراءة فقرة خاصة او مشاهدة صورة ملونة حتى يستعيروا الكتاب لمطالعته. وعلى العموم يجري العمل على توجيه هذه المكتبات لصالح الشعب ومن ثم ينبغي ان تقوم سياستها العامة على المبادئ الآتية : —

١ — انشاء المكتبات الشعبية في كل حي اي يجب ان يكون نظامها لامركزيا بخلاف المكتبات العامة حيث المركزية هي القاعدة

٢ — يجب لختيار احسن الكتب من كل صنف فتكون المكتبة جديداً من كتب المدينة وكتب النسخة ، وفي كل نوع يجب توافر اكبر مجموعة من انواع الكتب لتخلف ميلات القراء ويجب ان ينتخب في المكتب المختارة للمكتبات الشعبية التعمق الشديد كما يجب ان يحتوي الاعداد الى العامة

٣ — يجب ان تكون ادوارها ملائمة لحياة الصيغة العادية وعلى الخصوص ما يتعلق بمواعيد الفتح

٤ — العمل على تكوين اخصائيين مهمتهم ارشاد الافراد والهيئات المختلفة الى خير الكتب والناشرين ووضع قوائم تشمل احسن الكتب التي تلائم كل طبقة . وتعنى معلومات عن ترتيب الكتب وغيرها وعمل البطاقات والفهارس وكل ما يتعلق بخزائن الكتب

٥ — تشجيع انشاء المكتبات في الاقاليم سواء أكانت مستقرة كانت أم متنقلة لتكون الكتب في متناول القراء على اختلاف طبقاتهم

٦ — العمل على ملائمة المكتبات لجميع طبقات القراء وذلك بانشاء مكتبات خاصة بالمصانع التي تلحق بها اماكن للعب او مخصصة للزراع او للاطفال او للمستشفيات

(جمعيات هواة الفنون) اهم هذه الجمعيات هي جمعيات هواة التمثيل والسينما والموسيقى وبناز انطوائهم عن المخترعين بالتجديد والابتكار لانهم يعتمدون في ارزاقهم على موارد اخرى غير الفن الذي يمارسونه ومن هنا كان عملهم الفني خالصاً لوجه الهواية غير متأثر بعوامل المادة ولا خاضع لمقتضيات الاغراض الخاصة التي تحتمها ضرورة العيش والتبادل الفني والخضوع لرئيس يكون في الغالب رأسمالياً ، ان لم يكن بفطرته كان ذلك يحكم حاجته الى العيش وأهم عوامل رقي جمعيات الهواة هي الاتحادات التي تمكنها ان تخدم الفن اجل خدمة

فيهم اتحاد جمعيات التمثيل بتنظيم الجهود في الفرق التمثيلية تحت رقابته وارشاده كما يتولى ابعاد العناصر الضارة عن الروايات ولا سيما الهزليات الماجنة او الروايات التي لا تسمو بمزاجها وغضائها او بمراميها عن الدنايا

ويجب الاهتمام بانشاء ثقافة تمثيلية فنية ترمي في الوقت نفسه الى ترقية مدارك الافراد من حيث اللغة العربية الفصحى وآدابها . ويكون ذلك باتخاذ بعض الاخصائيين في التمثيل واخراج الحفلات التمثيلية يمكن ارسالهم الى الاندية والجمعيات التي تهتم بالتمثيل لارشاد اعضائها . ويهتم ايضاً بالاتفاق مع اصحاب المسارح والفرق التمثيلية على تخفيض الاسعار في بعض ايام الاسبوع لتمكين الطبقات الفقيرة من حضور هذه الحفلات

وفي وسع اتحادات جمعيات هواة الموسيقى ان تعمل على جمع الحون وانغام الاغاني الشعبية القديمة المهددة بالزوال وإقامة حفلات لالقاء الاغاني والاناشيد الوطنية وتنظيم مسابقات ومنح جوائز لاحسن القطع الموسيقية الغنائية التي يجب ان تكون متنوعة ووضع قائمة بأحسن القطع الموسيقية للفرق وأحسن الاغاني للالقاء وذلك لرفع المستوى الفني لجمعيات هواة الموسيقى

***

﴿ الجامعات الشعبية ﴾ كانت الجامعات الشعبية الاولى مصدراً لكثير من الآمال الواسعة منذ انشاء الجامعة الاولى بفوبورج سانت انطوان على يد دهرم سنة ١٨٩٧ ثم اخذت الجامعات تعمل على انشائها فكانت تزداد شيئاً فشيئاً . وهذه الجامعات عبارة عن منشآت للتعليم العالي الشعبي وللتربية الاجتماعية . وتعمل على جمع الرجال من جميع الطبقات لبحث خلص عن الحقيقة والخير والجمال لكي تحقق بينهم نوعاً سامياً من الاشتراكية ليست [illegible] الاموال [illegible] [illegible] الافكار [illegible] لقد حاولت بعض هذه الجامعات أن تحتذي الاندية الشعبية [illegible] وذلك بانشاء علاقات بين الطبقات [illegible] [illegible] [illegible] غرضها التقريب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يمشوا بهم حركة [illegible] [illegible] الجامعات الشعبية [illegible] [illegible] الكتاب لا يستطيع [illegible] خاصة [illegible] [illegible] المصطلحات [illegible] [illegible] الجامعات الشعبية التي [illegible] [illegible] على الوضوح [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] في الجامعات الشعبية هي : —

الصحة الفردية والاجتماعية ، مبادىء القانون المدني ، علم الاجتماع والاقتصاد الاجتماعي ، الادب والفنون الجميلة ، العلوم والطبيعة

وقد يستعار احياناً بانسيما والرحلات والزيارات العلمية لمشاهدة تطبيق هذا الدروس . وقد تنظم نواح أخرى من النشاط التهذيبي لاتمام نشاط الجامعة كالحفلات الموسيقية والسينماتوغرافية والرحلات والسياحة

﴿ الاندية الشعبية ﴾ تنشىء الاندية الشعبية عادةً في الاحياء الفقيرة بالمدن الكبرى ويتولى ادارتها اشخاص ذوو مستوى عال اخلاقياً وعقلياً . فيخصصون جهودهم ومدارسهم لتحسين حالة سكان الحي وعماله الاخلاقية والعقلية والمادية متوسلين الى ذلك بجميع الطرق الممكنة . ويسعون الى ترسيخ المثل العليا في نفوس السكان باتصالهم بهم اتصالاً لا بد منه لتحقيق هذه الاغراض وليكون هناك تضامن اجتماعي بين الطبقات المختلفة . ويدرس القائمون بشؤون هذه الاندية فوق ذلك اتجاهات طبقات الشعب ومصاعبهم في الحياة وبحث المؤثرات الاولى في حياتهم واتجاه تفكيرهم اذ كل اصلاح لا تسبقه مثل هذه الدراسات قلما يفضي الى النجاح

ولا يقتصر جهد الاندية الشعبية على اصلاح اعضائها . ولكنها ترى ان وظيفتها الحقيقية يجب ان تتسع فتتجاوزهم الى كل ساكن بساكنة في الحي لان جميع هذه العناصر مرتبطة بعضها ببعض . لذلك تنظم اجتماعات دورية للآباء تعد فيها برامج لتسلية البيئة والسمر الظريف تؤدي الى اصلاحهم ورفع مستواهم . فاذا ما وجدوا فيها ما يجذبهم وما يجلبهم يحرصون على المواظبة ، استطاع النادي ان يكون عوناً لهم على ما يقابلهم من عقبات وما يصادفهم من مشكلات لا يستطيعون لها حلاً

وفي نفس الوقت تتولى المتطوعات من السيدات زيارة الامهات في منازلهن وتوطيد الصداقة بينهن لكي يتوسلن بذلك الى رفع مستوى الحياة العائلية باصلاح حال الأم والنشء . نشر الخدمة الاجتماعية والطبية . وكثيرا ما تقوم الاندية الشعبية باعطاء دروس منزلية لصغار الصناع وتنظم خدمات طبية للاطفال الرضع والاولاد والمراهقين كما تنشىء ملاعب للرياضة وروض للاطفال ومكتبات للمطالعة الى غير ذلك